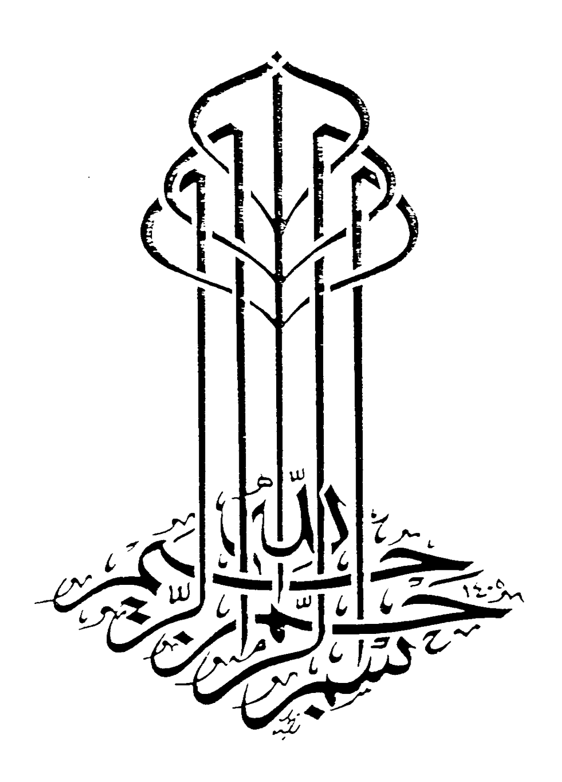
مقدمة
في فقه اللغة العربية
واللغات السامية

تأليف

الدكتور
عبد الفتاح عبد العليم البركاوي
أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة
بكلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر

الطبعة الثانية



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ..

فقد كان لي شرف تدريس مادة فقه اللغة العربية في عديد من الكليات في مصر والبلاد والعربية ، وقد استجبت لرغبة كريمة من الطلاب وبعض الزملاء ، في تلخيص هذه المحاضرات وتدوينها على نحو ييسر الرجوع إليها ، والإفادة منها .

أما موضوع هذه المحاضرات فهو إطلالة سريعة على تاريخ العربية في ضوء اللغات السامية ، ودراسة موجزة لبعض قضايا فقه العربية ، وقد بدأتها بتمهيد عن نشأة اللغة الإنسانية ، وكيفية تفرعها وانقسامها إلى ما أصبح يعرف بـ « الفصائل اللغوية » ، ثم انقسمت الدراسة بعد ذلك إلى الفصول الآتية :

الفصل الأول : وتحدثت فيه عن فصيلة اللغات السامية من حيث موطنها الأصلي وتقسيماتها وأهمية دراستها ، ثم عرضت بإيجاز لنماذج من الأكادية والسوريانية والعبرية والعربية الجنوبية ، ليكون ذلك بمثابة تمهيد للحديث عن الخصائص العامة لهذه اللغات .

في **الفصل الثاني** : تحدثت عن العربية المبكرة التي سبقت فصحى التراث ، من خلال دراسة لبعض النقوش التي قرأنا بعضها قراءة جديدة كشفت عن خصائص العربية في هذه الفترة ، وقد أعقب ذلك حديث عن فصحى التراث ، ممثلة في لغة القرآن الكريم ، والحديث النبوي

الشريف ، وأشعار الجاهلية وصدر الإسلام ، وتناولنا أهم الروافد التي ساهمت في تكوينها ، وأعدنا النظر في مسألة العلاقة بين لغة قريش والعربية المشتركة .

في **الفصل الثالث** : تناولت الدراسة قضيتين من قضايا فقه اللغة العربية بشيء من التفصيل ، هما : قضية الإعراب الذي يعد أهم خصائص العربية الفصحى ، وقد تناولنا أهم المسائل التي نشأ حولها الجدل بين القدامى والمحدثين ، مثل قيمة العلامات الإعرابية ، وأثرها في الدلالة على معاني النحو ، ومثل تحديد الزمن الذي سقط فيه الإعراب من لغة الكلام ، أما القضية الثانية فهي قضية التعريب التي لا تزال منذ فجر الإسلام تشغل بال كثير من اللغويين والفقهاء والأصوليين والمفسرين وعلماء الحضارة والمؤرخين من العرب والمستشرقين ، نظرا لما لها من أهمية لغوية ودينية وحضارية .

في **الفصل الرابع** : عرضنا لقضايا أخرى من قضايا فقه اللغة من خلال نصوص تمثل إشراقات سبق إليها فقهاء اللغة العرب ، وقد مهدنا لهذه النصوص بتعريفات موجزة بمؤلفيها ، والموضوعات التي تتناولها ، وقد جاء النص الأول الذي اخترناه من كتاب قطرب عن « الأضداد » ليشير إلى كيفية معالجة العلماء العرب لقضية تعدد معاني اللفظ الواحد ، ثم جاء النص الثاني الذي أخذناه عن ابن السكيت في « القلب والإبدال » ليشير إلى الصورة المقابلة لذلك ، وهي تعدد الصور اللفظية الدالة على المعنى نفسه ، أما النص الثالث فقد اخترناه ليمثل العلاقة بين اللفظ والمعنى من حيث وضوح الدلالة وخفاؤها ، وقد أخذناه عن الإمام الخطابي في مقدمته لكتابه « غريب الحديث » .

إننا بذلك نأمل أن نكـون قد أضـفنا لبنة ـ ولو صـغيـرة ـ يعلو بهـا صرح الدراسات المتعلقة بفقه اللغـة العربية ، فإن نك وفقنا فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن تكن الأخرى فحسبي أني بذلت الجهد وأخلصت النية ، وله سبحانه الحمد في الأولى والآخرة .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ،،

د. عبد الفتاح البركاوي

القاهرة ـ نوفمبر ١٩٩٤

فقه اللغة

على عكس مصطلح علم اللغة ـ بمعناه الحديث [1] ـ ، فإن فقه اللغة مصطلح عربي بحت ، حيث استعمله العلماء العرب منذ القرن الرابع الهجري ، فوجدناه يرد مثلا في عنوان كتاب لأبي الحسين أحمد ابن فارس هو : « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » ، وكتاب آخر للثعالبي هو : « فقه اللغة وسر العربية » ، ويستفاد مما ذكره ابن فارس في مقدمة الصاحبي أن المقصود بفقه اللغة هو « القول على موضوع اللغة وأوليتها ومنشئها ، ثم على رسوم العرب في مخاطبتها وما لها من الافتنان تحقيقا ومجازا » [1] .

أما الثعالبي فكان يقصد بفقه اللغة : « إيراد مجموعات من الألفاظ التي تقال في موضوع معين كالنبات أو الشجر مثلا » .

وفي العصر الحديث استخدم هذا المصطلح استخدامات عديدة ، منها :

١ ـ استخدامه في معنى المصطلح الأجنبي Philologe الذي يعني أساسا بدراسة النصوص والوثائق القديمة ، لتفسيرها وبيان محتواها اللغوي والأدبي والحضاري [2] .

٢ ـ استخدامه في معنى البحوث والدراسات المتعلقة بفقه اللغات السامية أو إحدى هذه اللغات (كما فعل علي عبد الواحد وافي في

---

(١) يقصد بـ « علم اللغة » : الدراسة العلمية للغة ، أي تلك الدراسة التي تتسم بسمات العلم من العموم والموضوعية والتماسك والاقتصاد والتعليل المباشر ، وهو ترجمة للمصطلح الانجليزي Linguistics .

(٢) انظر : القاموس الوجيز في مصطلحات علم اللغة ، ليبزج ١٩٧٨م ، ط. ٢ .

كتابه فقه اللغة) .

٣ ـ استخدامه مرادفا لعلم اللغة (كما فعل الأنطاكي في كتابه الوجيز في فقه اللغة) .

٤ ـ استخدامه مرادفا لعلم المفردات اللغوية (المعجم) [١] Lexicography .

وفي الحقيقة فإن فقه اللغة يتميز تميزا تاما عن علم اللغة Linguistics بالمعنى المعروف وهو : دراسة اللغة دراسة علمية مضبوطة [٢] ، وعن علم الفيلولوچي Philology ، لأن موضوع فقه اللغة أو فقه اللغة العربية ـ إذا صرفنا النظر عن الكلام عن نشأة اللغة الإنسانية ، باعتبار ذلك بحثا ميتافيزيقيا متعلقاً بفلسفة اللغة ـ هو ـ كما يقول تمام حسان ـ : « الألفاظ المفردة إذ يتناول كلَّ لفظ منها على حدة من حيث علاقاته المختلفة ، إما بلفظ غيرِه أو بمعناه هو أو باستعماله » [٣] ، وتشمل علاقة اللفظ بغيره المقارنة بين الألفاظ العربية ونظائرها من اللغات السامية الأخرى ، كما تشمل المقارنة بين الألفاظ العربية في بيئات أو أزمنة مختلفة ، ويدخل في هذا الإطار مقارنة اللهجات العربية ببعضها ، ليتضح بذلك مدى التغير الذي لحق بهذه الألفاظ من حيث الشكل ، سواء بالإبدال أو القلب المكاني ، أما علاقة اللفظ بالمعنى فتشمل

---

(١) انظر في تفصيل ذلك : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٩ وما بعدها ، محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ٣١ ، عبد الله ربيع وعبد العزيز علام : في فقه اللغة ص ٦ - ١٠ ، محمد أحمد أبو الفرج : مقدمة لدراسة فقه اللغة العربية ص ١٠ ، وتمام حسان : الأصول ص ٢٥٩ .

(٢) انظر في ذلك : كتابنا : مدخل إلى علم اللغة الحديث ٣٨ .

(٣) الأصول ص ٢٦٧ .

بحث الألفاظ التي يحاكي بجرسها أصوات في الطبيعة (١) ، أو كما يقول ابن جني : « إمساس الألفاظ أشباه المعاني » (٢) ، كما تشمل بحث علاقة اللفظ بمعناه المعجمي ، وهذا يشمل كل ألوان التأليف المعجمي عاما كان أو خاصا (٣) ، أما علاقة اللفظ بالاستعمال فيدخل فيها ذكر الألفاظ الغريبة أو المعرّبة ، والألفاظ الموضوعة بطريق الارتجال أو النحت أو الاشتقاق أو ما أشبه ذلك من وسائل نمو اللغة (٤) .

لقد حدد العلماء الفرق الواضح بين الصناعات (العلوم المضبوطة) ، والمعارف (العلوم غير المضبوطة) ، وإذا كان من خصائص الدراسة العلمية المضبوطة : الشمول والموضوعية والتماسك والاقتصاد (٥) ، فإن لنا أن نتساءل : هل يتصف البحث في المفردات اللغوية التي تشكل الموضوع الرئيس لفقه اللغة بأنه علم من العلوم ؟ ، إننا إذا حاولنا تطبيق خصائص العلم على فقه اللغة فسنجد أنه يتصف ببعضها ، ونعني بذلك الموضوعية (٦) والتماسك ، « أما الشمول بمعنى استنباط القواعد العامة من الظواهر الخاصة ، وما يترتب على ذلك من حتمية صدق النتائج ، فهو أمر لا يمكن أن يتصف به فقه اللغة ، وذلك لأن الحتمية والاستقراء الناقص متلازمان ، أما السمة الرابعة من سمات

---

(١) يسمي تمام حسان هذه العلاقة بدلالة الجرس ، ولا نرى وجها لإدخاله تأليف الكلمات من أصوات متقاربة المخارج تحت هذا العنوان ، وهو دلالة الجرس .

(٢) انظر : الخصائص ٢/١٥٢ .

(٣) كما يشمل أيضا قضية التعدد في اللفظ أو المعنى (الترادف والاشتراك) .

(٤) انظر في عوامل نمو اللغة : إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٦ - ١٣٢ .

(٥) انظر في ذلك : كتابنا : مدخل إلى علم اللغة الحديث ص ٣٨ وما بعدها .

(٦) تعتمد الموضوعية في فقه اللغة على الاستقراء الكامل لا الناقص ، وبالتالي فإنه لا يمكن أن تستنبط فيه قواعد تجريدية لظاهرة كالترادف أو الأضداد مثلا .

العلم - وهي الاقتصاد - فمما نفتقده في فقه اللغة »[١] .

ويرى تمام حسان - بحق - أن فقه اللغة إنما هو من قبيل المعارف لا الصناعات ، أي أنه ينتمي إلى العلوم غير المضبوطة ، لا إلى العلوم المضبوطة ، وهو مع ذلك أقرب إلى الفيلولوچيا منه إلى علم اللغة ، « بيد أن فقه اللغة يختلف عن الفيلولوچيا من حيث إن فكرة القدم ليست دائما من عناصر فهمه ، بل إننا لنلمح فيه عنصرا مستقبليا هو ما يطلق عليه " إثراء اللغة " ، وهذا العنصر بالذات هو مجال نشاط المجامع اللغوية »[٢] .

* * *

(١) بتصرف عن تمام حسان : الأصول ص ٢٦٩ .
(٢) تمام حسان : الأصول ص ٢٨٩ .

تمهيد

نشأة اللغة الإنسانية

يقول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ (٢) خَلَقَ الإِنسَنَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ صدق الله العظيم .

مما لا شك فيه أن الله سبحانه قد منّ على الإنسان منذ خلقه بنعمة البيان ، أي الإفصاح عما يعتلج في نفسه من مشاعر أو أفكار ، وكانت اللغة الإنسانية هي وسيلته إلى ذلك ، وقد لفتت هذه الظاهرة العجيبة أنظار الفلاسفة والعلماء إليها منذ القدم ، فتساءلوا عن نشأتها وطبيعتها ، وهل هي من صنع الله مباشرة ، أم أن الله سبحانه قد وفق البشر للاهتداء إليها ، وأعطاهم من القدرة العقلية والذهنية ما جعلهم يتمكنون هم أنفسهم من صنعها ؟ ، وإذا كانوا هم الذين صنعوها ، فكيف تسنى لهم ذلك ؟ ، أبمحاكاة أصوات الطبيعة التي حولهم ، أم أنهم تواضعوا عليها واصطلحوا على تكوين ألفاظها ، وإعطاء كل لفظ معنى من المعاني ؟ ، وتساءل الكثيرون أيضا : هل كانت اللغة منذ نشأتها غريزة من الغرائز التي لا دخل لإرادة الإنسان فيها ؟ ، أو كانت صناعة عقلية واختراعا بشريا بحتا ؟ ، وهل نشأت اللغة فتية يافعة ؟ ، أو أنها مرت بمراحل طفولة ، تلتها مراحل نضج واكتمال ؟ ، وتساءلوا مرة أخرى : هل كان الإنسان الأول يتحدث لغة واحدة ؟ ، أو كانت هناك لغات عديدة منذ البداية ؟ ، وإذا كانت هناك لغة واحدة في الأصل فما هي ؟ وكيف تفرعت إلى العديد من اللغات ؟ .

إن هذه التساؤلات التي شغلت أذهان الباحثين منذ عصر موغل في

القدم وحتى أيامنا هذه ، لم تجد بعدُ جوابا شافيا ، ولا يعدو ما يقال بشأنها أن يكون اجتهادا شخصيا يقوم على أدلة ظنية ﴿ وإن الظن لا يغني من الحق شيئا ﴾ ، أو أن يكون تفسيرا لأحد النصوص الدينية التي وردت في التوراة أو في القرآن بشأن اللغة التي علمها الله لأبي البشر آدم عليه السلام ، ولكن أيا من هذه التفسيرات المختلفة لم يرق إلى مرتبة القطع والثبوت التي يتحتم عندها الأخذ به وطرح ما عداه ، ولا يتسع المقام هنا لعرض كل الآراء التي قيلت بشأن نشأة اللغة ، سواء أكان مصدرها اجتهادا شخصيا أم تفسيرا لنص ديني ، ولكننا سنجمل أهمها فيما يلي :

نظرية التوقيف

تعني هذه النظرية أن اللغة توقيف من الله ، أي أنها من عنده سبحانه لقنها آدم عليه السلام ، وقد شاع القول بذلك عند الكثيرين من الفلاسفة واللغويين قديما وحديثا من المسلمين وغيرهم ، يقول أحمد بن فارس : « إن لغة العرب [١] توقيف ، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه ﴿ وعَلَّمَ آدم الأسماء كلها ﴾ [٢] ، فكان ابن عباس يقول : علمه الأسماء كلها ، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس ، من دابة وأرض وسهل وجبل وأشباه ذلك ... ... ، والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم ، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا ، لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج (بنا) لو اصطلحنا على

---

(١) واضح هنا أن ابن فارس كان يرى أن العربية هي اللغة الإنسانية الأولى (الصاحبي : في فقه اللغة ص ٦ ، تحقيق : السيد أحمد صقر) .

(٢) سورة البقرة : آية ٣١ .

لغة اليوم ، ولا فرق » [١] .

ويرى ابن فارس أن اللغة لم تنشأ مرة واحدة ، وإنما تدرجت في مراحل متعددة ، حتى وصلت إلى قمة النضج والاكتمال على عهد الرسول محمد ﷺ ، فيقول : « ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة ، وفي زمان واحد .

وليس الأمر كذلك ، بل وقَّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يُعَلِّمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه ... ثم علّم بعد آدم عليه السلام عربَ الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ، ما شاء أن يعلمه ، حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد ﷺ ، فآتاه الله عز وجل من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله ، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة » .

وواضح مما ساقه هذا العالم العربي أنه كان يرى العربية هي اللغة الإنسانية الأولى[٢]، وأنه قد استند في قوله بالتوقيف إلى تأويل « علّم » في الآية الكريمة بـ « لقّن » ، وهذا كما يقول أبو الفتح بن جني [٣] لا يتناول موضع الخلاف ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله « أقدر آدم » على أن

---

(١) ذكر ابن فارس فيما بعد (ص ٨) أنه « لم يبلغه أن قوما من العرب في زمان يقارب زماننا قد أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنا (أي ابن فارس وأصحابه) نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم » ، ولعله كان يقصد ما يحتج به من الألفاظ .

(٢) لم يكن ابن فارس بدعا في القول بهذا ، « فقد اعتبرت كل جماعة لغوية أن لغتها هي الوحيدة الجديرة بهذا الوصف ، وقد انتهوا بطبيعة الحال إلى أن لغتهم هي الأصل ، وأن كل اللغات الأخرى فروع مشتقة منها » ، فكان بنو إسرائيل يعتقدون أن أصل اللغات إنما هو العبرية ، وكان الإغريق يعتقدون أنها اليونانية (انظر : ماريوباي : لغات البشر ص ٤٥ ، ترجمة : صلاح العربي) .

(٣) انظر : الخصائص ١/ ٤٠ وما بعدها .

واضع عليها ، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به ، أما ما ذكره ابن فارس من عدم الاحتجاج بكلام معاصريه فلا ينبغي أن يؤخذ دليلا على التوقيف ، لأن سببه كان نقاء اللغة القديمة وعدم فسادها بسريان اللحن إليها [١] .

وتسمى نظرية التوقيف بنظرية الأصل الإلهي للغة ، أو نظرية الإلهام [٢] ، ويقابلها نظرية الأصل الإنساني ، التي تعني أنها من صنع البشر ، وقد اختلف القدماء في تصوير هذا الأصل الإنساني لنشأة اللغة على النحو الذي تصوره النظريتان التاليتان :

نظرية الاصطلاح والمواضعة

يرى القائلون بهذه النظرية أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، وينسب ابن جني [٣] هذا الرأي إلى أكثر أهل النظر في زمانه ، ويصور وجهتهم بقوله : « قالوا : وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا ، إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز عن غيره ... فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا : إنسان إنسان ، فأي وقت سمع فيه هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من

---

(١) انظر في تفصيل هذه النظرية ، والقائلين بها قديما وحديثا ، وفي أدلتهم ، والرد عليهم ـ عدا ما سبقت الإشارة إليه من مراجع ـ : المزهر للسيوطي جـ ١ ص ٧ - ٢٩ ، نشأة اللغة بين الإنسان والطفل ، لعلي عبد الواحد وافي ص ٣٠ وما بعدها ، فقه اللغة العربية لأستاذنا عبد الله العزازي ص ٣٠ وما بعدها ، في علم اللغة العام لعبد الصبور شاهين ص ٦٩ .

(٢) ممن قال بهذا الرأي من القدماء الفيلسوف اليوناني هيراكليت ، ومن المحدثين الأب لامي ، وديونالد . انظر : نشأة اللغة لعلي عبد الواحد وافي ص ٣١ .

(٣) الخائص ١/ ٤٠ .

المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا عين ، يد ... ، أو نحو ذلك ، فمتى سُمِعَت اللفظة من هذا عرف معناها ، وهلم جرا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف [١].

ويفسر هذا الفريق تعدد اللغات بأنه قد نشأ عن طريق المواضعة أيضا ، يقول ابن جني : « ثم لك بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها ، فتقول الذي اسمه إنسان ، فليجعل مكانه مرد ، والذي اسمه رأس ، فليجعل مكانه "سر" » [٢] ، وعلى هذا بقية الكلام .

ولعل أهم الاعتراضات التي وجهت إلى هذه النظرية هو أن الاصطلاح يلزمه اصطلاح آخر ، فيلزم الدور والتسلسل [٣] ، أو بعبارة أخرى [٤] : « أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون ، فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على لغة سابقة » [٥] .

---

(١) الخصائص ١ / ٤٤ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة ، و« مرد » تعني « إنسان » بالفارسية ، وكذلك تقابل « سر » الفارسية « رأس » بالعربية .

(٣) المزهر ١ / ٢١ .

(٤) وافي : نشأة اللغة ص ٣٣ ، وقد اعتمد القائلون بذلك في تأييد نظريتهم أساسا على دحض حجة القائلين بالتوقيف ، وأضافوا إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، مما يعني تقدم اللغة على الرسالة ، ولو كانت اللغات توقيفية لكانت الرسالة (أو البعثة) تسبق وجود اللغة ، وهذا باطل بنص الآية ، فيلزم القول بالاصطلاح ، انظر تفاصيل حجة القائلين بالاصطلاح والرد عليها في : المزهر للسيوطي جـ ١ ص ١٨ ، وقارن بإبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٨ ، علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة ص ٣٣ ، عبد الصبور شاهين : علم اللغة العام ص ٧١ .

(٥) ويعبر ماريوباي عن هذا الاعتراض بعبارة ثالثة ، فيقول : « أنه لو اتفق البشر على أن مجموعة من الأصوات ترمز إلى أشياء معينة ، فلا بد أن هذه ==

نظرية المحاكاة

يرى القائلون بهذه النظرية أن اللغة قد نشأت في البداية عن محاكاة أصوات الطبيعة ، وذلك بأن يقلد الإنسان الصوت الذي يسمعه للتعبير عن مصدر هذا الصوت أو صفة من صفاته ، ويصور ابن جني رأي القائلين بالمحاكاة فيقول : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » ، ثم يعقب ابن جني على هذا الرأي بقوله : « وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل » [١] ، ورغم صلاحية هذا الرأي في نظر ابن جني ، إلا أنه لم يعول عليه في تفسير نشأة اللغة ، أو يجعله أحرى من غيره بالقبول ، فقد تساوت عنده الكفتان ، كفة القائلين بالمحاكاة ، وكفة القائلين بالتوقيف ، ولم يجد ما يرجح به إحداهما على الأخرى ، ويعبر عن رأيه هذا بقوله [٢] : « أقف بين الخليتين (الرأيين) حسيرا ، وأكاثرهما فأنكفئ مكثورا ، وإن خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف بإحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها قلنا به » ، ويبدو أن هذا الخاطر الذي علق ابن جني رأيه عليه لم يصادفه - كما لم يصادف الكثيرين غيره حتى الآن -

---

== الأصوات قد نشأت في مكان ما قبل أن يتفق الناس على ما ترمز إليه » .
انظر : لغات البشر ص ١٧ وما بعدها ، ترجمة : صلاح العربي .

(١) الخصائص ١ / ٤٧ .

(٢) يذكرنا هذا بموقف كاسيرر : « وهذا الرأي هو وحده الذي يستطيع - فيما يبدو - أن يزيل الفجوة القائمة بين الأسماء والأشياء ، غير أننا إذا حاولنا أن نقضي على هذه الفجوة أخفقنا وازدادت الفجوة اتساعا » (فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢٠٣) .

حتى لقي ربه .

ولا تفسر لنا هذه النظرية إلا قلة قليلة من الألفاظ هي التي تحاكي بجرسها أصواتا في الطبيعة ، مثل نزيب الظبي ، وحنين الرعد ، وما شابه ذلك ، أما الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغة فلا يمكن أن تلمح فيها علاقة طبيعية بين ما تتركب منه من أصوات ، وما تدل عليه من معان ، وقد تنبه العلماء العرب لفساد هذا القول ، ورأوا دليل فساده « أن اللفظ لو دلّ بالذات (أي كانت دلالته على معناه دلالة طبيعية) لفهم كل واحد كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية ، واللازم باطل ، فالملزوم كذلك (١) .

ورغم وضوح هذه الحقيقة ، وهي أن دلالة الألفاظ إنما هي دلالة عرفية واجتماعية ، فقد غض كثير من العلماء المحدثين النظر عن ذلك ، وذهبوا إلى ما ذهب إليه بعض العلماء العرب في القول بالمحاكاة تفسيرا لنشأة اللغة الإنسانية ، ومن أشهر القائلين بذلك من المحدثين اللغوي الأمريكي هوتني Whitny (٢) .

وإلى جانب هذه النظريات الحديثة التي قال بها القدماء (وتبعهم

---

(١) المزهر ١/ ١٦ ، ويرى إبراهيم أنيس (دلالة الألفاظ ص ٢٣) أنه يضاف إلى ذلك اختلاف الألفاظ ذات الدلالة الطبيعية من لغة إلى أخرى حتى في الفصيلة اللغوية الواحدة ، فليس لخرير الماء أو حفيف الشجر في كل لغات البشر كلمات مشتركة في لفظها أو بعض لفظها ، ولو كان الأمر كما يرى أصحاب هذه النظرية لكانت متحدة وثابتة في كل اللغات .

(٢) انظر في توضيح وجهة المحدثين التي لا تختلف جوهريا عما صوره ابن جني كلا من : أنيس : دلالة الألفاظ ص ٣١ ، ووافي : نشأة اللغة ص ٤٠ ، وكمال بشر : قضايا لغوية ص ١٢٠ وما بعدها ، وأرنست كاسيرر : فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢٠٣ وما بعدها .

كثير من المحدثين) ، فإن هناك نظريات أخرى يطلق عليها عادة اسم النظريات البيلوچية [١] ، أو النظربات الحديثة التي تعتبر متفرعة على نحو ما عن نظرية المحاكاة السابقة [٢] .

وأهم هذه النظريات :

نظرية المؤثرات الخارجية (Ding-Dong)

يرى أصحاب هذه النظرية أن « هناك صلة وثيقة بين ما ينطق به المرء من أصوات ، وبين ما يدور في خلجه من أفكار ، ويرون أن كل أثر خارجي يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات » [٣] ، ويعني هذا أن اللغة قد نشأت في بدايتها الأولى كرد فعل لما يحسه الإنسان تجاه العالم الخارجي ، وهذه النظرية تقارب إلى حد كبير نظرية القدماء ، التي تفترض وجود علاقة ـ من نوع ما ـ بين الصوت والمعنى [٤] ، وقد قال بعض العلماء المسلمين بما يشبه هذه النظرية ، حيث قرر الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه « أن الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية ، أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع » [٥] .

نظرية الغريزة

تعد هذه النظرية بمثابة امتداد للنظرية السابقة لاعتقاد أصحابها أن اللغة الإنسانية الأولى نشأت من صيحات ـ مصدرها الغريزة الإنسانية ـ

---

(١) انظر : إرنست كاسيرر : فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢٠٧ .

(٢) ماريوباي : لغات البشر ص ١٧ .

(٣) إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ٢٥ .

(٤) ببعض تصرف عن : لغات البشر ص ١٧ .

(٥) انظر : المزهر ١/ ٤٢ .

للتعبير عن الفرح أو الحزن أو الألم أو ما شابه ذلك ، ولهذه النظرية علاقة بما قال به دارون من النشوء والترقي ، إذ ربط دارون بين نشأة اللغة لدى الإنسان وبين « تلك الأصوات الغريزية والانفعالية من آهات وتأوهات وأصوات الدهشة والتعجب ، وجعلها الأساس الأول الذي استمدت منه اللغة الإنسانية نشأتها [١] ، ويعتبر ماكس موللر ، وأرنست رينان من أشهر من قال بهذه النظرية [٢] ، وقد اعتمدوا في إثباتها على نفي ما عداها [٣] ، ولو صحت هذه النظرية لكانت هذه الأصوات الانفعالية التي هي صورة سلبية للكلام [٤] هي الأصل في اللغة ، وهذا أمر بعيد الاحتمال .

نظرية الغناء

يرى القائلون بهذه النظرية أن اللغة الإنسانية قد نشأت عن الغناء الفطري ذي الإيقاع الرتيب ، الذي تحول إلى لغة في نهاية الأمر [٥] .

نظريات أخرى

هناك من اعتقد أن اللغة قد نشأت كمجموعة من الأصوات والآهات التي تصاحب قيام مجموعة من الناس بمجهود عضلي شاق ،

---

(١) أنيس : دلالة الألفاظ ص ٢٣ .

(٢) وافي : نشأة اللغة ص ٣٥ .

(٣) انظر : تفصيل أدلتهم والرد عليها في نشأة اللغة ص ٣٧ .

(٤) أي أنها ـ كما يقول أنيس ـ (دلالة الألفاظ ص ٢٤) : لا تصدر عن المرء إلا عندما يعييه القول ، أو حين يتأبى عليه الكلام ، هذا بالإضافة إلى أن كثيرا منها يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها في كلام البشر ، وذلك مثل أصوات اللين المهموسة .

(٥) انظر في هذه النظرية : ماريوباي : لغات البشر ص ١٨ .

كتلك التي تصدر عن مجموعة الصيادين عندما يستخرجون شباكهم من النهر ، وهناك من العلماء من رأى أن نشأة اللغة يرتبط بقيام أعضاء الكلام ، وخاصةالأحبال الصوتية ، بمحاكاة ما تقوم به أعضاء الجسم الأخرى من حركات ، وهناك من ظن أن الإنسان عندما وصل درجة الرقي فسار على قدميه ، وانتصبت قامته ، تغير تركيب مخه إلى الحد الذي مكنه من التحكم في أعضاء النطق واستعمالها على النحو الذي يبرز فيه الكلام الإنساني [١] .

إن كل هذه النظريات والآراء لا تقدم جوابا شافيا عن كيفية النشأة الأولى للغة الإنسانية ، إذ مما لا شك فيه ـ كما يقول ماريوباي ـ أن كل هذه النظريات لم تثبت صحتها علميا ، ولا يمكن إثبات أساس صحيح لها ، وقد يكون هناك جانب من الحقيقة في كل من هذه النظريات ، حيث يمكن تطبيق بعض مبادئها على بعض الكلمات التي تستحدث في كل اللغات التي نمارسها ، ولكن من المشكوك فيه أن إحدى هذه النظريات ـ أو كلها ـ تنطبق على العملية اللغوية برمتها [٢] .

كيف كانت اللغة الإنسانية الأولى ؟

عندما عجز العلماء بوسائلهم التقليدية عن الإجابة القاطعة عن التساؤل الخاص بكيفية النشأة الأولى للغة ، حاول بعض اللغويين الإجابة عن السؤال الذي يتلو ذلك ، وهو : كيف كانت ؟ علهم

---

(١) انظر في هذه الآراء : ماريوباي : لغات البشر ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) انظر في نقد هذه النظريات البيولوجية : أرنست كاسيرر ، الذي يرى أن خالقي النظريات البيولوجية في أصل اللغة عجزوا عن « أن يروا الغابة حيث رأوا الأشجار » ، أي أن يستدلوا بالأجزاء على الكل . فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢٠٨ .

يستطيعون بهذه الطريقة الوصول إلى معرفة هذه النشأة ، وللإجابة عن هذا التساؤل (الأخير) رأى العالم اللغوي الدانمركي يسبرسن أنه لا بد من دراسة أمور ثلاثة نستطيع من خلال نتائج دراستها أن نصل إلى تصور اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى ، وهذه الأمور هي :

١ ـ دراسة ميدانية للغات البدائية .
٢ ـ دراسة لغة الطفل .
٣ ـ دراسة تاريخية لتطور اللغة .

يقول يسبرسن : « إن المنهج الذي أستحسنه وأنا أول من يستعمله دون تردد هو أن نتتبع لغتنا الحديثة عوداً في الزمن ، بقدر ما يسمح به التاريخ ، وتقره المواد التي لدينا ... فإذا توصلنا من هذه العملية أخيرا إلى أصوات منطوقة ، هذا وصفها ، حتى لا يمكن أن نسميها لغة حقيقية ، وإنما شيئا سابقا للغة ، حينئذ تكون المشكلة قد حلت ، ذلك أن التحول شيء يمكن فهمه ، أما الخلق من لا شيء فلا يمكن للفهم الإنساني أن يتصوره » (١) .

لقد توصل هذا الباحث ومن تبعه من العلماء إلى نتائج مهمة تلقي مزيدا من الضوء على حالة اللغة في أطوارها الأولى ، منها : أن تركيب الكلمات في هذه الفترة السحيقة كان طويلاً ومعقدا ـ شأنه في ذلك شأن اللغات البدائية ـ ، ومكونا من أصوات صعبة مالت اللغات الحديثة إلى التخلص منها ، ومنها أن هذه اللغة كانت تعتمد إلى حد كبير على

---

(١) نقلا عن : كاسيرر : فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢١٠ ، هذا وقد بسط يسبرسن رأيه هذا أولا في كتابه : التقدم في اللغة (لندن ١٨٩٤م) ، ثم في كتابه : اللغة طبيعتها وتطورها وأصلها (لندن ـ نيويورك ١٩٢٢م) .

عناصر أدائية ـ مثل النبر والتنغيم ـ في التعبير عن المعاني المختلفة ، ومنها الميل إلى الغناء في أثناء النطق ، ومنها أن اللغة الأولى لم تكن وسيلة أو أداة للتعبير عن الأفكار ، وإنما للتعبير عن أمور محسوسة على نحو غامض ومعقد يشبه مناغاة الطيور ، وصياح الحيوان ، وترنمات الطفل الصغير [١] .

لقد اعتقد هذا الفريق من الباحثين أنه قد اقترب من حل مشكلة النشأة الأولى للغة الإنسانية ، ورأوا أن اللغة في أول أمرها كانت عبارة عن « صيحات عاطفية أو عبارات موسيقية ، أي أن ما كان في الأصل خليطا من أصوات لا معنى لها أصبح فجأة بهذه الطريقة أداة للفكر ، فمثلا تغيرت مجموعة من الأصوات كانت تغنى في نغمة معينة ، وتستخدم أنشودة للانتصار على عدو هزم أو ذبح ، تغيرت فإذا بها اسم علم على تلك الحادثة المعينة أو لذلك الشخص الذي ذَبَحَ العدو ، وهذا التطور قد يخطو خطوة أخرى بتحول مجازي في التعبير ، فيدل على مواقف مشابهة » [٢] .

ولعل أهم نقد وجه إلى هذه النظرية يتمثل فيما ذكره كاسيرر من أن « هذا التحول المجازي الذي أشار إليه يسبرسن هو الذي يحوي كل المشكلة في الحقيقة ، إذ يعني أن المنطوقات الصوتية التي كانت حتى عهدئذ صيحات أو دفقات عفوية من العواطف القوية ، قد أصبحت تؤدي وظيفة جديدة كل الجدة ، إذ أصبحت رموزا تنقل معاني محددة ، وقد اقتبس يسبرسن نفسه ملاحظة لبنفي Benfey يقول فيها : إن بين

---

(١) انظر في النتائج التي توصل إليها يسبرسن ومن نحا نحوه : إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ٣٢ وما بعدها ، كمال بشر : قضايا لغوية ص ١٢٦ وما يليها .

(٢) انظر : فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢٠٩ وما بعدها .

صيحة التعجب والكلمة فجوة واسعة جدا تمكننا من القول بأن صيحة التعجب نفي للغة ... »[١]، وقد خلص الباحثون إلى نتيجة مؤداها : أن الفرق بين الصيحات والأسماء أعظم وأوضح من التماثل بينهما[٢].

لقد تركز اهتمام العلماء على مرحلة تاريخية أقرب منالا في حياة اللغة البشرية، أي أنهم انتقلوا من مشكلات النشأة إلى مشكلات التصنيف والتوزيع، وقد تمثل ذلك في تقسيمهم للغات البشرية إلى أنواع أو فصائل لغوية، تجمعها مرحلة تاريخية أو علاقات قرابة لغوية.

أقسام اللغات البشرية

اختلفت اراء العلماء فيما يتعلق بهذه الأقسام اختلافا كبيرا، وفقا للأساس الذي بنوا عليه هذا التقسيم، فهناك من اتخذ من النصوص الدينية الواردة في التوراة أساسا للتقسيم، وهناك من رأى اعتبار مراحل التطور هو الأساس الذي يعول عليه في ذلك، وذهب فريق ثالث إلى أن علاقات القربى وأواصر النسب اللغوية هي الأجدر بالمراعاة في عملية التقسيم اللغوي، وهكذا وجدت النظريات والآراء التالية :

التقسيم العرقي

يعتمد هذا التقسيم على العلاقات العرقية أو السلالية، وأحيانا على الحدود الجغرافية التي كانت سائدة بين شعوب العالم القديم، وقد اعتمد القائلون بهذا الرأي على جداول الشعوب التي وردت في التوراة، تلك التي تنسب الشعوب التي عمرت الأرض بعد الطوفان إلى

---

(١) كاسيرر : فلسفة الحضارة الإنسانية ص ٢١٢، وقارن بإبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ٣٧.

(٢) كاسيرر : السابق ص ٢١٣.

أبناء نوح الثلاثة ، سام ، وحام ، ويافت ، وقد انقسمت اللغات الإنسانية تبعا لهذا التقسيم إلى :

١ ـ لغات سامية .

٢ ـ لغات حامية .

٣ ـ لغات آرية أو يافثية ، ويعرف هذا التقسيم باسم النظرية القديمة [١] ، لاعتماده على ما ورد في التوراة [٢] من نصوص قديمة .

التقسيم وفقا لدرجة التطور

يراعي القائلون بهذا التقسيم المرحلة التاريخية التي مرت بها اللغات المختلفة ، ودرجة تطورها ، وارتقائها ، وذلك دون نظر إلى العلاقات الجنسية أو درجات القرابة اللغوية التي يمكن ملاحظتها بين اللغات المختلفة ، وتعتمد بدلا من ذلك على مقاييس صرفية (مورفولوچية) ونحوية تعكس مدى التطور الذي أصاب اللغات في مراحلها التاريخية المختلفة ، وتسمى هذه النظرية بالنظرية النوعية Sprachtypology (تنوع اللغات) ، ويرجع تقسيم اللغات وفقا للنوع الذي تنتمي إليه إلى الأخوين شليجل Schlegel [٣] ، وتنقسم اللغات

---

(١) انظر : عبد الله ربيع وعبد العزيز علام : في فقه اللغة ص ٥٧ .

(٢) يؤخذ على تقسيم الشعوب كما ورد في التوراة مراعاته للنواحي السياسية والجغرافية في بعض الأحيان أكثر من مراعاته للعلاقت الجنسية أو اللغوية ، فقد ذكر على سبيل المثال أن الفينيقيين من أبناء حام بسبب علاقتهم بالمصريين ، على الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين كما يقول نولدكه .
انظر : الإصحاح العاشر من سفر التكوين ، وقارن برمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٢٥ ، ومحمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٣٣ ، ملاحظة رقم ٢.

(٣) Handbuch der Linguistik; S. 431 .

وفقا لأنواعها المختلفة إلى :

١ ـ لغات عازلة (غير متصرفة) ، وتسمى أيضا باللغات التحليلية وفي هذا النوع تبقى الكلمات جامدة دون تغيير ، وتتضح معانيها النحوية (كالفاعلية والمفعولية) من خلال مواقعها في الجملة ، أو من خلال الوقف على أجزاء معينة فيها ، ومن أمثلة هذا النوع اللغة الصينية ، والفيتنامية .

٢ ـ لغات لصقية ، وفي هذا النوع تتضح المعاني الصرفية المختلفة (كاسم الفاعل أو المفعول) من خلال لواحق [١] منفصلة تتلو الكلمة الأصلية (أو تسبقها) ، ومن أمثلة هذا النوع اللغة اليابانية أو التركية .

٣ ـ لغات متصرفة ، وفي هذا النوع تتغير مباني الكلمات بتغير معانيها [٢] الصرفية ، ويدل فيها على المعاني النحوية بعلامات إضافية كعلامات الإعراب في اللغة العربية ، ومن أمثلة هذا النوع : اللغات العربية ، واللاتينية ، والألمانية .

وهذه الأنواع الثلاثة تمثل مراحل التطور الذي وصلت إليه اللغة البشرية ، فبينما يمثل النوع الثالث أرقاها أو أكثرها تطورا ، يمثل النوع الأول أقل اللغات تطورا ، بينما يحتل النوع الثاني مرحلة وسطى (من حيث التطور) ، وقد وجهت إلى هذا التقسيم ـ الذي تطور

---

(١) يندرج تحت هذا النوع تلك الطائفة من اللغات التي تتصل فيها الوحدات الصرفية المكونة للجملة على نحو لا يقبل الانفصال ، وبعض العلماء يتعبر هذا نوعا قائما بذاته يطلق عليه اسم « اللغات المُرَكّبة » .
انظر : ماريوباي : أسس علم اللغة ص ٥٦ .

(٢) انظر : وافي : نشأة اللغة ص ٥٧ .

فيما بعد على يد كل من فنك Finck (١٩٠٩م) ، وسابير Sapir (١٩٢١م)[1] - اعتراضات عديدة ، منها : أن هذه الأنماط الثلاثة قل أن تخلو منها لغة من اللغات ، فاللغة الإنجليزية التي تصنف عادة على أنها من اللغات الأكثر تطورا (أي من النوع المتصرف) ليس من النادر أن نجد فيها جملا مثل Haw do you know that I go to school ?.

وهذه الجمل وأمثالها تصلح مثالا جيدا للجمل في اللغات التحليلية (العازلة) ، وكذلك الحال بالنسبة للغة الألمانية التي توصف بأنها أيضا لغة متصرفة ، إذ كثيرا ما تبنى فيها الكلمات بواسطة اللواحق أو السوابق التي هي سمة اللغات اللصقية من نحو : Die ver - bind - ung wird auf - ge - lost .

والحال في لغتنا العربية لا تختلف كثيرا عن ذلك ، إذ بينما نجد فيها كثيرا من مظاهر التصريف ، لا تعدم أن نجد فيها مظاهر تنتمي إلى النوعين الآخرين ، من مثل : ضرب موسى عيسى ، ومن نحو : قام وأقام[2] .

ويضاف إلى ذلك أن بعض الأدلة التاريخية تعارض هذه النظرية كما يقول ماريوباي ، فقد كانت اللغة الإنجليزية في أول عهدها لغة صرفية (متصرفة) ، ولكنها صارت الآن لغة جامدة (عازلة)[3] .

---

(١) انظر تقسيم كل من فنك وسابير في : Handbuch der Linguistik; S. 431 .

(٢) في المثال الأول دلت مواقع الكلمات على المعاني النحوية (شأن اللغات العازلة) وفي المثال الثاني دلَّ على معنى التعدية (وهو صرفي) بالسابقة (الهمزة) ، شأن اللغات اللصقية . انظر : واقي : نشأة اللغة ص ٦٢ .

(٣) لغات البشر ص ٦١ .

التقسيم على أساس القرابة اللغوية

يعتمد هذا التقسيم على ما توصل إليه علماء اللغة الذين اتبعوا المنهج المقارن [١] من ملاحظة وجود صلات وثيقة بين مجموعات من اللغات ، اصطلح على تسميتها بالفصائل اللغوية ، ويعتبر ماكس موللر من أوائل اللغويين الذين راعوا علاقات القرابة ودرجات الصلة - في العناصر اللغوية المختلفة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية - في تقسيم اللغات إلى مجموعة من الفصائل اللغوية هي :

١ - الفصيلة الهندية الجرمانية [٢] ، وتشمل اللغات : الهندية القديمة (السنسكريتية) ، والفارسية القديمة ، وكثير من اللغات الأوربية مثل اللاتينية ، واليونانية ، والجرمانية ، والسلافية .

٢ - اللغات الحامية السامية وتشمل فرعين : الفرع الحامي الذي يضم المصرية القديمة ، والبربرية ، واللغات التشادية ، والكوشية ، والفرع السامي ، ويشمل اللغات السامية التي ستتحدث عنها بعد قليل .

٣ - اللغات الطورانية ، ويشمل ما عدا اللغات المندرجة في الفصيلتين الأولى والثانية ، وذلك مثل اللغات التركية والصينية والمغولية .

---

(١) المنهج المقارن هو أحد مناهج البحث التي سادت الدرس اللغوي منذ القرن التاسع عشر ، نعني بها المنهج المقارن والوصفي والتاريخي .
انظر في هذه المناهج : كتابنا علم اللغة .. أسسه ومناهجه ، ط. ٢ ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) تسمى هذه الفصيلة أيضا الهندية الأوربية ، ويعتبر وليام جونز الإنجليزي هو أول من كشف بطريقة علمية عن العلاقة الوثيقة بين الهندية القديمة واللغات الأوربية.
انظر : كتابنا السابق ص ١١٩ .

إن إطلاق اسم اللغات الطورانية على ما عدا اللغات السامية الحامية ، أو اللغات الهندية الجرمانية ، لم يقم على أساس درجة الصلة أو القرابة بين هذه اللغات ، ومن ثم فقد عدل عنه علماء اللغة المحدثون ، وحاولوا تقسيم هذه اللغات إلى مجموعات صغيرة من الفصائل اللغوية التي تربطها أواصر القرابة اللغوية ، « وأحدث نظرية بهذا الصدد هي ما ذهبت إليه جمعية علم اللغة بباريس في موسوعتها " لغات العالم " ، إذ قسمت جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين السابقتين إلى تسع عشرة فصيلة » (١) ، نذكر منها على سبيل المثال : فصيلة اللغات اليابانية ، وفصيلة اللغات الكورية (٢) .

إن تسمية الفصيلة الثانية باللغات الحامية السامية ، الذي يلمح فيه تأثر من نوع ما بالنظرية القديمة التي تعتمد على تقسيم التوراة لشعوب العالم ، لم تعد ترضي كثيرا من اللغويين المحدثين ، الذين عالجوا هذه اللغات ضمن مجموعة أطلقوا عليها « اللغات الإفريقية الأسيوية » (٣) ، ولكننا سنؤثر التسمية الأولى وهي اللغات السامية كفرع من الفصيلة الحامية السامية ، وذلك لبساطتها وشيوعها في الاستعمال ، كمصطلح - لا أكثر - على مجموعة من اللغات تربطها أواصر قربى ، وعلاقات لغوية أكيدة ، وذلك بصرف النظر عما كانت تعنيه كلمة « الساميين » قديما (٤) .

---

(١) وافي : نشأة اللغة ص ٧٩ .

(٢) انظر : أسماء هذه الفصائل واللغات التي تندرج تحتها في المرجع السابق ص ٧٩ - ٩٢ .

(٣) اعتمد هذا الفريق على التوزيع الجغرافي للغات المعاصرة .
انظر في هذا : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٣١ .

(٤) سبق أن ذكرنا أن جداول الشعوب التي نسبتها التوراة إلى سام بن نوح على ==

بين السامية والحامية

لاحظ العلماء أوجه شبه عديدة بين مجموعة اللغات السامية من ناحية ، والمجموعة الحامية من ناحية أخرى ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ - استخدام التاء للفرق بين المذكر والمؤنث .

٢ - استخدام النون عنصرا للربط بين وحدتين صرفيتين كما في نون الوقاية .

٣ - استخدام الضمائر المتصلة إلى جانب المنفصلة .

٤ - استخدام الواو صوتا من أصوات العلة يسقط كثيرا .

٥ - استخدام الميم في بناء الصيغ الاشتقاقية كاسم المفعول ، والمكان ، وتزداد صلة القرابة بين المصرية والبربرية من ناحية ، واللغات السامية من ناحية أخرى ، إلى الدرجة التي ذهبت فيها بعض العلماء إلى القول بأن هاتين اللغتين انفصلتا عن الأصل السامي في وقت مبكر [١] .

* * *

= نحو غير دقيق إنما ترجع إلى اعتبارات سياسية وجغرافية ، لا إلى اعتبارات لغوية أو عرقية .

(١) انظر الدراسات التي قام بروجش وروسلر لإثبات ذلك في : علم اللغة العربية لمحمود حجازي ص ١٣٤ - ١٣٨ .

الفصل الأول
اللغـات الساميـة

لمحة تاريخية

يطلق مصطـلح اللغات السامـية على مجـموعة مـن اللغات تضم العربيـة والعبرية والأكادية والآرامـية والعربية الجنوبيـة والحبشيـة ، وغير ذلك من اللغـات التي شاع استعـمالهـا في منطقة شـمال غـربي آسـيا ، ومنطقة القرن الأفريقي ، أي في منطقة شبه الجزيرة العربية وما حولها .

لقد كـان العلامـة الألماني شلوتزر (١٧٩٨م) هو الذي أطلق هذا الاسم في البـداية على اللغات العـبرية والعـربية والآرامـية والحـبشـية ، عندما لاحظ أن هناك أوجـه شبه عـديدة بين هذه اللغات ، وبالتالي فـإنها تستحق أن تصنف كمجمـوعة واحدة ، وأن يكون لها اسم واحد ، « وقد لاحظ أن أسماء هذه اللغات ينطبق إلى حد كـبير على أولاد سام ، فسمى هذه اللغات باسم اللغات السامية » (١) .

لقد أخذ مفهوم هذا المصطلح يتسع بالتدريج ليشمل لغات أخرى لم تكن معـروفة من قبل ، مثل اللغـة الأكادية ، واللغة الأجريتـية ، ولقد سبق القول بأن مـصطلح « اللغات السـامـية » لا ينطبق بالضـرورة على لغات الشعـوب التي ذكرت التوراة أنها تنتمي إلى سـام بن نوح ، كما أن هناك لغـات سامـيـة نسبت الـتوراة من يتـحدثون بهـا إلى غير سـام هذا ، كالكنعـانيين مثلا (٢) ، وليـست المسـألة هنا هي تبـرير تسـميـة قـديمة أو

---

(١) محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٣٣ .

(٢) من الأمم السامية الأخـرى التي عدت التوراة أصحابها من غـير أبناء سام بن ==

استبدالها بتسمية أخرى - كما يقول فون زودن - ، ولكن المهم هو تحديد مفهوم المصطلح إن لم يكن قد تحدد بالفعل (١) ، وهنا نجد أنفسنا أمام مصطلح محدد ، وهو أن مجموعة اللغات السامية هي تلك التي تربطها علاقة قرابة وثيقة ، وتتشابه فيما بينها في مجالات الأصوات والصيغ الصرفية والنحوية والدلالية ، وهي تلك اللغات التي ذكرنا بعضها آنفا ، وسنذكرها تفصيلا فيما بعد .

الموطن الأصلي للساميين

لم تتفق كلمة الباحثين من المستشرقين على تعيين المكان الذي يعتبرونه الموطن الأصلي للساميين ، والمهد الذي انبثقت منه سائر اللغات السامية ، فرأى فون كريمر ، وهومل ، وجويدي ، وسواهم أن الموطن الأصلي للساميين هو جنوب العراق في أرض بابل ، ورأى نولدكه وبارتون أن الساميين الأُوَل كانوا يعيشو في إفريقيا ، ورأى فريق ثالث على رأسه رينان أن مرتفعات أرمينية كانت تمثل الموطن الأصلي للساميين ، وكان المستشرق الأمريكي كلاي يرى أن هذا الموطن يتمثل في شمال بلاد سوريا ، حيث كان يوجد العموريون (٢) .

== نوح : الأحباش والفينيقيون ، ومن اللغات غير السامية التي نسبتها التوراة إلى أبناء سام بن نوح : اللغة العيلامية والليدية ، ولقد ذكر نولدكه أن ذلك يعتمد أساسا على اعتبارات سياسية وثقافية وجغرافية ، لا على الحقائق اللغوية أو التاريخية .

انظر : اللغات السامية لنولدكه ، ترجمة : رمضان عبد التواب ص ٨ ، وقارن بربحي كمال : دروس في اللغة العبرية ص ٧ ، الساميون ولغاتهم لحسن ظاظا ص ٦ .

(١) Von Soden; Zur Eintielung der semimitischen Sprachen; S. 182 .

(٢) استند كل فريق من هؤلاء العلماء إلى بعض الحجج في تأييد وجهة نظره ، ==

وهناك رأي يمكن اعتباره رأي أغلبية المستشرقين ، ومن بينهم شبرنجر ، ودغوية ، وكايناني ، وموسكاتي ، وفنكلر ، وتيله ، وشرايدر ، يؤيد أن موطن الساميين هو شبه جزيرة العرب ، ويدعمون هذا الرأي بالأدلة التالية :

١ ـ أن المناطق التي ذكرت موطنا للساميين في الآراء السابقة كانت مسكونة بأقوام غير ساميين ، عدا جزيرة العرب ، وتؤكد الأبحاث أن الساميين قد انطلقوا في شبه موجات من جزيرة العرب إلى المناطق المجاورة [١] .

٢ ـ إجماع علماء الاستشراق على أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى ما يعرف باسم اللغة السامية المشتركة ، التي تفرعت

== وكان يرد في نفس الوقت على الأدلة التي يسوقها أصحاب الآراء الأخرى ، وسنكتفي هنا بذكر المصادر التي يمكن للباحث الرجوع إليها للوقوف على هذه المسألة بالتفصيل ، وهي :

ـ نولدكه : اللغات السامية ، ترجمة : رمضان عبد التواب ص ٢٠ وما بعدها .
ـ علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١٠ - ١٤ .
ـ ربحي كمال : دروس في اللغة العبرية ص ٨ - ١٥ .
ـ حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ٩ - ١٧ .
ـ رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٣٨ - ٤٥ .
ـ عبد الله ربيع وعبد العزيز علام : في فقه اللغة ص ٦٤ - ٦٧ .

وانظر عدا ما ذكر هناك من مراجع أجنبية مقالة :

- Von Soden, Zur Einteilung der sem. Sprachen, in WZKM 1954 .
- Ullendorf, what is a semitic language P. 156 FF.
- Moscati, An introduction; P. 3 - 13 .

(١) انظر : فون زودن Von Soden ، المرجع السابق ص ١٨٣ ، وقارن بحسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣ ، وهناك نظرية أخرى تقول أن الساميين كانوا يتسربون إلى هذه المناطق في أوقات الجفاف .

عنها بقية اللغات ، وهي وإن كانت تقف مع اللغة الأكادية [١] على نفس الدرجة من القدم [٢] ، فإن هذا يعني أحد احتمالين ، هو أن تكون العراق أو شبه الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للساميين ، وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الأكاديين قد وفدوا على العراق الذي كانت تقطنه أمة غير سامية ، هي الأمة السومرية التي تركت على الأكادية من الآثار اللغوية ما جعلها تبتعد إلى حد ما عن الأصل السامي الذي تفرعت منه ، وهنا لا يبق إلا أن تكون جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين .

٣ ـ يتفق هذا القول مع القوانين الاقتصادية والاجتماعية التي ترى أن انطلاق الهجرات يكون دائما من مناطق الجفاف إلى المناطق الأكثر خصوبة ، مما يعني أن الساميين قد انطلقوا من شبه الجزيرة إلى المناطق المجاورة بعد الجفاف الذي أصاب موطنهم الأصلي ، ومما يؤكد هذه الحقيقة ما ذكرته بعض الوثائق السومرية من أن بلادهم (العراق) كانت في خطر داهم من الإغارات التي كانت تأتيهم من الغرب أو الجنوب الغربي ، وأن هؤلاء المغيرين كانوا يدعون بـ « Aribu » أي العرب [٣] .

---

(١) انظر : Fischer & Jastrow, Handbuch der arabischen Dialekte; S. 15 .

(٢) يقصد بالقدم هنا الاحتفاظ بالعناصر اللغوية القديمة .

(٣) انظر : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٤١ .

وقبل أن نتحدث عن تقسيم اللغات السامية ، علينا أن نجيب عن تساؤل هام ، هو :

لماذا ندرس اللغات السامية ؟

إن الأهمية المتزايدة لدراسة اللغات السامية شقيقات العربية قد تخفى على كثير من المشتغلين بالدراسات العربية بوجه عام ، ويمكن تلخيص هذه الأهمية في النقاط التالية :

١ ـ إن الداسة التاريخية للعربية لا يمكن فهمها إلا من خلال النظر إلى اللغات السامية الأخرى ، لأن وحدة الأصل بين العربية وهذه اللغات قد ترك آثارا واضحة على التركيب الصوتي والصرفي والدلالي في العربية ، وفي اللغات السامية على حد سواء .

٢ ـ لقد أعطت اللغة العربية الكثير لهذه اللغات السامية ، ولكنها أخذت منها في نفس الوقت كثيرا من الألفاظ وطرائق التعبير ، ودراسة ظاهرة التعريب في اللغة العربية لا بد لها من معرفة بهذه اللغات ، حتى نعرف أصول الكلمات المعربة معرفة دقيقة [١] .

---

(١) لقد أحسن المستشرقون استغلال معرفتهم باللغات السامية في دراسة ظاهرة التعريب في اللغة العربية ، فكتب فرنكل كتابا عن الألفاظ الآرامية المعربة في اللغة العربية الفصحى ، وهذا الكتاب هو Die aramaischen Fremd-wörter im Arabischen ، وقد احتوى هذا الكتاب على طائفة كبيرة من الألفاظ التي أخذتها العربية من اللغة الآرامية ، أو من لغات أخرى ـ كاللاتينية أو اليونانية ـ عن طريق الآرامية .

وألف تسمرن H. Zimmern كتابا عن الألفاظ الأكادية التي استعارتها اللغات السامية الغربية ومنها العربية ، كما كتب نولدكه فصلا جيدا عن الكلمات العربية التي استعارتها الحبشية منها ، وعن الكلمات الحبشية الأصل التي استعارتها العربية في Neue Beiträge zur sem. ==

٣ - إن دراسات المستشرقين عن اللغات السامية ليست جميعا من ذلك النوع الذي لا هم له إلا خدمة العلم ، ولا تسوده سوى الموضوعية ، لأن كثيرا من الدراسات خاصة في مراحل الاستشراق الأولى تحاول تسخير معارفها عن هذه اللغات لخدمة أغراض خبيثة تجافي الحقيقة التي يعرفونها جيدا ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ ، فمن ذلك مثلا :

أ - زعم نولدكه أن هناك خطأ في استعمال « محمد » ﷺ لكثير من الألفاظ المقترضة من الساميات الأخرى ، وضرب مثالا على ذلك : كلمة « حنيفا » التي تعني الكفر في السوريانية ، والتي استعملها القرآن في معنى الإيمان [١] ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ، نعم ، كانت هذه الكلمة تعني الكفر في السوريانية ، ولكن كفر من ؟ كفر من خرج عن الوثنية إلى اتباع المسيح [٢] ، إذن فقد تطور استعمال الكلمة فأصبحت تعني الإيمان ، فلو سلمنا جدلا بأنها مستعارة فعلا عن السوريانية ، لما كان هناك خطأ على الإطلاق ، إذ إن استعمالها في المعنى الجديد قد وجد قبل أن ينزل بها القرآن بزمن طويل .

ب - الزعم بأن اللغة العربية قد تخلت عن الإعراب قبل الإسلام بزمن طويل ، بدليل عدم دلالة الحركات الإعرابية على المعاني النحوية في اللغة النبطية التي يرى الزاعم أنها عربية ، وكان يرمي من وراء ذلك إلى تأكيد فرية فولرز ، الذي يزعم بأن القرآن كان قد نزل بلغة قريش الخالية

== Sprachwissenschaft ، ولا يعني هذا بالطبع إهمال دراسة اللغات الأخرى التي أخذت منها العربية كالفارسية مثلا .

(١) انظر تناول نولدكه لهذه الكلمة وغيرها في : Neue Beitrages. 30 .

(٢) انظر معنى الكلمة في السياق الذي ذكرناه : C. Brockelmann Syrische Gramatik S. 50 .

من الإعراب ـ وسنعرض لهذه القضية فيما بعد ـ [١] .

إن الغـرض واضح من وراء هذه المزاعم ، وهو الطعن في القـرآن الكريم ، ولا يتسنى لنا الرد على هذه المزاعم إلا بمعرفـة هذه اللغات حتى نرد كيد الكائـدين من ناحية ، ونظهر الحقـيقة الناصعـة البياض ، وهي أن القرآن الكريم كتابُ الله الذي لا يأتيـه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه من ناحية ثانية .

٤ ـ إن معرفة قوانين التبدل الصـوتي في العربية واللغات السامية ، كفيلة بأن تَحُلَّ كثيرا من المشكلات المتعلقة بأصول الكلمات ذات الصور الصوتية المختلفة ، كالفوم ، والثوم ، والجدث ، والجدف ، إذ توضح هذه القوانين أن أصل هذه الكلمات إنما هو بالثاء [٢] .

٥ ـ إن الدراسة المقارنة للكلمات العربيـة في ضوء اللغات السامية تضع حلولا لكثير من المشكلات التي اختلف حولها النحاة العرب ، فمن ذلك تركيب كلمة « ليس » ، التي يتضح من المقارنات السامية أنها مكونة من « لا + أيس » ، التي تـدل على النفي المطلق ، ومـن ذلك أيضـا حـسم الخلاف حول كلمـة اسم التي كان يعتقد أنها مـحذوفة اللام ، وهي ـ في ضـوء هذه المقارنات ـ لا تعـدو أن تكون كلمـة ثنائية الأصل ، مـثل يد ، ودم [٣] .

---

(١) انظر : ص ١٤٧ .

(٢) انظر : رمـضـان عـبـد التـواب : فصـول فـي فـقـه العـربيـة ص ٤٧ ، وقـارن ببرجشتراسر : التطور النحوي ص ٢٣ .

(٣) انظر : T. Noldeke, Neue Beiträge, S. 140 ، وقارن بعبد التواب : فـصول ص ٤٩ ، وتنبـغي الإشارة هنا إلى أن هذه الـكلمات الثنائيـة الأصل إنما تدل على أمـور حـسيـة ، وهي تسبق وجودا مـرحلة غلبـة الأصل الثـلاثي ==

٦ - تفسير ظواهر لهجية عديدة بطريقة علمية قاطعة ، وذلك كتفسير ظاهرة الكشكشة ، أو ما كان يعتقد أنه قلب التاء كافا في نحو عَصَيْكَ بدلا من عَصَيْتَ .

وفي اللهجات الحديثة تقدم لنا الدراسات السامية تفسيرا لكثير من قوالب الصيغة التي نفتقدها في الفصحى ، من نحو : اتكتب ، على وزن « اتفعل » ، حيث ثبت وجود هذه الصيغة في الآرامية .

٧ - إننا نخطىء خطأ كبيرا إذا ظننا أن المستشرقين كانوا أول من عرف أو تنبه لأهمية اللغات السامية ، أو لعلاقة هذه اللغات بالعربية ، فقد سبق إلى ذلك أجدادنا ، وسجلوا في كتبهم ما يفيد معرفتهم بهذه اللغات ، واستفادتهم بها في تفسير كثير من ظواهر العربية ، ونذكر منهم على سبيل المثال :

- الأصمعي ، الذي تنبه إلى أن الظاء العربية هي طاء في الآرامية ، واستطاع بذلك تفسير البرطلة ، والناطور [١] .

- أبو عبيد القاسم بن سلام ، الذي كان على معرفة دقيقة باللغة السوريانية ، على النحو الذي يصوره النص التالي : « قال أبو حاتم الرازي : قال أبو عبيد القاسم بن سلام : للعرب في كلامهما علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه ، منها إدخال الألف واللام (أداة للتعريف) في أول الاسم ، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه ، في

== على الكلمات العربية ، ويبدو أن بحث العلماء العرب كان يتعلق بهذه المرحلة الأخيرة .

(١) انظر : سر صناعة الإعراب جـ ١ ص ٣٢ ، وانظر أمثلة أخرى في كتابنا : Die arabischen Ibdal-Monographien insbesondere das Kitab al Ibdal des Abu t-tayyb al-lugawy; S. 86 .

الرفع ، والنصب ، والخفض ، كما أدخلوا في الطور ، وحذفوا الألف التي في الآخر ، فألزموه الإعراب في كل وجه ، وهو بالسوريانية طُوْرَا على حال واحد ، وكذلك الميم هو بالسوريانية " يَمَّا " ، فأدخلت العرب فيه الألف واللام ، وصرفته في جميع الإعراب ، على ما وصفت » (١) .

ويصور هذا النص معرفة أبي عبيد الدقيقة بخصائص كل من العربية والسوريانية فيما يتعلق بأداة التعريف والنهايات الإعرابية في كلتا اللغتين ، وهو أمر لم يزد عنه المحدثون في قليل أو كثير .

- ورد في المزهر أن بعض النحويين العرب ، وهو : نصر بن محمد بن أبي الفنون النحوي ، كان يدرك العلاقة أو القانون الصوتي الخاص بالسين في العربية والعبرية ، إذ نقل عنه ابن مكتوم في التذكرة « سين العربية شين في العبرية ، فالسلام شالوم ، واللسان لشان ، والاسم اشم » (٢) ، وهذا صحيح لا ريب فيه .

- وردت نصوص كثيرة في كتب التراث تؤيد معرفة الكثيرين من علماء العربية بأن هناك لغات أخرى تضارع العربية ، فمن ذلك ما حكاه الخليل في العين من أن لغة الكنعانيين تضارع العربية (٣) ، وقد عرف ابن حزم الأندلسي العلاقة الوثيقة بين العربية (الشمالية) ، والسوريانية ، والعبرية ، وأنها جميعا ترجع إلى أصل واحد ، ومن العلماء العرب الذين أفادوا من معرفتهم بهذه اللغات أبو حيان الأندلسي ، والإمام

---

(١) انظر : كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ١/ ٧٧ ، وقد اقتبسنا هذا النص من : فصول في فقه العربية ص ٤٣ لأستاذنا الدكتور رمضان عبد التواب.
(٢) المزهر للسيوطي جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٣) كتاب العين جـ ١ ص ٢٣٢ .

السهيلي النحوي ، وغيرهم [١] ، كذلك عرف العلماء العرب اختلاف اللغة الحميرية (العربية الجنوبية) عن عربية الشمال ، وذلك قول أبي الفتح بن جني : « لسنا نشك في بعد لغة حمير عن لغة ابني نزار » [٢] .

وخلاصة القول أن معرفة طرف ولو يسيرا عن اللغات السامية يساعد مساعدة أكيدة على حل كثير من المشكلات التي تصادفنا في الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة على السواء ، كما أنها تزودنا بالمعرفة التي نذود بها عن أعز ما نملك وهو القرآن الكريم ، كما أن في ذلك نوعا من الاستمرار في المسيرة التي بدأها علماؤنا العظماء بدراسة ومعرفة هذه اللغات ، وفي ذلك حمل لأمانة العلم التي ينبغي أن ينهض بها كل محب للغته ، غيور على دينه .

* * *

---

(١) رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٤٣ .

(٢) يقصد بابني نزار : ربيعة ومضر ، أي الذين يتحدثون بالعربية الشمالية .
انظر : الخصائص جـ ١ ص ٣٨٦ ، وقد سبقه إلى ذلك أبو عمرو بن العلاء .

تقسيم اللغات السامية

منذ استطاع العلماء فك رموز الكتابة البابلية والآشورية ، واعتبارهما معا يشكلان لغة واحدة هي الأكادية ، فإن التقسيم السائد للغات السامية تمثل في المجموعات اللغوية التالية :

١ ـ الأكادية .

٢ ـ الكنعانية .

٣ ـ الآرامية .

٤ ـ العربية الشمالية .

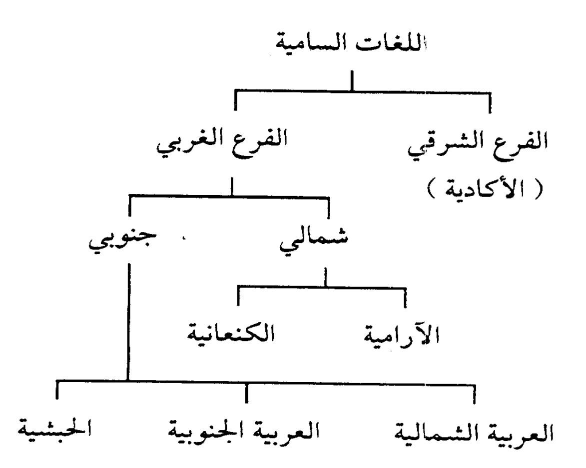
٥ ـ العربية الجنوبية ـ الحبشية [١] .

وتنقسم هذه المجموعات الخمس بالنظر إلى الموطن الجغرافي إلى : الفرع الشرقي وتمثله الأكادية ، والفرع الغربي الذي تمثله بقية المجموعات والذي ينقسم بدوره إلى شمالي غربي وتمثله الكنعانية والآرامية ، وجنوبي غربي [٢] وتمثله العربية بقسميها والحبشية ، ويمكن تصور هذا التقسيم على النحو التالي :

---

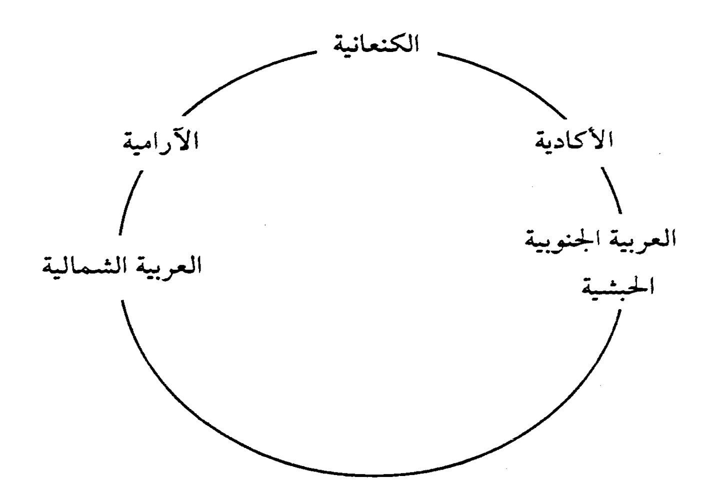
(١) انظر : فون زودن Von Soden, Zur Eintielung der semetis-chen Sprachen; S. 177 .

(٢) يطلق عليه أحيانا الفرع الجنوبي فقط .



ولم يرض هذا التقسيم بعض العلماء ، الذين رأوه لا يمثل بصدق درجة القرابة بين اللغات المختلفة ، إذ لاحظوا وجود خواص مشتركة بين الأكادية والعربية الجنوبية من ناحية ، والحبشية من ناحية أخرى ، كما رأوا تأثر الكنعانية بكل من الآرامية والأكادية ، ولهذا فقد قسم لاندسبرجر Landsberger ، هذه اللغات على شكل دائري تتصل فيه الأكادية بالحبشية والعربية الجنوبية ، كما تتصل بالكنعانية ، وفي نفس الوقت تتصل الآرامية بكل من العربية والكنعانية على النحو الذي تصوره الدائرة التالية :

تقسيم لاندسبرجر



ولقد ذهب فريق من الباحثين في اللغات السامية ، وعلى رأسهم موسكاتي Moscati إلى مدى أبعد مما ذهب إليه لاندسبرجر في إيضاح العلاقة بين الكنعانية والآرامية من جهة ، وبين العربية الجنوبية - الحبشية والعربية الشمالية من جهة ثانية ، فرأى ضرورة أن يكون التقسيم إلى ثلاث مجموعات ، هي [١] :

١ - الشمالية الشرقية ، وتمثلها : الأكادية .

٢ - الشمالية الغربية ، وكانت تشمل في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، وطيلة الألف الثاني ، إلى جانب مجموعة من اللهجات السامية المحلية التي لا يمكن اعتبارها لغات مستقلة ، كلا من : اللغة

---

(١) انظر : Moscati; An Intrudaction, P. 7 F .

الأوجارتية [١] ، واللغة العمورية Amorite [٢] ، واللغة التي كتبت بها خطابات تل العمارنة [٣] ، وقرب نهاية الألف الثاني وطيلة الألف الأول وما بعده يمكن التمييز بين لغتين [٤] مستقلتين ، هما : الكنعانية ،

---

(١) اللغة الأوجارتية هي لغة النقوش التي عثر عليها حديثا (١٩٢٩م) في رأس شمرا (قرب ساحل بانياس السوري) ، وهي لا تزال موضع اختلاف بين العلماء ، فبينما يضعها موسكاتي ومن نحا نحوه ضمن المجموعة الشمالية الغربية هذه ، يعتبرها آخرون فرعا من الكنعانية القديمة ، ويرى فريق ثالث أنها تمثل مجموعة قائمة بذاتها ، ولكنها في نفس الوقت متأثرة إلى حد كبير بكل من الأكادية والكنعانية ، ويرى فون زودن أن الفصل في هذه المسألة هو أمر في غاية الصعوبة ، لأن الكتابة الأوجارتية - بغض النظر عن كتابة الألف بثلاث طرق مختلفة - لا تسجل الحركات ، كما أن النقوش المكتشفة قليلة إلى درجة كبيرة .

(٢) يرى فون زودن Von Soden أن اعتبار النقوش العمورية لغة من اللغات السامية الغربية ، على أساس احتوائها لطائفة من الأسماء الكنعانية القديمة هو من الأمور غير المسلم بها ، وذلك لأنها قد ضمت إلى جانب هذه الأسماء ، أسماء أخرى ترجع إلى الأكادية أو البابلية القديمة ، ومن ثم فإنه من الجائز أن تكون لغة قائمة بذاتها ، لا تنتمي إلى المجموعة الشمالية الغربية ، كما أنها لا تنتمي إلى غيرها من المجموعات .

انظر : Zur Eeintielung der Semetischen Sprachen in : (WZKM) 1960, S. 187 .

وقد تساءل فون زودن في مقاله هذا عما إذا كانت الأوجارتية لهجة من اللهجات العمورية القديمة تأثرت بالكنعانية إلى حد كبير .

انظر : ص ١٨٨ من المقال المذكور .

(٣) انظر : موسكاتي : المرجع السابق ص ٨ .

(٤) وتتلخص حجة موسكاتي ومن رأى رأيه في أنه قبل هذا التاريخ لم تكن هناك مميزات أو خواص لغوية تحتم القول بوجود اختلاف بين اللغتين الكنعانية والآرامية ، وإن كان هذا لا يمنع بالطبع وجود اختلافات لهجية بين الساميين في هذه المناطق الشاسعة (انظر : موسكاتي : المرجع السابق ص ٧) ، وقد اعترض فون زودن على هذه الوجهة (في مقالته المشار إليها في الملاحظة قبل السابقة) ، مؤكدا وجود هاتين اللغتين في الألف الثاني ، وربما في الألف الثالث قبل الميلاد . انظر : ص ١٨٥ من المقالة المذكورة .

والآرامية (١) .

٣ ـ الجنوبية الغربية ، وتشمل الحبشية ، العربية الجنوبية ، وعربية الشمال .

وسنعطي فيما يلي لمحة موجزة عن أهم اللغات السامية ، لنستطيع تبين خصائصها العامة من ناحية ، وما تتميز به كل لغة على حدة من الناحية الثانية .

اللغة الأكادية

الأكادية

هي تلك اللغة السامية التي كانت سائدة في أرض الرافدين (العراق) منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وقد ظل الناس هناك يتحدثون بها إلى أن تغلبت عليها اللغة الآرامية قبيل ظهور المسيح عليه السلام .

لقد حلت اللغة الأكادية في العراق محل لغة أخرى غير سامية هي اللغة السومرية التي كان يتحدث بها السكان قبل أن يفد هؤلاء الساميون إليهم ، ولقد أطلق على لغة هؤلاء الساميين اسم الأكادية نسبة إلى مدينة أكادا ، التي اتخذ منها سرجون الأكبر (٢٣٥٠ - ٢٢٩٤ ق . م) عاصمة لملكه (٢) .

---

(١) يعني ذلك أن درجة الصلة بين هاتين اللغتين كانت قبل ذلك التاريخ من القوة بحيث جعلت التمييز بينهما غير ممكن (من وجهة نظر موسكاتي) .

(٢) برجشتراسر : مقدمة في اللغات السامية ص ٢٠ ، وقارن بموسكاتي Moscati, an Introduction; P. 7 .

لقد مرت هذه اللغة بمرحلتين متميزتين ، هما :

١ ـ الأكادية القديمة ، وكانت لغة يغلب عليها الطابع الموحد ، إذ كان الناس يتحدثون بها في الشمال (آشور) ، وفي الجنوب (بابل) ، وقد استمرت زهاء خمسمائة عام ، أي في الفترة من ٢٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م .

٢ ـ مرحلة الانقسام إلى :

أ ـ اللهجة البابلية ، وهي تلك التي كان يستعملها السكان المحليون في الجنوب ، أي في مملكة بابل القديمة منذ سنة ١٩٥٠ ق . م ، وقد مرت هذه اللهجة بمراحل عديدة ، كان آخرها ما يسمى بالبابلية الحديثة ، وهي تلك المرحلة التي انتهت إبان ظهور المسيح (١) .

ب ـ اللهجة الأشورية ، كانت لغة أهل الشمال (مملكة آشور) ، وقد استمر حديث الناس بهذه اللهجة حتى حوالي سنة ٦٠٠ ق . م ، وكان يغلب عليها الطابع الآرامي (٢) .

---

(١) لقد مرت اللهجة البابلية بالمراحل التالية :
١ ـ البابلية القديمة (من ١٩٥٠ - ١٥٠٠ ق . م) .
٢ ـ البابلية المتوسطة (من ١٥٠٠ - ١٠٠٠ ق . م) .
٣ ـ البابلية الحديثة (من ١٠٠٠ ـ ظهور المسيح) ، ويمكن تقسيم هذه المرحلة الثالثة إلى مرحلتين ، أولاهما : تمتد حوالي ٦٠٠ ق . م ، وتعرف باسم البابلية الجديدة ، والثانية : تمتد من ٦٠٠ إلى ظهور المسيح ، وتعرف باسم البابلية المتأخرة .

(٢) لقد مرت الآشورية شأنها في ذلك شأن البابلية بمراحل مختلفة ، هي :
١ ـ الأشورية القديمة (من ١٩٥٠ - إلى حوالي ١٥٠٠ ق . م) .
٢ ـ الأشورية المتوسطة (من ١٥٠٠ - إلى حوالي ١٠٠٠ ق . م) .
٣ ـ الآشورية الحديثة (من ١٠٠٠ - إلى حوالي ٦٠٠٠ ق . م) .
وقد عاشت البابلية زهاء ستمائة عام ، بعد اضمحلال اللهجة الأشورية .

ولما كانت بابل هي مركز الثقل الحضاري والسياسي ، فإن لهجتها هي التي سادت في مجال الإنتاج الأدبي والثقافي الأكادي ، كما تأثرت بها اللهجة الأشورية إلى حد بعيد ، ولذا فإن الحديث عن اللغة الأكادية يكاد ينحصر غالبا في الحديث عن اللهجة البابلية .

لقد احتفظت الأكادية القديمة ، وكذلك اللهجتان البابلية والآشورية في مرحلتيهما القديمة والمتوسطة - حتى حوالي ١٠٠٠ ق . م) بظاهرة الإعراب ، إذ كانت الكلمات المرفوعة تنتهي بالضمة ، والمنصوبة بالفتحة ، والمجرورة بالكسرة ، وكانت الميم [١] تلي علامة الإعراب ، فكان يقال ملكُم رفعا ، وملكَم نصبا ، وملكِم جرا ، ثم سقطت هذه الميم فيما بعد ، ويعتبر تسجيل الحركات الإعرابية كتابةً ، بل كتابة الحركات بصفة عامة ، من أهم خصائص اللغة الأكادية ، حيث اكتفت بقية اللغات السامية بكتابة الحروف الصامتة فقط ، ولعل هذا راجع في الأصل إلى أن الخط المسماري [٢] الذي كتبت به الأكادية ، يسجل الكلمات وفقا لما تتكون منه من مقاطع صوتية .

لقد أكدت الدراسات الحديثة أن الأكادية القديمة ، وربما البابلية

---

(١) تقابل هذه الميم نون التنوين في العربية ، ولكن وظيفتها الأساسية كانت الدلالة على التعريف ، ثم فقدت هذه الوظيفة بالتدريج ، ثم تلاشت هذه الميم ذاتها منذ حوالي ١٥٠٠ ق . م .

(٢) يرى بعض الباحثين أن الخط المسماري (أي الذي يشبه المسامير) هو من ابتكار السومريين ، وقد أخذه عنهم الأكاديون وغيرهم ، وهو يختلف عن الخط الهيروغليفي الذي كتب به المصريون في نفس الفترة تقريبا ، بأنه يدون الأصوات المنطوقة بعد تقسيم الكلمة إلى عدة مقاطع ، يكون لكل مقطع رمز خاص به ، أما الخط الهيروغليفي فإنه كان يعبر عن الكلمات ، وربما الجمل بالصور المرسومة فقط .

انظر : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٥٥ .

والأشورية في أقدم مراحلهمـا كانت تحتفظ بحروف الحلق [١] ، ولكنها فقدت بعض هذه الحـروف ـ مثل العين والحاء ـ فيما بعـد ، وذلك بتأثير اللغة السومرية ، التي كانت تخـلو من هذه الحروف ، وقد بالغ الكثيرون في القول بأن اللغة الأكادية كـانت تخلو من هذه الحروف تماما ، وأن هذا يعتبر من الخـواص التي تنفرد بها دون بقية اللغات السـامية ، ويعزى إلى تأثير الـسومرية أيضـا ما نلاحظه من أن الجـملة الأكادية تضع الـفعل في آخر الجملة (مـثل اللغة الفارسية) ، وهو أمر تنفـرد به بين سائر اللغات السامية [٢] .

وتعـتبـر ملحـمـة جلجـامش ، وقوانين حـمـورابي من أهم الاثار اللغوية والحضارية التي خلفتها اللغة الأكادية [٣] .

وفيما يلي نموذج من هذه القـوانين التي تعطي صورة من اللغة التي كتبت بها وهي الأكادية ، في مرحلة من أقدم مراحلها :

شُمْ أَوِيلُمْ اِينْ مَرْ أَوِيلِمْ أُخْتَبِّدْ اِينشُو أُخَبَّدُو [٤].

(الترجمة الحرفية) عندما إنسان عين حر إنسان يفقأ عينه تفقأ [٥] .

---

(١) انـــظـــر : Von Soden, DAS AKKADISCHE, المنشـــور في Handbuch der Oreintalistik II; S. 37 (1954) .

(٢) هناك خواص أخرى تنفـرد بها اللغة الأكادية ، منهـا مثلا وجود علامـات إعرابية خاصة بالمضاف إليه ، أو المفعول به ، خلاف الكسرة والفتحة ، وهي الشين والتاء. انظر : في هذه الخاصية وغيرها : فون زودن : المرجع السابق ص ٣٩ .

(٣) انظر : حجازي : علم اللغة العربية ص ١٥٧ .

(٤) تمثل هذه العبارة المادة ١٩٦ من قوانين القصاص عند حمورابي ، وقد نقلناها عن برجشتراسر Eeinfuhrung in der semitischen Sprachen, S. 30 .

(٥) يمكن ترجمة هذه الفقرة بالعبارة العربية التالية : إذا فقأ إنسان عين إنسان حر فإنه يجازى بفقء عينه أيضا .

ونلاحظ في هذا النص القصير الخواص التالية للغة الأكادية :

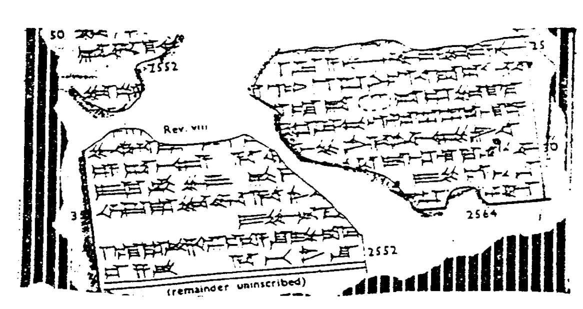
١ ـ وقوع الفعل في آخر الجملة (أختبد ، أخبدو) .

٢ ـ اختفاء حرف العين الحلقي وحلول الهمزة محله (اين = عين) .

٣ ـ حلول الشين محل الهاء ضميرا للمفرد الغائب (اينشو = عينه) .

٤ ـ إضافة الصفة إلى الموصوف (مر أويلم) ، وقد تشارك الأكادية بعض اللغات السامية في هذه الخاصية ، فقد ورد في العربية مثلا : سحق عمامة ، وجرد قطيفة ، وأخلاق ثياب[١]، وحسن الوجه ، في معنى : عمامة منسحقة ، وقطيفة منجردة ، وثياب أخلاق ، ووجه حسن .

٥ ـ عدم ظهور العلامة الإعرابية على المضاف (اين ، مر ، اينشو) وبهذا يكون إعراب المضاف إنما هو من خصائص العربية [٢].



صورة للخط المسماري الذي كتبت به الأكادية

---

(١) تأول النحاة العرب هذه الأمثلة ونحوها لأنهم يمنعون إضافة الصفة إلى موصوفها. انظر في هذا : شرح المفصل لابن يعيش جـ ٣ ص ١٠ وما بعدها .

(٢) انظر في خواص الإعراب في العربية : برجشتراسر : التطور النحوي ص ٧٥ .

اللغة الآرامية

اللغة الآرامية مصطلح يطلق على تلك اللغة التي كان يتحدث بها الساميون في سوريا وفلسطين منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد حتى نهاية القرن السابع الميلادي تقريبا ، ولا تزال هذه اللغة موجودة حتى اليوم في بعض القرى السورية ، مثل طور عابدين .

لقد أخذت هذه اللغة تسميات مختلفة تبعا للمرحلة الزمنية أو المكانية التي وجدت فيها ، ولعل أهم المراحل التي مرت بها هي :

١ ـ الآرامية القديمة أو آرامية النقوش .
٢ ـ الآرامية الدولية أو الآرامية اليهودية .
٣ ـ الآرامية السوريانية ، ويطلق عليها السوريانية (فقط) .
٤ ـ الآرامية الحديثة .

وسوف نعطي فيما يلي لمحة موجزة عن كل مرحلة من هذه المراحل التاريخية .

الآرامية القديمة

تطلق الآرامية القديمة على اللغة التي كتبت بها مجموعات مختلفة من النقوش الآرامية عثر عليها في دمشق وحماة وإربد وشمأل ، ويرجع تاريخها إلى الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد [١] ، ويرى بروكلمان أن الآرامية في هذه الحقبة كانت ما تزال محتفظة ببقايا ظاهرة الإعراب ، كما أنها كانت تقترب إلى حد كبير من اللغة

---

(١) موسكاتي Moscati; An Introduction, P. II .

الكنعانية [١] من الناحية الصوتية ، فكانت الثاء فيها شينا ، والذال زايا ، والظاء صادا ، وقد تحولت فيها الضاد قافا ، مثل أرقا في معنى الأرض [٢] .

وهناك تفسير آخر لهذا التحول الصوتي ، خلاصته أن الآرامية القديمة لم يكن بها سوى رمز كتابي واحد لوحدتين صوتيتين مختلفتين Phonemes ، أي أنه كان يوجد في هذه النقوش صورة كتابية واحدة للذال والزاي ، وأخرى للثاء والشين ، وهكذا [٣] ، ومعنى هذا التفسير هو احتفاظ الآرامية القديمة بالأصوات السامية الأصلية ، شأنها في ذلك شأن العربية .

الآرامية الدولية [٤]

تطلق الآرامية الدولية على اللغة الآرامية التي استخدمتها الدولة الأشورية في عهدها المتأخر منذ حوالي القرن السادس قبل الميلاد لغة للتعامل مع الشعوب الأخرى التي خضعت لسيطرتها ، وبذا أصبحت

---

(١) بروكلمان في مقاله : Aramaisch und Syrisch S. 153 المنشور في : Handbuch der Orientalistik (1954) .

(٢) يلاحظ أن هذه الحروف قد تطورت في المراحل الأخرى للآرامية على نحو آخر ، فصارت الثاء تاءا ، والظاء طاءا ، والذال دالا ، أما الضاد فقد صارت عينا . انظر : كتابنا « علم اللغة .. أسسه ومناهجه » ص ١١٩ ، ط. ٢ .

(٣) يرجع هذا التفسير إلى أستاذي البروفسر فيشر ، الذي تلقيته عنه شفاهة .

(٤) هذا التقسيم الذي اتبعناه - وفقا لبروكلمان وغيره من الباحثين الألمان - يضع الناحية التاريخية واللغوية في المقام الأول ، ولا يعني هذا بحال غض النظر عن الناحية الجغرافية ، خاصة إذا ترتب على ذلك اختلاف في الخواص اللغوية ، وهناك من يقدم الاعتبارات الجغرافية والدينية ويجعلها أساسه الأول في تقسيم الآرامية إلى لهجات ، بصرف النظر عن التطور التاريخي ، وإذا اعتبرنا موسكاتي ممثلا لهذه الوجهة ، فإن الآرامية قد انقسمت بعد فترة النقوش القديمة إلى : ==

الآرامية لغة الاتصالات والتجارة الدولية [١] ، وقد عثر في سقارة (في

== أ ـ آرامية غربية وتتمثل في :
١ ـ النبطية : وهي لغة لقبائل عربية الأصل ، اتخذت من البتراء عاصمة لها ، واستمرت زهاء أربعة قرون ، من القرن الأول ق . م حتى القرن الثالث الميلادي (وسوف نتحدث فيما بعد عن هذه النبطية) انظر : ص ٦١ .
٢ ـ البالميرية : وهي لغة قبائل عربية أيضا ، أقامت في بالميرا دولة لها ، كانت تعاصر الدولة النبطية .
٣ ـ الآرامية اليهودية في فلسطين : وهي اللغة التي استخدمها اليهود في كتابة الترجوم الفلسطيني ، وظلت موحدة حوالي القرن الأول المسيحي ، ثم انقسمت منذ القرن الثاني حتى الخامس إلى لهجتين ، تمثلت الأولى في الترجمة الآرامية لأسفار موسى الخمسة ، والثانية في التلمود الأورشليمي .
٤ ـ آرامية السامرة : وهي اللغة التي استخدمها السامريون في القرن الرابع الميلادي في ترجمة الكتاب المقدس ، وكتبت بها بعض الخطابات .
٥ ـ الآرامية المسيحية في فلسطين : وهي تلك الآرامية التي استخدمها المسيحيون من سكان فلسطين في الفترة من القرن الخامس حتى القرن الثامن الميلادي .
٦ ـ يعد استمراراً للآرامية الغربية تلك اللغة التي يتحدث بها اليوم سكان قرى معلولة وجبعدين وبخعة في شمال لبنان .
ب ـ الآرامية الشرقية ، وتتمثل في :
١ ـ السوريانية : وهي تلك اللغة التي كانت سائدة في مدينة الرها ، والتي صارت لغة أدبية منذ القرن الثالث الميلادي حتى القرن الثالث عشر ، ولكنها توقفت عند القرن الثامن كلغة للحديث بعد أن تغلبت عليها العربية .
٢ ـ الآرامية البابلية : وهي تلك الآرامية التي كان يستخدمها الناس في بابل في جنوب العراق ، وأهم الآثار التي كتبت بها هي التلمود البابلي ، واستمرت من القرن الرابع حتى العاشر الميلادي .
٣ ـ اللغة المندعية : وهي لغة طائفة دينية تسمى الصابئة ، وكانت تقطن أرض العراق .
٤ ـ يعتبر امتداد للآرامية الشرقية لغة السكان المحليين الآن في ثلاث مناطق ، هي : حول بحيرة أورميا (في الاتحاد السوفيتي) وفي طور عابدين (قرب دمشق) ، وفي بعض نواحي الموصل في العراق .
انظر في هذا التقسيم : موسكاتي An Introduction; P. 11 - 13 .

(١) بروكلمان Das Aramaische, S. 137 .

مــصـر) علــى بعض أوراق البـردي المكتـوبة بـهـذه اللغــة ، ويمكـن تأريخها [١] بحـوالي ٦٠٣ ق . م ، وبالتدريج حلت هذه الآرامـية مـحل اللغة الأكادية ، وتغلبت عليها فـي موطنها الأصلي بالعراق ، وقد تأثرت هذه الآرامية بالأكادية تأثرا كبيرا ، فأخذت عنها كثيرا من المفردات [٢] ، ولقد ظل استـخدام الآرامية لغة للتـعامل الدولي بعد زوال حكم الدولة الأشورية عن العراق ، إذ استخدمهـا حكام الفرس من الأخميديين أيضا حتـى في قلب الدولة الفارسـية لغـة للإدارة ، وقد سـاعد انتـشار النـفوذ الفارسي على انتشار الآرامية حتى في مناطق غير سامية الأصل ، فقد عثر على نقـوش آراميــة ترجع إلى عهـد داريوش الأول (٥١٥ ق . م) على الحدود الجنـوبية لمصر قـرب النوبة ، وفي مـعابد فيلـة بأسوان [٣] ، كمـا عثر على نقوش أخرى قرب كابول .

لقد أطلق ماركوارت Markwart على هذه الآرامية ـ نظرا لهذه الصبغـة غير المحلية التي اتسـمت بها ـ اسم آرامية الدولـة ، ويفترض أن الآرامـية الدوليـة هذه كانت هي اللـهجـة الآراميـة المسـتخدمـة في بلاد العراق عامة ، أو في جنوب بابل بصفة خاصة [٤] .

ولعل أهم مـا تتمـيز به آرامية الدولة عن آراميـة النقوش الـقديمة يتمثل في الناحية الصوتية ، إذ تحولت الضاد إلى عين ، فكلمة أرقا القديمة

---

(١) تتعلق هذه الكتابة الآرامية بطلب المساعدة من فرعون مصر ضد نابختنصر ، على هيئة خطاب مرسل من أمير عسقلان إلى حاكم مصر .
انظر : بروكلمان : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) يلاحظ كذلك تأثر البابلية المتأخرة بالآرامية إلى حد كبير .

(٣) انظر في مدى انتـشار الآرامـية في الفتـرة من القرن الثـالث ق . م : بروكلمان : المرجع السابق ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٤) السابق ص ١٤٠ .

أصبحت أرعا ، وقد صارت الزاي في الآرامية القديمة دالا ، كما تتميز أيضا من حيث الثروة اللفظية بوجود كثير من الكلمات الأكادية والفارسية (١) .

لقد استخدمت هذه الآرامية في ترجمة العهد القديم ، وخاصة أسفار موسى الخمس ، وكذلك أعمال الرسل ، ولا تدل هذه الترجمة على أي صبغة محلية ، وإن كان يعتقد أنها نشأت أساسا في فلسطين (٢)، وقد استخدم يهود بابل هذه اللغة أيضا فيما يتعلق بترجمة العهد القديم ، ولم يضيفوا إليها من الصبغة المحلية للهجتهم سوى القليل ، ونظرا لارتباط ترجمة الكتاب المقدس لليهود بهذه اللغة ، فإنها تسمى أيضا بالآرامية اليهودية ، أو آرامية التوراة (٣) .

السوريانية

تطلق السوريانية على لغة كنيسة الرها (أورفه) ، التي صارت اللغة الأدبية للمسيحيين في شمال سوريا والعراق (٤) ، وهي تنتمي إلى مجموعة اللهجات الشرقية للآرامية (٥) .

---

(١) انظر الخواص اللغوية لآرامية الدولة (أو آرامية التوراة) :
- برجشتراسر : Einführung; S. 59
- وبروكلمان : Das Aramaische und Syrische. S. 139

(٢) أي الترجمة ، لا اللغة .

(٣) برجشتراسر : المرجع السابق ص ٥٩ وما بعدها .

(٤) انظر : بروكلمان : Syrische Grammatik, S. 3 ، وقارن بمقالته عن الآرامية ، بما في ذلك السوريانية Das Aramaische einschliesslich das Syrische وبرجشتراسر Einfuhrung; S. 59 .

(٥) تمثل السوريانية والمندعية ولغة التلمود البابلي ، الفرع الشرقي للآرامية . انظر : تقسيم موسكاتي السابق ص ٥٩ .

وتعتبر الفترة من القرن الثالث حتى السابع الميلادي هي العصر الذهبي للأدب السورياني ، وقد انقسمت هذه السوريانية في القرن الخامس إلى لهجتين متميزتين ، هما : السوريانية الشرقية ، والسوريانية الغربية ، وكان هذا الانقسام اللهجي بمثابة انعكاس للخلافات المذهبية والسياسية بين أتباع الكنيسة السوريانية في ذلك الوقت ، فكانت السوريانية الشرقية هي لهجة النساطرة التابعين لدولة الفرس ، بينما كانت السوريانية الغربية هي لهجة اليعاقبة التابعين لدولة الروم ، وقد اضمحلت السوريانية ، واختفت كلغة للحديث العادي منذ القرن الثامن الميلادي ، وإن بقيت مستعملة كلغة للأدب فقط حتى القرن الثالث عشر .

لقد ظهرت الخلافات اللهجية على الكتابة السوريانية ، فاتخذ كل من اليعاقبة والنساطرة طريقة خاصة في كتابة النصوص على النحو الذي يصوره الشكل التالي [١] :

---

(١) نقلا عن بروكلمان Syrische Grammatik; S. 5 .

القيمة العددية	المقابل العبري	مقابل الحرف باللاتينية	اسم الحرف		الخط النسطوري	الخط الاسترانجيلي	الخط اليعقوبي (١) (Sérto)			
1	א	'	Ālaf ('Ōlaf)	ܐܠܦ	ܐ	ܐ	—	—	ܐ	ܐ
2	ב	b, ḇ	Bēþ	ܒܝܬ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ	ܒ
3	ג	g, ḡ	Gā(ō)mal	ܓܡܠ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ	ܓ
4	ד	d, đ	Dā(ō)laþ(đ)	ܕܠܬ، ܕܠܕ	ܕ	ܕ	—	—	ܕ	ܕ
5	ה	h	Hē	ܗܐ	ܗ	ܗ	—	—	ܗ	ܗ
6	ו	ų	Ųaų	ܘܘ، ܘܐܘ	ܘ	ܘ	—	—	ܘ	ܘ
7	ז	z	Zain, Zēn, Zai	ܙܝܢ، ܙܝ، ܙܐܝ	ܙ	ܙ	—	—	ܙ	ܙ
8	ח	wsḥ, osḥ	Ḥēþ	ܚܝܬ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ	ܚ
9	ט	ṭ	Ṭēþ	ܛܝܬ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ	ܛ
10	י	i	Iōđ, (Įūđ)	ܝܘܕ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ	ܝ
20	כ	k, ḵ	Kā(ō)f	ܟܦ	ܟ	ܟ	ܟ	ܟ	ܟ	ܟ
30	ל	l	Lā(ō)mađ	ܠܡܕ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ	ܠ
40	מ	m	Mīm	ܡܝܡ	ܡ	ܡ	ܡ	ܡ	ܡ	ܡ
50	נ	n	Nū(ō)n	ܢܘܢ	ܢ	ܢ	ܢ	ܢ	ܢ	ܢ
60	ס	s	Semkaþ	ܣܡܟܬ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ	ܣ
70	ע		'Ē	ܥܐ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ	ܥ
80	פ	p, f	Pē	ܦܐ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ	ܦ
90	צ	ṣ	Ṣā(ō)dē	ܨܕܐ	ܨ	ܨ	—	—	ܨ	ܨ
100	ק	q	Qōf	ܩܘܦ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ	ܩ
200	ר	r	Rē(ī)š	ܪܝܫ، ܪܫ	ܪ	ܪ	—	—	ܪ	ܪ
300	ש	š	Šīn	ܫܝܢ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ	ܫ
400	ת	t, þ	Taų	ܬܘ، ܬܐܘ	ܬ	ܬ	—	—	ܬ	ܬ

---

(١) يشير الحقل الأول إلى كتابة الحرف مفردا ، والحقل الثاني إلى كتابة متصلا بغيره يمينا ، والثالث إلى كتابته متصلا بغيره يسارا ، أما الحقل الرابع فيشير إلى كتابة الحرف مربوطا بغيره من الجهتين ، وتجدر الإشارة إلى أن هناك بالإضافة إلى الأنواع الثلاثة المذكورة في الجدول ، نوعا رابعا يسمى بالخط الملكي ، وهو مستخرج منها جميعا .

الآرامية الحديثة

تطلق الآرامية الحديثة على مجموعة من اللهجات المحلية ، التي لا يزال يتحدث بهـا بعض القرى في الشام والعراق ، وأهـم هذه اللهجات هي :

١ ـ لهجات ترجع إلى الفرع الشرقي من الآرامية [١] ، وتتمثل في لغة طور عابدين ، ولغة السكان المقيـمين حول بحيرة أورميا ، وفي بعض الجهات قرب الموصل .

٢ ـ لهـجات ترجع إلى الفـرع الغـربي من الآراميـة ، وتتمـثل في لهجة السكان المحلية في قرى معلولة [٢] ، وبخعة ، وجبعدين في شمال لبنان .

نموذج من الآرامية

اخـتـرنا هذا النمـوذج من قـصـة الـرسـول أداي التي تمثل الأدب السورياني في فترة ازدهاره ، وهي مكتوبة بالخط السورياني Sérto الذي كتبت به السوريانية الغربية [٣] .

---

(١) انظر تقسيم موسكاتي في An Introducution on; P. 12 .

(٢) انظر في خصائص اللغة الآرامية في معلولة ونماذج لهـا : برجشتراسـر في كتابه Einfuhrung 80 ، وقارن بيروكلمان Das Aramaische; S. 165 .

(٣) هذا النص هو جزء من مختارات بروكلمان في كتابه Syrische Grammatik S. 12 .

قصة الرسول أداي [١]

ܫܘܦ ܡܠܦܢܘܬܗ ܕܐܕܝ ܫܠܝܚܐ.

ܒܫܢܬ ܬܠܬ ܡܐܐ ܘܐܪܒܥܝܢ ܘܬܠܬ ܠܡܠܟܘܬܐ ܕܝܘܢܝܐ
ܘܒܡܠܟܘܬܗ ܕܡܪܢ ܛܝܒܪܝܘܣ ܩܣܪ ܪܗܘܡܝܐ ܘܒܡܠܟܘܬܗ
ܕܐܒܓܪ ܡܠܟܐ ܒܪ ܡܥܢܘ ܡܠܟܐ ܒܝܪܚ ܬܫܪܝܢ ܩܕܝܡ
ܒܝܘܡ ܬܪܥܣܪ: ܫܕܪ ܗܘܐ ܐܒܓܪ ܐܘܟܡܐ ܠܡܪܝܗܒ
ܘܠܫܡܫܓܪܡ: ܪ̈ܒܢܐ ܘܡܝ̈ܩܪܐ ܕܡܠܟܘܬܗ: ܘܠܚܢܢ ܛܒܘܠܪܐ
ܫܪܝܪܐ ܥܡܗܘܢ: ܠܡܕܝܢܬܐ ܐܝܕܐ ܕܡܬܩܪܝܐ ܐܠܘܬܪܘܦܘܠܝܣ
ܘܐܪܡܝܬ ܕܝܢ ܒܝܬ ܓܘܒܪܝܢ: ܠܘܬ ܡܝܩܪܐ ܣܒܝܢܘܣ ܒܪ

ويمكن إعادة كتابة هذه الأسطر بالخط العربي هكذا :

صوف ملفونوثا دى أداي شليحا

بَشْنَتْ تلاَثْ مَا وَارْبَعين وَتْلاَثْ لِمَلكوثا ديَوْنَايَا

وبَمْلكوثهْ دِ مُرَنْ طيفريس قيصر رُومَايَا وَبمْلكوثهْ

دابْجَر مَلْكا بَرْمَعْنو ملكا بيرَحْ تشرين قديم

بيَوْم ترِعْسَر : شَدَّرْوَا أبْجَر أوكاما لمرْيَفْ

ولشمشجرَام : رِيشُونيْ وَميقْري دِ مَلَكوثه ، ولِحَنَّانْ طبو لارا

شرِيَرا عَمْهون : لَمْدِيتا أيْدَا دِ مثْقَرْيا الوتربوليس

وارمَايتْ دين بَيْث جوفْرين : لوَثْ مِيقرا سبينوْس بَرُ ...

ويمكن ترجمة هذا الجزء من قصة الرسول أداي إلى العربية هكذا :

(١) اقتبسنا هذه الأسطر من مختارات بروكلمان في ذيل كتابه Syrische Grammatik S. 12 .

قصة الرسول أداي

١ ـ في سنة ثلاثمائة وثلاث وأربعين من ملك اليونان
٢ ـ ومن ملك سيدنا طيفريس قيصر الروم ومن ملك
٣ ـ الملك أبجر ابن الملك معنو في شهر أكتوبر
٤ ـ في اليوم الثاني عشر أرسل أبجر الأسود لمريم
٥ ـ ولشمش جرام : رؤساء المملكة وموقريها ولحنان الكاتب
٦ ـ المخلص معهم ، للمدينة التي تدعى التروبوليس
٧ ـ وبالآرامية بيث جفرين إلى سبينوس المعظم ابن ... .

اللغة النبطية

نظرة خاصة

يرى موسكاتي (١) وغيره من الباحثين (٢) أن اللغة النبطية التي كان يتحدث بها السكان ذوو الأصل العربي في المنطقة الواقعة بين دمشق وشمال المملكة العربية السعودية (حاليا) ، في الفترة من القرن الأول ق . م ، حتى القرن الثالث بعده ، تمثل أحد فروع الآرامية الغربية ، على عكس هذا الرأي يرى بلاو Blau أن لغة النقوش التي خلفها هؤلاء النبط هي لغة عربية خالصة (٣) ، أما فرنرديم فيرى أن هؤلاء النبط كانوا يتحدثون العربية ، ولكنهم كانوا يكتبون باللغة الآرامية ، ومن ثم فقد

---

(١) انظر : موسكاتي An Introduction; P. 11 .

(٢) انظر : نولدكه Zu den nabataischen Inschriften; ZDMG Bd. 17 (1983) S. 703 .

ويؤيد هذا الرأي أيضا بروكلمان في مقالة عن الآرامية ص ١٤٧ ، ويرى أن النبط قد استخدموا الآرامية لغة كتابة . انظر : Das Aramaische S. 147.

(٣) انظر : مقالة نولدكه السابقة ص ٧٠٥ .

تسللت إلى لغة الكتابة هذه بعض الكلمات العربية ، وأهمها بالطبع أسماء الأعلام التي تكاد تكون عربية خالصة [١] .

وأمام هذا الاختلاف بين المستشرقين ، كان لا بد من الرجوع إلى النقوش النبطية لاستقرائها ، واستنباط الحقيقة منها ، خاصة وأن هذه اللغة هي في غاية الأهمية لدراسة تاريخ العربية في هذه الفترة ، وفيما يلي بعض هذه النقوش ، حتى يشاركنا القارئ في الحكم على هذه اللغة :

النقش الأول : ويسمى نقش الحجر [٢] :

ته قبرو صنعه كعبو بر حارثة لرقوش
برت عبد منوتو أمه ، وهي هلكت بالحجرو
شنة مائة وشتين وترين بيرح تموز ، ولعن مري
علما من يشنؤ القبرو دا ، ومن يفتحه حصى
ولده ، ولعن من يعير ما علا منه

وفي نقش آخر وردت العبارة التالية :

مذكور سعد الله بطب [٣]

أما نقش أم الجمال ، فقد ورد فيه :

دنا نبشو فهرو بر شلى ربو جذيمت ، ملك تنوخ

---

(١) انظر : فرنرديم في مقاله عن النبطية والحركات الإعرابية المنشورة في مجلة المستشرقين الألمان (1973) ZDMG ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٢) اقتبسنا هذا النص عن كتاب Cantineau (كانتينيو) ، نقش رقم Nabatea II; Nr. 38 .

(٣) كانتينيو ، السابق ص ٢٥ .

وهناك نقش آخر مؤرخ بسنة ٣٠٧م ، يحوي النص التالي [١] :

دنا نبشا دى بنا يحيى بن شمعون آل
شمعون أبوهي (لابيه) دى ميت
ببرح سيون شنت مائتين واحدى [٢]

ومن تأمل هذه النصوص المختلفة ، يبدو لنا بوضوح ظهور كلمات وأدوات (غير أسماء الإعلام) آرامية ، وأخرى عربية ، فمن الآرامية : اسم الإشارة دنا ، تموز ، بيرح (ومعناها في شهر) ، ترين (اثنين) ، شتين (ستين) ، برت (بنت) ، بر (ابن) ، وأيضا دي (الذي) .

ومن العربية نجد : قبر ، لعن ، فتح ، ولد ، مذكور ... ، وكل أسماء الإعلام تقريبا .

وإلى جانب الفعل الآرامي عبَدْ (بمعنى بنى أو صنع) ، نجد أيضا الصيغة العربية « صنع » في كثير من النقوش .

وإلى جانب اسم الإشارة الآرامي « دنا » ، نجد اسم الإشارة العربي « ذا » [٣] ، وإلى جانب السين العربية في مسجد نجد أيضا الشين (الآرامية) في أحيان كثيرة ، وربما وجدت السين والشين في نقش واحد (انظر النقش رقم ٢٤ عند كانتينو) .

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نقرر ونحن مطمئنون أن النبطية ككل لغات الشعوب التي تقطن مناطق الحدود ، إنما هي في الأصل لهجة

---

(١) انظر في نقش أم الجمال : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٦ .
(٢) نقلنا هذا النص عن كانتينو ، السابق ، والتاريخ بسنة ٢٠١ إنما هو من تاريخ بعض الأحداث الهامة التي حدثت في عام ١٠٦م .
(٣) انظر : النقش رقم ١٩٦ في كتاب كانتينو المذكور .

مختلطة من العربية والآرامية سواء فيما يتعلق بلغة الحديث أم بلغة الكتابة .

وإذا كان من السهل أن تقترض المفردات من لغة لأخرى ، فإن الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية هي الفيصل في الحكم على انتماء لهجة من اللهجات إلى لغة بعينها ، ومما يؤيد ما نذهبُ إليه من أن النبطية هي لهجة مختلطة ، تتكون عناصرها الرئيسية من العربية والآرامية :

١ - اشتمالها على عناصر صرفية يرجع بعضها إلى العربية ، مثل صيغة (اسم المفعول) مذكور في النقش الذي أوردناه آنفا ، ويرجع بعضها الآخر إلى الآرامية ، مثل : مري ، وبنوهي .

٢ - ظهور أداة التعريف العربية « ال » إلى جانب اسم الرشارة الآرامي « دنا » .

٣ - يوجد إلى جانب النمط العربي في تركيب الجملة في نحو : قبرو صنعه كعب ، يوجد أيضا النمط الآرامي في نحو : دنا أثر دي (هذا الأثر الذي ...) ، ولا يمكن هنا أن نقول إن هذا النمط الأخير آرامي قد تأثر بالعربية ، إذ لا يوجد في العربية أنماط مشابهة ، وإنما هو نمط آرامي متأثر بالعربية ، كما يقول بروكلمان (١) .

ومن الآرامية أيضا التركيب الإضافي مري علما ، وإذا كان الأمر كذلك فلا وجه لما افترضه بروكلمان من أن التعبير في النقوش النبطية بالضمير « هم » لجماعة الغائبين ، بدلا من « هن » في السوريانية ، أو التعبير باسم الموصول « ذو » بدلا من اسم الموصول الآرامي « دي » إنما

---

(١) انظر : Orientalische Lieraturzeitung (OLZ) S. 490 .

يرجع إلى الآرامية الدولية ، والأصح أن يقال أن هذين العنصرين إنما يرجعان إلى العناصر العربية ، فـ « ذو » تستخدم اسما للموصول في لهجة طيئ [(١)] ، كما أن التعبير بهم عن جمع الغائبين إنما هو سمة من سمات العربية ، حتى وإن كان ذلك من العناصر السامية القديمة ، التي شاركتها فيها الآرامية الدولية .

اللغة العبرية

اللغة العبرية هي إحدى اللغات التي تنتمي إلى الفرع الكنعاني [(٢)] الذي يشكل مع الفرع الآرامي القسم الشمالي الغربي من اللغات السامية .

وتطلق العبرية على تلك اللغة التي حررت بها أسفار العهد القديم ، وسجلت بها بعض النقوش التي يعود تاريخها إلى الفترة من ١٢٠٠ - ٢٠٠ ق . م [(٣)] ، كما دونت بها بعض الأسفار غير القانونية ، ويسميها كتاب العهد القديم بلغة كنعان ، كما في « أشعيا ١٩/١٨ » ،

---

(١) انظر : مقالتنا عن اللغة النبطية ، وعلاقتها بلهجة طيئ في العدد الثاني من حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٥١٧ وما بعدها .

(٢) اللغات الأخرى التي تنتمي إلى الفرع الكنعاني هي :

أ ـ اللغة الفينيقية ، وهي لغة النقوش التي عثر عليها في المدن الفينيقية القديمة ، ويرجع تاريخها إلى الفترة من القرن العاشر حتى القرن الأول قبل الميلاد .

ب ـ اللغة البونية ، وهي لغة المستعمرة الفينيقية على ساحل المتوسط في قرطاجنة (قرطاج في تونس) ، واستمرت من القرن التاسع إلى القرن الثاني ق . م .

ج ـ المؤابية ، وهي لغة نقش الملك ميشع ملك مؤاب ، الذي يرجع تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد .

انظر في ذلك : Moscati; An Introduction; P. 10 .

(٣) انظر : موسكاتي : السابق ص ١٠ ، وقارن ببرجشتراسر Einführung' S. 36 .

أو اليهودية كما في « ملوك ثان ١٨ : ٢٦ ، ٢٨ » [١] ، وتسمى في الأدب اليهودي المتأخر « اللغة المقدسة ، تمييزا لها عن غيرها من اللغات التي اتخذها اليهود في عصور متأخرة لسانا لهم » [٢] .

وقد نشأت هذه اللغة أساسا في أرض كنعان [٣] قبل أن يصل إليها بنو إسرائيل في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وكانت تشبه الآرامية القديمة إلى حد كبير .

وقد مرت العبرية بعد ذلك بمراحل عديدة ، هي :

١ ـ العبرية القديمة أو عبرية التوراة ، وهي التي كتبت بها معظم أسفار العهد القديم [٤] ، وتمتد الفترة التي عاشتها العبرية في هذه المرحلة من حوالي القرن العاشر حتى سقوط الدولة اليهودية سنة ٥٨٦ ق . م .

٢ ـ العبرية الوسيطة : يطلق هذا الاسم على مراحل مختلفة مرت بها العبرية بعد انتهاء عصرها الذهبي في القرن السادس ق . م ، إذ تخلت العبرية منذ ذلك التاريخ عن دورها كلغة للحديث ، وأصبح استعمالها مقصورا على الصلوات والكتب الدينية ، بينما كانت الآرامية

---

(١) عرفة حسين مصطفى : المدخل إلى اللغة العبرية جـ ١ صفحة ب .

(٢) عرفة حسين مصطفى : المرجع السابق ، نفس الصفحة ، وقارن بربحي كمال : دروس اللغة العبرية ص ٣٣ .

(٣) أرض كنعان هي المنطقة الواقعة بين الأردن والبحر المتوسط .

(٤) يلاحظ أن بعض أسفار العهد القديم قد كتبت بالآرامية ، مثال ذلك : عزرا ٤/٨ - ٦/١٨ ، ٧/٢٢ - ٢٦ ، وكذلك دانيال ٢/٤ - ٧/٢٨ ، وكلمتان في سفر التكوين .
انظر في ذلك : محمود حجازي : علم اللغة العربية ١٦٦ ، وقارن بحسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ١١٢ ، Moscati; An Introduction, P. 11.

هي لغة الشعب في تعامله اليومي .

وأهم الكتب الدينية التي ألفت في هذه الفترة « المشنا » [١] ، الذي يضم مجموعة من القوانين العقائدية والتشريعية ، ولما كانت العبرية في ذلك العهد غير مفهومة للعامة ، فقد قام أحبار اليهود بشرح « المشنا » والتعليق عليه باللغة الآرامية ، وقد سمي هذا الشرح باسم الجمارا [٢] ، ومن مجموع المشنا والجمارا يتكون التلمود ، وتمتد هذه الفترة في حياة اللغة من القرن السادس ق . م حتى القرن الثامن الميلادي .

٣ ـ العبرية الحديثة : وهي تلك اللغة التي استعملها اليهود منذ القرن الثامن الميلادي ، وكتب بها كثير منهم أعمالهم الأدبية ، وخاصة في عصر الدولة الإسلامية في الأندلس ، وتمثل هذه اللغة أصدق تمثيل أشعار يهوذا هاليفي الملقب بأبي الحسن اللاوي ، وكذلك أشعار إبراهيم ابن عزرا ، وكلاهما من مشاهير الشعراء اليهود في الأندلس الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد تأثرت هذه اللغة بالعربية إلى حد كبير .

وتعد اللغة التي يتحدث بها مغتصبوا فلسطين الآن من اليهود بمثابة امتداد للعبرية الحديثة ، ولكنها تأثرت باللغات الأوربية المختلفة ، وخاصة في المجال الصوتي والثروة اللفظية بدرجة عظيمة ، أبعدتها إلى

---

(١) تعني « المشنا » (وهي من مادة " ش ن ى " التي تقابل « ثنى » العربية) التثنية والتكرار ، فالمثنى هو الكتاب الثاني لليهود بعد التوراة ، وقد ألف نص المشنا بين أواخر القرن الأول وأوائل الثالث الميلادي .

(٢) اختلفت اللغة التي كتب بها الجمارا باختلاف اللهجة الآرامية التي كتب بها . انظر : ربحي كمال : دروس اللغة العبرية ص ٤٢ ، وقارن بمحمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٦٩ .

حد ما عن أصلها السامي القديم [1] .

نموذج من اللغة العبرية

يمثل النموذج التالي صورة للعبرية القديمة ، وهو يشتمل على الآيات الثلاث الأولى من الإصحاح الأول من سفر التكوين :

ב ר א ש י ת א

١ בְּרֵאשִׁית בָּרָא אֱלֹהִים אֵת הַשָּׁמַיִם וְאֵת הָאָרֶץ׃ ٢ וְהָאָרֶץ
הָיְתָה תֹהוּ וָבֹהוּ וְחֹשֶׁךְ עַל־פְּנֵי תְהוֹם וְרוּחַ אֱלֹהִים מְרַחֶפֶת
עַל־פְּנֵי הַמָּיִם׃ ٣ וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים יְהִי אוֹר וַיְהִי־אוֹר׃

وترجمة هذا النص هي :

١ ـ في البداية خلق الله السموات والأرض .

٢ ـ وكانت الأرض رهوا (خربة) وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه .

٣ ـ وقال الله ليكن نور فكان نور .

---

(١) انظر في العبرية الحديثة ومراحلها الأخرى : ربحي كمال : المرجع السابق ص ٥١ - ٦٢ .

اللغة العربية الجنوبية

تشكل العربيـة الجنوبية مع كل من عربية الشـمال والحبشـية الفرع الجنوبي من اللغـات الساميـة ، وتطلق العربيـة الجنوبية على لغـة النقوش المكتشفـة في جنوب الجزيرة العربية ، أو في بعـض الأماكن الأخرى التي انتقـل إليها عـرب الجنوب [١] ، ويرجع تاريخـهـا إلى الفتـرة من القـرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السادس بعده [٢] .

لقـد مرت هذه الـلغة بمراحل عـديدة أخـذت في الغـالب أسمـاء الدول التي تعاقبت على حكم الجنوب ، وأهمها :

١.السبئية

نسبة إلى دولة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ويرى بعض البـاحـثين [٣] أن المراحل الأولى لحـضـارة السـبـئـيين التي تعـتـبـر أقـدم الحضـارات في جنوب الجـزيرة العربيـة قد تصل في قـدمهـا إلى الألف الثاني قـبل الميلاد ، بل إنه ليـمكن القول بأنه إذا كـانت كلمة شـبأ وشـبئم الواردتان في النصوص السومرية ـ التـي يرجع تاريخها إلى الألف الثالث ق . م ـ لهـمـا نفس المعنى المفـهـوم من السبـئـيين ، فـإن المراحل الأولى للحضارة السـبئية تكون أسبق من ذلك بكثيـر ، أي إنه يمكن البحث عنها في نفس الحقـبة التي واكبت حـضارة بلاد الرافدين في أقدم عـصورها ،

---

(١) انظر في هذه المناطق : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٨٤ .

(٢) موسكاتي An Introduction; P. 14 .

(٣) الباحـث المشار إليه هـو العلامـة يورجن شـميت مدير معهـد الآثار الألماني في صنعاء ، وقد وردت المعلـومات المنسوبة له في بحث له بعنوان « مأرب عـاصمة بلقيس ، ملكة سبأ » ، الذي قمنا بترجمته إلى العربية ، وقد نشر في مجلة معهد الآثار بصنعاء .

ولكننا إذا نظرنا إلى التاريخ بالمعنى الضيق فإن حضارة سبأ لا تتمثل إلا من خلال وثائقها ونقوشها المكتوبة ، وترجع أقدم هذه الوثائق إلى القرن الثامن قبل الميلاد .

وتعتبر لهجة سبأ أهم اللهجات التي دونت بها النقوش العربية الجنوبية ، وقد استمرت زهاء أربعة عشر قرنا من الزمان (من الثامن ق . م - السادس الميلادي) .

٢.المعينية

هي تلك اللهجة التي استعملها المعينيون الذين أقاموا لهم دولة في جنوب اليمن ، وكانت معين [١] عاصمة لها ، ولم تعمر هذه المملكة طويلا ، إذ انقطعت أخبارها منذ القرن الأول الميلادي .

٣.القتبانية

وتنسب إلى مملكة قتبان في وادي بيحان وحريب ، ويرجع آخر ما دون بها من نقوش إلى القرن الأول الميلادي ، وقد استطاع السبئيون القضاء على هذه الدولة في القرن الثاني [٢] .

٤.الحضرمية

وهي لهجة حضرموت القديمة ، وقد وجدت معظم نقوشها في « شبوه » عاصمة إمارة حضرموت القديمة ، وفي المناطق المحيطة بها .

---

(١) معين كانت تسمى أيضا قرناو . انظر في هذا : حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٣١ ، وقارن بمحمود حجازي : السابق ص ١٨٥ .

(٢) انظر : علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ٧٧ .

٥.الحميرية

ويضيف بعض الباحثين إلى اللهجات السابقة لهجة أخرى هي الحميرية [١] ، وهي اللهجة التي كانت تتحدث بها قبائل « ذو ريدان » المعروفين باسم حمير ، وكانت لهم إمارة مستقلة في ظفار ، ثم انضموا إلى السبئيين ، وقد بدأ ذكر حمير في الظهور منذ القرن الثاني ، حتى طغى على اسم سبأ فيما بعد ، وكان العلماء العرب يسمون العربية الجنوبية باسم الحميرية ، نسبة إلى هؤلاء الحميريين [٢] .

٦. هناك لهجات حديثة ما زالت مستعملة حتى اليوم ، وتعد امتداداً للعربية الجنوبية ، وهي لهجة الشحر (على الساحل الجنوبي) ، واللهجة السوقطرية (في جزيرة سوقطرة) ، واللهجة المهرية ، ويتحدث بها السكان المحليون في منطقة الحدود مع عمان ، وعلى أطراف الربع الخالي .

---

(١) وافي : فقه اللغة ص ٧٧ ، ويصفها بأنها الحميرية القديمة ، وتنسب هذه اللهجة إلى قبائل حمير التي نازعت السبئيين زمنا طويلا ، ثم انضموا إليهم فيما بعد .

(٢) ذكرت لهجات أخرى للعربية الجنوبية ، منها : اللهجة الهرمية ـ نسبة إلى منطقة هرم في غرب معين ـ (انظر : حجازي : علم اللغة العربية ص ١٨٦) ، ومنها : اللهجة الأوسانية (انظر : موسكاتي An Introduction; 14) .

نموذج من اللغة العربية الجنوبية

يمثل هذا النموذج اللغـة العربية الجنوبية في أهم وأغنى مـراحلها ، وهي السبئية ... ...

بالخط العربي	بالخط السبئي [1]
سَاهرَمْ بنْ لِحْيَعثْتْ وَلأ	𐩪𐩠𐩧𐩣 | 𐩨𐩬 | 𐩡𐩢𐩺𐩲𐩻𐩩 | 𐩥𐩡𐩱
مَمْ أحْنَكن آدم مَلك شَ	𐩣𐩣 | 𐩱𐩢𐩬𐩫𐩬 | 𐩱𐩵𐩣 | 𐩣𐩡𐩫 | 𐩪
بَأَ هَقْنى إلاهَهُ ذو شَمَاو	𐩨𐩱 | 𐩠𐩤𐩬𐩺 | 𐩱𐩡𐩠𐩥 | 𐩹𐩪𐩣𐩥
ي بَعْلَ بَاقِرَمْ صَلَمَنْ ذُو ذهـ	𐩺 | 𐩨𐩲𐩡 | 𐩨𐩤𐩧𐩣 | 𐩮𐩡𐩣𐩬 | 𐩹𐩹𐩠
بَـنْ لِوقَيهو ووَقَى وَلَدَ هـْ	𐩨𐩬 | 𐩡𐩥𐩤𐩺𐩠𐩥 | 𐩥𐩥𐩤𐩺 | 𐩥𐩡𐩵𐩠
و وكل ذو بيتهمو وَقَنَيُه	𐩥 | 𐩥𐩫𐩡 | 𐩹𐩨𐩺𐩩𐩠𐩣𐩥 | 𐩥𐩤𐩬𐩺𐩠
مُو بذَتْ بَعْدَ نَم وذُو شماوي	𐩣𐩥 | 𐩨𐩹𐩩 | 𐩨𐩲𐩵𐩬𐩣 | 𐩥𐩹𐩪𐩣𐩥𐩺

ترجمة النص

ساهر بن لحيعثت و(ابن) لأمَـم الأسودان ، خادم ملك سبأ ، نذر لإلهه ذو شمـاوي رب (قبيلة) باقر صنمـا من الذهب ليحميـه ويحمي ولده وآل بيته ومقتنيـاتهم بـ(حق الإلـهة) ذات بعد نم و(بحق الإلـه) ذو شماوي .

* * *

(١) يستخدم الخط الرأسي في النقش بمثابة فاصل بين الكلمات .

الخصائص العامة للغات السامية

على الرغم من أن لكل لغة سامية طابعـها الخاص التي تتميز به عن سواها ، فـإنه توجد سمـات مشتـركة وخصائص عـامة ، تجعلهـا جميـعا فروعا لشجـرة أو فصيلة واحدة ، هي التي اصطلح على تسميتـها بفصيلة اللغات السامية ، ويمكن إبراز أهم هذه الخصائص في النقاط التالية :

١ ـ اشتمالها على مجموعـات صوتية معينة ، مثل أصوات الحلق ، وأصوات الأطـباق التي قلمـا تخلو منها أو من بعـضهـا لغة من اللـغات السامـيـة ، وإذا كانت هناك بعض اللغات السامـيـة التي فقدت بعض هذه الأصـوات ، كاللغـة الأكـادية مثـلا ، فإن لذلـك سبـبه الخـاص به [١] ، ويجب أن نلاحـظ هنا أنه إذا كـانت بعـض لغـات الفـصــائل الأخـرى كـالفصـيلة الهندية الأوربيـة تحوي بعض الأصـوات المطبـقة ، فـإن هذا الإطباق لا يـعدو أن يكون صفـة ثانوية لا تأثيـر لها على عـدد الوحدات الصوتية [٢] (فونيمات) لهذه اللغات ، وذلك كتفخيم السين في Sun-day في الإنجليـزية ، أو تفخـيم الدال في Das الألمانية ، أمـا في اللغات السامية فإن لهذا التفخيم أو الإطباق أثرا في عدد الوحدات الصوتية ، أو فونيمات اللغات السامية ، فالتاء غير الطاء ، والصاد غير السين ، وهكذا .

---

(١) لقد سبق أن ذكرنا أن اللغة الأكادية في أقدم مـراحلها كانت كغيرها من اللغات السامية ، محتفظة بحروف الحلق ، وحروف الإطباق ، ولكنها فقدت بعضـها فيما بعد لتأثرها بلغة السومريين التي كانت خلوا من هذه الحروف (انظر ص ٥٠) .

(٢) إن التفخيم أو الإطباق الذي نلاحظه فـي بعض أصوات اللغات الأوربية لا يعدو أن يكون مجـرد صور صوتية لا تأثيـر لها على معاني الكلمـات ، فليست السين المفخمة مـقابلا استبداليا للسين غيـر المفخمة في الانجليزية مثـلا ، أما في العربية فـالسين مقـابل استبـدالي للصـاد (التي هي سين مفـخـمة) ـ أي يتـرتـب على اختلافها اختلاف المعنى ، وذلك كما في : سائر وصائر .

٢ ـ لبناء الكلمات في اللغات السامية طابعه الخاص ، إذ نلاحظ فيه ما يلي :

أ ـ يغلب على بناء الكلمة أن يتكون من أصول ثلاثة ، مثل : علم ، جلس ، وما شابه ذلك [١] .

ب ـ يغلب على هذا البناء صفة البساطة ، أي عدم التركيب ، إذ نادرا ما نجد أصلا من أصول الكلمات مركبا من أكثر من أصل واحد ، ومن هذا النادر ما يسمى بالمركب المزجي ، مثل : بعلبك ، أما في اللغات الأوربية فالطابع الغالب عليها هو التركيب ، ولو أخذنا اللغة الألمانية كمثال للغات غير السامية ، لوجدنا أن الجذر Gehen مثلا لا يشكل سوى واحد فقط من اثنين وثلاثين بناء كلها مركبة من هذا الجذر ، مضافا إليه سابقة ما مثل Eingehen; Ausgehen; Angehen; Abgehen; Begehen; Hineingehen ...... [٢] .

---

(١) قد يرى بعض الباحثين أن الكلمات المتشابهة المعاني التي تشترك في حرفين ، وتختلف في الثالث إنما ترجع إلى أصول ثنائية ، وذلك مثل : قطع ، قطف ، قطم ، وما شابة ذلك ، ولكن البحث اللغوي الحديث لم يستطع بعد التوصل إلى تفسير قاطع لنشأة هذه الكلمات .

انظر في هذا الموضوع : كتابنا Die arab. Ibdal-Monographien, S. 269 .

Botterweck; ner Trilierismus im Semitischen (Bonn 1952) .

J. Heller; Neuere Literatur zur Biliterismus-Frage in Ar. Or 27 (1959) S. 678 F.

Greenberg; The Patterning of root morphemes in Semitistics in Word 6 (1950) P. 162 - 181 .

(٢) انظر في هذه الجذور المركبة : K.Meil; ABC der starken Verben S. 33 - 42 .

ج - يرتبط المعنى الأصلي (المعجمي) في اللغات السامية بالحروف الصامتة غالبا ، أما المعاني الصرفية كمعنى اسم الفاعل ، أو اسم المفعول ، والتصرفات المختلفة للفعل ، فإنها قد تستفاد من الصوامت أو من الصوائت (الحركات) على حد سواء .

٣ - إنه إذا كانت هذه الخواص الثلاث (أ ، ب ، ج) تتعلق بوحدة البناء الأصلية في الكلمة Stammorpheme ، فإن هناك خواص وسمات معينة للغات السامية تتعلق بالوحدات الصرفية الأخرى ، كالعناصر الدالة على التذكير والتأنيث في الاسم أو الدالة على الزمن في الفعل مثلا ، ويمكن إبراز أهمها فيما يلي :

أ - ينقسم الجنس في اللغات السامية إلى مذكر ومؤنث فقط ، أما ما يطلق عليه في اللغات الهندية الأوربية اسم الجنس المحايد Neutral [1] ، فإن الساميين يلحقونه بأحد القسمين الأساسيين ، ولا يخصونه بعلامة تدل عليه ، وبينما تدل التاء في الغالب - أو الألف في بعض الأحيان - على المؤنث ، فإن علامة المذكر هي علامة سلبية ، أو ما يطلق عليه « عدم العلامة » باعتبار أن المذكر هو الأصل ، والمؤنث فرع عليه .

ب - ينقسم المعدود في اللغات السامية إلى مفرد ومثنى وجمع ، وقد احتفظت العربية والأكادية بهذا التقسيم على نحو كامل ، واحتفظت به العبرية والسوريانية إلى حد ما ، وقد ميزت اللغات السامية كل حالة

---

(١) لهذا الجنس الثالث في كثير من اللغات الهندية الأوربية علامة خاصة به ، كما أنه توجد علامة مستقلة لكل من المذكر والمؤنث ، وقد تختلف علامة التعريف أو التنكير باختلاف هذا الجنس ، كما هو الحال في اللغة الألمانية ، التي تجعل der علامة تعريف للمفرد المذكر ، و die للمفرد المؤنث ، و das للمفرد المحايد .

من هذه الحالات الثلاث بناء خاص بها ، فهناك صيغة للمفرد ، وأخرى للمثنى ، وثالثة للجمع ، أما في اللغات الأوربية فلا نجد سوى قسمين اثنين هما المفرد وغير المفرد (الذي يشمل المثنى والجمع) .

ج - يدل الفعل في اللغات السامية من حيث صيغته المفردة (أي بصرف النظر عن دلالته في السياق) ، إما على حدث تم بالفعل Perfekt ، وهو ما يعبر عنه بالفعل الماضي ، أو حدث لم يتم بعد ، وهو ما يعبر عنه بالمضارع Inperfekt [١] ، أما في اللغات الهندية الأوربية فإن لكل مرحلة زمنية صيغتها الخاصة بها ، فهناك صيغة للماضي البسيط ، وثانية للماضي المستمر ، وثالثة لما قبل الماضي ، وهكذا .

٤ - يختلف بناء الجملة في اللغات السامية عن نظيره في اللغات الهندية الأوربية مثلا ، إذ تبدأ الجمل الفعلية بالفعل ، يليه الاسم (الفاعل) ، ثم تأتي بقية المتعلقات كالمفعول به أو الظرف ، وإذا تقدم الاسم على الفعل في بعض الجمل ، فإن لهذا التقديم في الغالب سببا بلاغيا لا نحويا [٢] ، أما في اللغات غير السامية فإن الفعل فيها إما أن يحتل المركز الثاني في الجملة ، كما هو الحال في اللغتين الألمانية والإنجليزية ، وإما أن يقع في آخرها كما في اللغة الفارسية .

إن ظاهرة الإعراب بمعنى إلحاق علامات معينة للدلالة على المعاني

---

(١) يستثنى من ذلك اللغة الأكادية التي توسلت بالصيغ الفعلية المختلفة للدلالة على عنصر الزمن الذي وقع أو سيقع فيه الحدث ، وربما كان ذلك ناتجا عن تأثر بالسومرية ، وهي لغة غير سامية .

انظر في دلالة الصيغة الفعلية على الزمن في الأكادية : فون زودن Das Akkadische; S. 41 .

(٢) تستثنى اللغة الأكادية من هذا كما سبق (انظر : ص ٥١) .

النحوية ، كالفاعلية ، والمفعولية ، وما أشبه ذلك ، لا تنفرد بها بعض اللغات السامية ، بل تشاركها فيها بعض لغات الفصيلة الهندية الأوربية ، كاللاتينية والروسية ، بيد أن هناك اختلافا جوهريا بين طبيعة النظامين الإعرابيين ، يتمثل في أمرين :

أولهما : ثبات العلامة الإعرابية وعدم سقوطها وقفا في اللغات الهندية الأوربية ، أما في اللغات السامية فإن هذه العلامات تسقط في الوقف إذا كان الإعراب بالحركات .

ثانيهما : اكتفت اللغات السامية غالبا في التعبير عن المعاني النحوية بحالات إعرابية أربع ، هي : الرفع ، والنصب ، والجر ، والجزم ، أما في اللغات الهندية الأوربية فتوجد ثماني حالات إعرابية للتعبير عن هذه المعاني المختلفة ، وقد بقي من ذلك ست حالات في اللغة الروسية على سبيل المثال (١) .

٥ - تشترك اللغات السامية في الكثير من الألفاظ الأساسية (٢) التي تتحد في معانيها ، وتتشابه في مبانيها إلى حد كبير ، ومن هذه

---

(١) انظر تفصيل هذه الحالات : C. Heubel, Taschen-worterbuch der Linguistik S. 110 .

(٢) يقصد بالألفاظ الأساسية تلك الألفاظ القديمة التي تعبر عن أمور يحتاج الإنسان إلى التعبير عنها منذ أقدم العصور ، وذلك كالألفاظ الدالة على أعضاء الجسم الإنساني من يد ورجل ورأس وقدم وظهر وأذن وعين وأنف ، أو كتلك التي يعبر بها عما حوله من مظاهر الطبيعة ، كالأرض والسماء وأنواع الحيوان المختلفة كالثور والحمار وما شابه ذلك ، ولا شك أن اتحاد معاني هذه الكلمات هو الأمر الغالب ، وإلا فقد تتطور معاني بعض هذه الكلمات في بعض اللغات ، وتحافظ على معانيها الأصلية في اللغات الأخرى .
انظر : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٤٨ .

الألفاظ على سبيل المثال [١] : رأس ، عين ، أذن ، ذكـر ، أنثى ، ثور ، حمار ، أرض ، سماء [٢] .

لقد اهتم علماء اللغات السامية بهذه المجموعات من الألفاظ الأساسية ، وقارنوا بينها ، واستطاعوا باتباعهم لمنهج المقارنة [٣] هذا أن يتوصلوا إلى كشف العلاقات الصوتية بين اللغات السامية ، فالثاء في اللغة العربية الفصحى يقابلها الشين في اللغتين العبرية والأكادية ، والتاء في اللغة الآرامية ، والسين في اللغة الحبشية ، فكلمة الثور العربية تقابل هَشُّور العبرية ، وشُورُوم الأكادية ، وتَوْرَا الآرامية ، وسَوْر الحبشية ، وهكذا .

وتسمى هذه التحولات الصوتية باسم القوانين الصوتية ، التي يرى كثير من العلماء أنها تشبه القوانين الطبيعية في اطرادها ولزومها ، فالقانون الصوتي إذن هو تلك القاعدة العامة التي تسجل أوجه التقابل الصوتي بين مجموعة من اللغات يفترض أنها تنتمي إلى فصيلة لغوية

---

(١) انظر قائمة الألفاظ الأساسية في اللغات السامية التي جمعها برجشتراسر في كتابه مقدمة في اللغات السامية ص ١٨١ - ١٩٢ ، وقارنه بالجدول الذي اقتبسه ربحي كمال في كتابه دروس اللغة العبرية ص ٢٤ - ٢٩ .

(٢) انظر في خصائص اللغات السامية :
- علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١٧ وما بعدها .
- رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٤٥ .
- محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٣٩ - ١٥٠ .
- ربحي كمال : دروس اللغة العبرية ص ١٩ .
- صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ٣٨ .

(٣) المنهج المقارن هو أحد مناهج البحث التي اتبعها العلماء منذ نهاية القرن التاسع عشر في الدراسات اللغوية ، وهو يشكل مع المنهج التاريخي والمنهج الوصفي أهم مناهج البحث في الدراسة اللغوية .
انظر : كتابنا « علم اللغة .. أسسه ومناهجه » ص ١١٨ وما بعدها .

واحدة ، وذلك كما في اللغات السامية التي نحن بصددها ، أو اللغات الهندية الأوربية [١] .

ولا يعني تحول الثاء العربية إلى شين في العبرية ، أن كل الحروف لا بد أن تتحول إلى حروف أخرى تشبهها ، مما يعني أن هذه التحولات الصوتية إنما تقتصر على بعض الحروف دون بعضها الآخر ، وقد لاحظنا في المثل الذي سقناه (ثور) أن الواو والراء لم تتغيرا أو تتحولا إلى أصوات أخرى في أي من اللغات السامية ، ومن الحروف الأخرى التي لم تمسها يد التغيير خلاف الواو والراء كل من الباء والميم والتاء والدال والطاء والنون واللام والزاي والصاد والكاف والجيم والقاف والهمزة ، أما بقية الحروف فقد خضعت لهذه القوانين الصوتية .

ولم تقتصر المقارنات بالطبع على النظم الصوتية للغات السامية ، وإنما امتدت لتشمل نظم بناء الكلمة والأنظمة النحوية ، من ذلك على سبيل المثال أن وزن السببية في اللغة العربية وهو صيغة « أفعل » ، يقابله صيغة « هفعل » في العبرية والآرامية القديمة ، و« شفعل » في الأكادية والأجريتية والعربية الجنوبية ، وقد اتضح من هذه المقارنات أن الإعراب ظاهرة سامية الأصل تشترك فيه مع العربية كل من الأكادية والأجريتية ، وبقيت بعض حالاته في العبرية والحبشية [٢] ، ويوضح الجدول التالي أهم التغيرات الصوتية في اللغات السامية [٣] .

---

(١) انظر : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٦٧ ، وقارن بـ C. Heubel المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا : مدخل إلى علم اللغة الحديث ص ٨٣ .

(٣) انظر الجداول الكاملة الخاصة بالنظام الصوتي في اللغات السامية عند موسكاتي An Introduction; P. 43 ، وقارن ببرجشتراسر Einfuhrung; S.4.

السامية المشتركة	العربية الفصحى	العبرية	الأكادية	الآرامية	الحبشية	العربية الجنوبية
ث	ث	ش	ش	ت	س	س
ذ	ذ	ز	ز	د	ز	ذ
ظ	ظ	ص	ص	ط	ص	ظ
ض	ض	ص	ص	ق[١] ، ع	ض	ض
خ	خ	ح	خ	ح	خ	خ
غ	غ	ع	ء	ع	ع	غ[٢]

بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية

إن هذه الخصائص المشتركة للغات التي ذكرناها آنفا ، هي التي حدث بالعلماء إلى اعتبارها مجموعة لغوية تنتمي إلى فصيلة واحدة هي الفصيلة السامية ، ولم يقف طموح علماء المقارنات عند حد الفصيلة اللغوية الواحدة ، وإنما تجاوز ذلك إلى المقارنة بين الفصائل اللغوية المختلفة ، وقد اكتشف العلماء بالفعل نتيجة لذلك بعض أوجه الشبه بين الفصيلة السامية من ناحية ، والفصيلة الهندية الأوربية من ناحية ثانية ، ولكنها أوجه شبه قليلة قد يرجع بعضها إلى المصادفة البحتة ، أو إلى اقتراض إحدى الفصيلتين بعض ألفاظ من الفصيلة الأخرى في الأزمنة القديمة ، وذلك كبعض الألفاظ الدالة على العدد [٣] .

---

(١) تحولت الضاد في اللغة السامية المشتركة إلى قاف في أقدم مراحل الآرامية (آرامية النقوش) ، وكذلك في اللغة المندعية (انظر : ص ٥٤) ، ولكنها صارت عينا في السوريانية .

(٢) انظر في الأمثلة الخاصة بهذه التحولات الصوتية : كتاب موسكاتي السابق ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) من ذلك مثلا لفظ ستة في اللغة العربية ، وشش في العبرية من الساميات ، ==

وقد حاول بعض العلماء إثبات الصلة بين أصول الكلمات الهندية الأوربية وأصول الكلمات السامية ، وعندما صادفتهم عقبة أن الأصل في اللغات السامية إنما هو أصل ثلاثي ، وفي اللغات الهندية الأوربية أصل ثنائي ، حاولوا تجريد الكلمات الثلاثية من أحد أصولها الثلاثة ، فجردوا مثلا كل من قطع وقطف وقطم من الحرف الثالث ، لتبدو الكلمة بعد ذلك شبيهة بالكلمة الانجليزية Cut ، وقالوا إن الأصل واحد في كلتا الفصيلتين ، وعندما لم يواتهم الأمر دائما بتجريد الأصل الثلاثي من الحرف الثالث ، حاولوا تجريده من الحرف الأول تارة ، ومن الحرف الثاني تارة أخرى ، وتمحلوا لذلك تمحلا شديدا ، وبنوا على ذلك القول بوجود علاقة أصيلة بين اللغات السامية واللغات الهندية الأوربية تسوغ القول بأن الفصيلتين جميعا قد انحدرتا من أصل واحد ، ولغة واحدة .

لقد سخر محققو اللغويين من أمثال بروكلمان ونولدكه ورينان من هذه النظرية الساذجة ، وقالوا إن هناك فروقا جوهرية تميز اللغات السامية عن اللغات الهندية الأوربية (الآرية) ، وتجعل كلا منها بعيدة عن الأخرى بعدا لا يتصور معه سبق الاشتراك بين هاتين الكتلتين من اللغات في أصل واحد في العصور التاريخية المعروفة ، ويقولون : إذا كان هناك أصل اشتركتا فيه فلا يكون ذلك إلا قبل التاريخ ، وهذا لا يدخل في نطاق البحث العلمي عند علماء اللغات [1] .

لقد حاول لويس عوض من جديد إثبات صلة القرابة بين اللغة

== وشيش في الفارسية والهندية القديمة ، وسكس في الإنجليزية من الهندأوربيات .

(١) ربحي كمال : دروس اللغة العبرية ص ٢١ .

العربية خاصة ـ واللغات السامية على وجه العموم ـ ، واللغات الهندية الأوربية ، وذلك بالاستخدام الخاطئ لقوانين التحول الصوتي ، وذكر أن اللغة العربية هي إحدى فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية الأوربية ، وأردف ذلك بقوله : « وإذا نحن اعتبرنا اللغة العربية نموذجا لبقية اللغات السامية ، خرجنا بأن ما يسمونه مجموعة اللغات السامية هي إحدى الفروع التي خرجت من هذه الشجرة (الهندية الأوربية) » [١] ، كما طلع علينا هذا الباحث بنتيجة أخرى فحواها أن رصد بعض قوانين التحول الفونيطيقي (الصوتي) في اللغة العربية يشير إلى وجود علاقة ما بينها وبين اللغة القوطية ، واللغة الجرمانية العالية القديمة [٢] .

ولا يتسع المقام هنا لمناقشة الآراء التي أوردها الباحث تفصيلا ، ولكننا نكتفي فقط بالإشارة إلى ما يلي :

١ ـ هذا الادعاء ليس بجديد ـ كما سبق ـ ، فقد وجد منذ مطلع القرن العشرين علماء من أمثال فورست Fürst ، ديلتس Dielz ، الذين لم يغادرا أصلا من أصول الفصيلة السامية إلا كشفا عما يشبهه (بزعمهم) صوتا ودلالة من أصول الفصيلة الهندية الأوربية [٣] ، ولم يزد ما ذكره الباحث زاعما أنه نتيجة توصل إليها عن أن يكون أحد احتمالات ثلاث ساقها العلماء لتفسير التشابه الذي لاحظوه ، وهذه الاحتمالات هي :

أ ـ أن إحدى الفصيلتين قد انشعبت عن الأخرى .

---

(١) لويس عوض : مقدمة في فقه اللغة العربية ص ٢٦ .

(٢) السابق ٤٩ ، والتعبير باللغة الجرمانية العالية القديمة إنما هو ترجمة ركيكة للمصطلح Althochdeutsch الذي يعني اللغة الألمانية الفصحى القديمة .

(٣) علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة بين الإنسان والطفل ص ١٠٥ .

ب - أنهما تفرعتا معا عن لغة بادت واندثرت ولم يصلنا شيء عنها .

ج - أن الشعب الذي تفرع عنه الساميون والآريون كانت له في الأصل لغة مشتركة ، وأن انقسامه إلى هاتين الشعبتين قد حدث ولغته في الطور الأول من أطوار تكوينها ، ثم اتجهت كل منهما فيما بعد إلى تكملة لغتها ، وتكوين قواعدها على نحو يخالف الأخرى [١] .

إن أساس هذه النظرية (كما يقول علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة ص ١٠٧) هو اتفاق الفصيلتين في أصول المفردات اتفاقا يدل على انشعاب إحداهما عن الأخرى ، أو انشعابهما عن أصل واحد قريب غير مسلم به من جمهرة المحققين من علماء اللغة ، وذلك لأن القائلين بهذه النظرية لم يقدموا على صحتها دليلا يعتد به ، فليس من بين وجوه الشبه التي كشفوا عنها بين هاتين الفصيلتين ما ينهض دليلا قاطعا على صحة نظريتهم ، بل إن كثيرا منها لينم عن ضعفها وبطلانها [٢] .

٢ - لقد وقع الباحث في خطأ منهجي عندما تناسى قاعدة تبدو الآن بدهية ، وهي « أن القوانين الصوتية لا تصدق إلا على تاريخ مجموعة معينة من اللغات ، ومن هنا فلا يستطيع اللغوي المقارن أن يطبق القوانين الصوتية الصادقة على مجوعة معينة من اللغات على أخرى [٣] .

---

(١) باختصار عن المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٢) يشير علي عبد الواحد وافي إلى أن ما بنيت عليه هذه النظرية إنما يقوم على تجريد الكلمات السامية ، وهي ثلاثية الأصل من أحد الحروف ، لتبقى بعد ذلك على حرفين ، حتى يلتمس لها ما يشبهها من الأصول الثنائية في اللغات الهندية الأوربية .

(٣) السعران : علم اللغة ص ٢٧٦ .

==

٣ - لم يشر الباحث - كما لم يشر من سبقوه - من قريب أو من بعيد إلى اتفاقات في الصيغ النحوية بين العربية وهذه اللغات ، وهذه وحدها هي التي تدل على وحدة الأصل دلالة قاطعة [1] .

٤ - وأهم من ذلك كله ما نلاحظه من أن القوانين التي ذكرها لويس عوض لبيان وحدة الأصل بين المجموعتين الهندية الأوربية من ناحية ، والمجموعة السامية الحامية من ناحية ثانية تخلط خلطا شائنا بين الواقع اللغوي لكلتا المجموعتين ، ومن أمثلة ذلك :

أ - ما أسماه الباحث بـ « قانون السِّنِّيات Dental » (الأصوات الأسنانية) ، ذلك القانون الذي تتبادل بمقتضاه التاء والثاء والدال والذال والصاد والضاد والطاء والظاء [2] ، فهذا القانون يرفضه واقع الدرس اللغوي المقارن للغات السامية من وجوه عديدة ، منها :

- التاء السامية القديمة ظلت تاءا في كل اللغات السامية ، وكذلك الدال والطاء .

- لم يذكر القانون شيئا عن تبادل الثاء مع الشين أو السين ، وهما

== وقد أكد جون كارول في كتابه The study of language هذه الحقيقة ، حيث قال : « إن اللغوي الذي يدرس اللغات الهندية الأمريكية من الناحية المقارنة لا يطبق عليها قوانين صوتية مأخوذة من القوانين الصوتية التي يثبت أنها منطبقة على اللغات الهندأوربية ، لأنها مستمدة من دراستها » ، وأضاف « أن ما يستنبطه اللغوي من الدراسة المقارنة للغات الهندأوربية ، بحيث يكون صالحا للاستخدام عند الدراسة المقارنة لمجموعة أخرى من اللغات هو منهج Method ، ولا شيء سوى المنهج » (نقلا عن السعران : علم اللغة ص ٢٧٦) .

(١) رمضان عبد التواب : المدخل إلى علم اللغة ص ٢٠٣ .

(٢) انظر هذا القانون في : مقدمة في فقه اللغة العربية ص ١١٧ .

من بدائلها في اللغات السامية (انظر ص ٧٨) .

- لم يذكر هذا القانون « الزاي » ، مع أنها من بدائل الذال في اللغات (انظر الجدول ص ٨٠) .

ب - ما أسماه الباحث بقانون « تبادل السقف حلقيات » .

بمقتضى ذلك القانون تتحول الحاء أو الهاء إلى سين أو زاي ، وقد ذكر الباحث أن مادة حي العربية ، المشتق منها حياة ، وحيوان ترجع إلى جذر مشترك خرجت منه مادة زوي Zeu اليونانية ، التي خرجت منها Zoology ونظائرها في اللغات الأوربية ، وفي موضع آخر ذكر أن الخاء تتحول إلى سين بمقتضى ذلك القانون (١) .

إن تطبيق هذا القانون على اللغات السامية فيه تعسف كبير ، إذ تبقى الهاء هاءا في كل اللغات عدا الأكادية التي تتحول فيها الهاء (وكذلك الخاء) إلى همزة ، وذلك بتأثير اللغة السومرية كما سبق (انظر : ص ٥٠) ، أما الخاء السامية الأصلية فإنها تظل كذلك في العبرية والأوجريتية والسوريانية ، وفيما يتعلق بالحاء فإنها في اللغات السامية تظل حاءا فيما عدا الأكادية (٢) كما ذكرنا قبلا .

* * *

---

(١) مقدمة في فقه اللغة العربية ص ٣٣٥ ، وقارن بالأمثلة العديدة التي ذكرها ص ١٦٠ ، وخاصة الفقرة الثانية ص ١٦٩ (تحول الخاء إلى سين) .

(٢) انظر في القوانين الخاصة بالتحولات الصوتية في اللغات السامية :

Bergstrasser, Einführung; S. 5 F.

Moscati; An introduction, P. 71 .

الفصل الثاني
اللغة العربية الفصحى

تمهيد

اللغة العربية هي إحدى أقدم اللغات السامية التي حافظت ، وما زالت تحافظ على الكثير من الخصائص الأصلية للغة المشتركة ، التي يفترض أنها الأصل الذي تفرعت عنه كل اللغات السامية ، وهي لذلك تقف على قدم المساواة مع اللغة الأكادية ، من حيث محافظتها على الطابع العريق الذي تتميز به الألسنة السامية على وجه العموم [1] .

إننا نعرف هذه العربية في صورتين رئيسيتين ، الأولى : هي العربية القديمة أو الكلاسيكية ، والثانية : هي العربية الحديثة التي يتكلم بها أبناء الشعب العربي من المحيط إلى الخليج ، ولعله من الصعوبة بمكان أن نحدد تاريخا معينا تبدأ عنده العربية الحديثة ، أو تنتهي به العربية القديمة ، وقد ارتضى الباحثون أن تكون الفترة التي سقط فيها الإعراب من لغة الكلام العادي هي نقطة البداية لظهور الصورة الثانية للعربية ، وذلك باعتبار أن الإعراب هو أهم السمات التي تتميز بها الفصحى القديمة [2] في الكلام العادي وفي لغة الأدب والكتابة على حد سواء ، وقد اختلف الباحثون بعد ذلك في تحديد الفترة التي تخلت فيها اللغة العربية كلغة للكلام العادي عن الإعراب [3] .

---

(١) Fischer & Jastrow; Handbuch der arab. Dialekte S. 15.

(٢) هناك سمات أخرى للفصحى ، منها مثلا : المحافظة على النطق السامي الأصلي للحروف البين أسنانية ، ونعني بها الظاء والضاد والثاء والذال .

(٣) سنناقش هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد (انظر : ص) .

إن معلوماتنا عن طفولة العربية ، أي عن المرحلة التي مرت بها هذه اللغة ، قبل أن تتبلور في شكل تلك اللغة الأدبية التي وردت إلينا في الشعر الجاهلي ، أو فيما ورد إلينا عن خصائص اللهجات العربية المختلفة ، هي معلومات جد ضئيلة ، سجلتها النقوش التي خلفها أجدادنا في شتى أنحاء الجزيرة وما حولها ، فهذه النقوش - حتى وإن كانت من الكثرة بمكان - خطها الذي كتبت به غير واضح تماما ، كما أن جهود العلماء لدراسة هذه النقوش ما زالت مبعثرة وخاضعة للاجتهادات الشخصية [١] ، وبالإضافة إلى ذلك فإن المادة اللغوية التي تحويها هذه النقوش هي مادة ضحلة وضئيلة إلى حد كبير [٢] .

وتعرف اللغة العربية في هذه الفترة (التي سبقت ظهور الشعر الجاهلي) باسم عربية النقوش ، وذلك للتمييز بينها وبين عربية التراث التي وصلتنا وهي في أوج اكتمالها ، ممثلة في اللغة الأدبية ، لغة الشعر والخطابة من جانب ، ولهجات القبائل العربية من الجانب الآخر .

عربية النقوش (العربية المبكرة)

يطلق على اللغة التي كتبت بها النقوش في شمالي الجزيرة العربية اسم العربية المبكرة ، وتمتد الفترة التي كتبت فيها هذه النقوش من الفترة ما بين القرن الخامس قبل الميلاد حتى القرن الرابع بعده [٣] ، ويمكننا تقسيم هذه النقوش وفقا للخط الذي كتبت به إلى قسمين ، هما :

---

(١) انظر : شبيتالر في مقالته عن العربية المنشورة في مجلة Linguistica semtica presente e Futuro, Rum (1961) S. 115 .

(٢) انظر : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٦١ .

(٣) شبيتالر : المرجع السابق ص ١١٥ ، وقارن برمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٥٠ .

أ - نقوش كتبت بالخط المسند .

ب - نقوش كتبت بالخط النبطي المشتق من الخط الآرامي .

النقوش المكتوبة بالخط المسند

الخط المسند هو ذلك الخط الذي كتبت به نقوش اللغة العربية الجنوبية [1] ، وقد عثر على هذه النقوش في أماكن متفرقة في شمالي الجزيرة العربية ، وقد قسمها الباحثون وفقا لمحتواها اللغوي أو أماكن العثور عليها إلى ثلاث مجموعات هي :

النقوش اللحيانية (الديدانية)

تنسب هذه النقوش إلى قبيلة - أو قبائل - « لحيان » الذين كانوا يعيشون في المنطقة الشمالية الغربية للجزيرة العربية ، حيث يجاورهم المصريون ، وقد أسسوا لهم مملكة استمرت حوالي خمسة قرون ، من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي ، وقد عثر على هذه النقوش في منطقة العلا (ديدان القديمة) ، وربما كانت هذه القبائل قد هاجرت من الجنوب اليمني بعد خراب سد مأرب ، ويربط بعض الباحثين بين اللحيانيين وبين الدولة المعينية في جنوب الجزيرة العربية ، إذ نزح اليمنيون إلى هذه المنطقة ، واختلطوا بأهلها ، ثم نقلوا إليها طريقتهم في الكتابة [2] ، ومن أهم ما تتميز به النقوش اللحيانية هو استخدامها

---

(١) انظر صورة من هذه النقوش المكتوبة بالخط المسند ص ٧٤ .

(٢) انظر : علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١٠٠ ، وقارن بمحمود حجازي : علم اللغة العربية ص ٢٢٠ ، ومن أهم ما كتب عن هذه النقوش اللحيانية : كتاب كاسكل عن اللحيانية واللحيانيين W. Caskel Lihyan und Lihyanisch, Koln, 1954 .

غالبا للهاء أداة للتعريف ، فيقولون هصلم [١] في معنى الصنم أو التمثال ، وقد لوحظ أيضا في هذه النقوش أنها تستخدم إلى جانب الهاء أداة للتعريف لفظ « هن » ، وكذلك « هل » مع الكلمات المبدوءة بالعين أو الهمزة أو القاف [٢] .

النقوش الثمودية

تنسب هذه النقوش إلى قبائل ثمود ، التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، كما وردت أيضا في نص آشوري (أكادي) ينسب إلى سرجون الثاني (٧١٥ ق . م) ، وقد ذكر المؤرخ اليوناني بطليموس أن هذه القبائل قد عاشت في أرض مدين (الحجر أو مدائن صالح الآن) ، وقد ورد اسم ثمود في هذه النقوش ، ومن ثم أطلق عليها النقوش الثمودية ، ويمكننا أن نؤرخ لها بالفترة من القرن السادس ق . م ، حتى القرن الرابع الميلادي [٣] ، ومن الظواهر اللغوية التي تلاحظ فيها استخدامها للهاء أداة التعريف [٤] ، ومن ذلك أيضا أنها لا تكتب الألف أو الواو أو الياء ، فكلمة : عل ، وال ، وان ، واسم ، قد يراد بها : علي ، إلى ، أنا ، اسمي [٥] ، وتشاركها في هذه الخاصية كل من الصفوية واللحيانية .

---

(١) انظر : فؤاد حسنين : أداة التعريف في اللغة العربية ، وهو مقال منشور في مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مجلد ٧ عدد يوليو سنة ١٩٤٤ ص ١٧٣ .

(٢) فؤاد حسنين : السابق ١٧٣ .

(٣) انظر : محمود حجازي : علم اللغة العربية ص ٢١٩ .

(٤) فؤاد حسنين : السابق ص ١٧٤ .

(٥) انظر في هذه الخصائص وغيرها :

E. Littmann; Thamud und safa; S. 40 , Die Entzifferung der thamudischen Inschriften, Paris (1911) .

==

النقوش الصفوية

تنسب هذه النقوش إلى أهم الأماكن التي عثر عليها فيها ، أي إلى جبل الصفا [١] القريب من دمشق ، ويرجع تاريخها إلى الفترة من القرن الأول قبل الميلاد ، إلى القرن الرابع بعده ، ولعل أهم خواص النقوش الصفوية هو استعمالها للهاء أداة للتعريف بدلا من « ال » .

ومن تأمل هذه المجموعات الثلاثة من النقوش ، نجد أنها تستعمل أدوات للتعريف خلاف ما هو معروف في عربية التراث ، كما أن الخط الذي كتبت به لا يدون الحروف الصائتة إطلاقا ، قصيرة كانت (مثل الفتحة والكسرة والضمة) أم طويلة (حروف المد) [٢] ، فإذا وردت الحروف « س ل م » فلا ندري أهي اسم فاعل (سالم) ، أم هي فعل

== C. Brockelmann; Das Arabische und siene Mundart-en. S. 213 .

(١) انظر في النقوش الصفوية : آنو ليتمان في كتابه : Zur Entzifferung der Safa Inschriften, S. 5 FF. ، وكذلك كتابه الأول المذكور في الملاحظة السابقة ، وقارن بمحمود حجازي : علم اللغة العربية ص ١٩ .

(٢) يلاحظ أن الخط المسند الذي دونت به هذه النقوش ـ وهو نفس الخط الذي دونت به النقوش العربية الجنوبية ، وخاصة السبئية ـ لا يسجل الحركات أو حروف المد ، وقد فطن العلماء العرب منذ القرن الرابع الهجري إلى هذه الخاصية في الكتابة ، فذكر الهمداني في الإكليل (١٠/ ١٦) أنهم (أي عرب الجنوب) يكتبون بحذف الألف إذا وقعت في سوق الحروف ، وقفاهم المسلمون في كتابة المصاحف ، فطرحوا ألف الرحمن ، وألف الإنسان ، وألف السموات ... ، كذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف ، مثل : مبعوث ، والياء الساكنة مثل : شمليل ، والألف الساكنة مثل : هلال ، وبلال ، وأميال .
عن رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٥٢ .
ونقول : أن تقييد الهمداني لحذف حروف المد بوقوعها في وسط الحروف هو تقييد لا محل له ، لأنهم يحذفونها مطلقا كما اتضح من دراسة النقوش التي خلفوها .

ماض (سَلِمَ) إلا من خلال السياق ، كما أنها لا تكتب التنوين ، وتستعمل أدوات للإشارة وللموصول على خلاف المعهود في عربية التراث ، وقد دفع هذا بعض الباحثين إلى اعتقاد أن هذه النقوش لا تمثل عربية الشمال ، وإنما لغة بعض عرب الجنوب الذي هاجروا إلى هذه المناطق [١] ، ونرى أنها ليست كذلك ، بدليل عدم ظهور الميم ـ التي تقابل التنوين في عربية الشمال ـ في أي نقش من هذه النقوش ، بينما لا يكاد يخلو نقش من نقوش العربية الجنوبية من هذه الميم [٢] .

النقوش المكتوبة بالخط النبطي

لقد كتبت هذه النقوش بالخط النبطي ، وهو مشتق من الخط الآرامي ، وقد سبق أن ذكرنا [٣] أن هؤلاء النبط هم شعب عربي كان يسكن المنطقة الواقعة بين شمال الحجاز وجنوب دمشق ، وكانوا يتخذون من البتراء عاصمة لهم ، وكانوا نتيجة لهذا الموقع الجغرافي المتميز يسيطرون على التجارة في حوض البحر المتوسط ، وقد ذكرنا أيضا أن لغة هؤلاء النبط كانت مختلطة ، امتزجت فيها العربية بالآرامية ، وقد ذكرنا من قبل كثيرا من النقوش النبطية (ص ٦٥ - ص ٦٧) ، إلا أن تأثير الآرامية في هؤلاء العرب قد أخذ يقل بالتدريج ، حتى وجدناهم يتحدثون ويكتبون بلغة عربية خالصة منذ القرن الرابع الميلادي ، وقد انعكس هذا على ما خلفوه من نقوش ، وأهمها نقش النمارة ، ونقش

---

(١) انظر : رمضان عبد التواب : السابق ص ٥٣ .

(٢) ولا يمكن أيضا اعتبار هذه النقوش راجعة إلى إحدى اللهجات الكنعانية التي تستخدم الهاء أداة للتعريف ، بدليل تفريقها بين الغين والعين من ناحية ، والحاء والخاء من ناحية ثانية ، واللغات الكنعانية لا تفرق بينها كما ذكر نولدكه .

(٣) انظر : ص ٦١ وما بعدها .

حران ، ونقش زيد ، ونقش أم الجمال [١] ، ويرجع تاريخ هذه النقوش إلى الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي ، وفيما يلي صورة لبعض هذه النقوش :

نقش النمارة

نقش حران

نقش زيد

(١) انظر في هذه النقوش ، وأماكن العثور عليها ، والتاريخ الخاص بكل منها : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٥٥ وما بعدها ، وراجع إلى جانب ما ذكره هناك من مراجع كل من : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٧ وما بعدها ، وحسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ .

وسنكتفي هنا بالحديث عن النقشين الأول والثاني (نقش نمارة ، نقش حران) :

نقش النمارة

يرجع تاريخ هذا النقش إلى القرن الرابع الميلادي ، وقد عثر عليه المستشرق الفرنسي رينيه دسو René Dussaud في بلدة النمارة في الجهة الشرقية من جبل الدروز ، وقد اكتشف هذا النقش في مدفن امرئ القيس بن عمرو (١) ملك العرب ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٣ من سقوط سلع ، وهو يوافق ٣٢٨م ، ولهذا النقش أهمية خاصة في بحث تاريخ الكتابة العربية ، وذلك أن كثيرا من كلماته ، بل ربما كانت جميع كلماته ذات صورة تشبه شبها كبيرا صورة الخط العربي الإسلامي (٢) ، وفيما يلي قراءة سريعة للأسطر الخمسة الواردة بهذا النقش (٣) :

١ ـ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

٢ ـ وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مزحجو (محجو) عكدى وجا .

---

(١) هو غير امرئ القيس بن حجر ، الشاعر المشهور .

(٢) ناصر الدين الأسد : السابق ص ٢٧ .

(٣) هذه هي القراءة المشهورة للنقش ، وقد نقلناها عن إسرائيل ولفنسون : في تاريخ اللغات السامية ص ١٩٠ ، وقد أثبتها هكذا كل : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٥٦ ، وحسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٦٥ ، وناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٨ ، وعلي عبد الواحد وافي : في فقه اللغة ص١٠٣ ، وأهم ملاحظاتنا على هذه القراءة هي إثبات الكلمة الثانية بالنون والفاء والسين ، ونرى أن صوابها بالنون والباء والشين (نبش) ، لأنها وردت هكذا في كثير من النصوص النبطية ، ومعناها الحفرة المنبوشة ، أي : القبر ، وهذه القراءة تتفق تماما مع الخط الآرامي من ناحية ، وبما يصحّحُ المعنى من الناحية الثانية ، وسنعرض لهذا النقش بالدرس والتحليل في فرصة أخرى إن شاء الله .

٣ - بزجى في حبج نجرن مدينة شمر ومَلَّكَ معدو ونزّل بنيه .
٤ - الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ - عكدى هلك سنت ٢٢٣ بكسلول بالسعد ذو ولده .

وقبل أن نعيد كتابة النص بلغة أقرب إلى العربية المأثورة في الشعر والنثر الجاهليين ، فإننا نلاحظ ما يلي :

- استعمال « تي » اسم إشارة للمؤنث ، وهو من الأمور المعهودة في فصحى التراث (١) .

- لم ترد كلمة « نفس » في أي نص من النصوص النبطية الأخرى ، وإنما وردت كلمة « نبش » ، ومعناها الحفرة التي يقبر بها الناس ، ومن ثم فإننا نرجح أن تكون القراءة الصحيحة هي « نبش » (٢) .

- « ذو » هي اسم موصول بمعنى « الذي » ، وقد وردت هكذا في لغة طيء ، وهم أيضا من عرب الشمال (٣) ، مثل النبط .

- عدم تسجيل الألف كتابة في ألفاظ كثيرة ، مثل : التج (= التاج) نجرن (= نجران) (٤) .

ولذا نرجح أن تكون قراءة الكلمة التاسعة من السطر الأول « كلها » بدلا من « كله » (٥) .

---

(١) انظر : ابن يعيش : شرح المفصل جـ ٣ ص ١٧١ .
(٢) انظر الملاحظة (٣) في الصفحة السابقة .
(٣) انظر : ابن يعيش : شرح المفصل جـ ٣ ص ١٤٧ .
(٤) وعدم كتابة الألف وغيرها من حروف المد أمر شائع في الكتابة العربية القديمة ، انظر في المصحف مثلا كتابة « الرحمن » و« السموات » (بدون ألف بعد الميم) وهذه أيضا من خواص الكتابة المسندية .
(٥) انظر : حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٦٦ .

- عكدى ... الواردة في السطرين الثاني (الكلمة الأخيرة) ، والخامس (الكلمة الأولى) ، اختلف الشراح في تفسيرها اختلافا شديدا ، فمنهم من رآها تعني « القوة » (١) ، ومنهم من رآها تعني « اليوم » (٢) ، ومنهم من رآها مكونة من كلمتين : « عد » بمعنى « حتى » و« كى » بمعنى « اليوم » (٣) ، وهذا الأخير في نظرنا أقرب إلى الصواب ولكن الكلمة حتى وإن كانت مركبة في الأصل ، إلا أنها أصل كلمة حتى العربية ، وتؤدي معناها ، وأصلها « عكدى » ، صارت الدال المجهورة تاء مهموسة لتناسب الكاف المهموسة ، عن طريق المماثلة Assimilation ، فصارت « عكتى » ، ثم قلبت الكاف تاءا لمشابهتها لها في الهمس والشدة ، وأدغمت التاء في التاء فصارت « عتى » ، وقد وردت هذه الصورة الأصلية في لهجة هذيل ، وبها قرأ ابن مسعود « عتى حين » ، أما في سائر اللهجات الأخرى فقد صارت العين المجهورة حاءا مهموسة لكي تناسب التاء المهموسة (٤) .

- « بزجي » اختلف المستشرقون أيضا في قراءة هذه الكلمة ، وفي تفسيرها ، فهناك من يقرؤها بالباء ، وهناك من يقرأها بالنون (٥) ، ومن يقرؤها بالباء يجعل الباء جارة ، ثم يتخبط بعد ذلك في معنى « زجي » ، فهي أحيانا تعني اليسر والسهولة (٦) ، وهي أحيانا تعني

---

(١) وافي : فقه اللغة ص ١٠٤ ، ناصر الدين الأسد : السابق ص ٢٩ .

(٢) عبد التواب : فصول ص ٥٦ .

(٣) ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٦٧ .

(٤) استفدت هذا الرأي من محاضرة شفوية ألقاها أستاذنا ف . فيشر في جامعة أرلانجن ١٩٧٩م .

(٥) علي عبد الواحد وافي : السابق ص ١٠٤ .

(٦) حسن ظاظا : السابق ص ١٦٨ .

الغنائم [١] ، والأمر في رأينا لا يحتاج إلى كل هذا العناء ، فالكلمة بالياء ، ومعناها يسوق أو يدفع أمامه بشيء [٢] ، وبذلك يترجح أن تكون الكلمة السابقة « محجو » اسم علم لا اسم قبيلة ، كما ذكر دسو مكتشف النقش ، وليست « مذحج » كما يقول الكثيرون [٣] .

ـ أما كلمة « حبج » فقد اختلف أيضا في تفسيرها ، ونرجح أنها هنا جمع « حابج » ، وهو الجمل السمين ، والمقصود بالإبل السمان هنا خيار المال ، وقد ورد هذا المعنى في معاجم اللغة [٤] .

ـ « وكلهن فرسو لروم » فسرها بعض الباحثين كما لو كانت : وكلهن الفرس والروم [٥] ، أي أنهم قد نُصِّبوا من جانب الفرس والروم معا ، وهذا يتنافى مع الواقع التاريخي ، لأن الدولتين كانتا في صراع دائم في هذه الفترة ، كما يقول بعض الباحثين [٦] الذي يرى أن « فرسو » هنا ليست علما على أمة الفرس ، ولكنها تقرأ فارسو الروم (جمع فارس) ، وحجته في ذلك أن الواو لا تأتي في غير أسماء الأعلام ، ولا أدري من أين أتى بهذا ، فالواو تدخل في النقوش النبطية على الأعلام وعلى

---

(١) عبد التواب : السابق ص ٥٦ .

(٢) قد وردت « يزجي » بمعنى يدفع أمامه شيئا في لغة طيئ أيضا ، قال حاتم الطائي :
وأرملة تزجي مع الليل أرملا ، وقال الآخر : عوذا تزجي خلفها أطفالها ، وقد وردت بهذا المعنى أيضا في القرآن الكريم (آية ١٦ من سورة الإسراء ، وكذلك الآية ٤٣ من سورة النور) .

(٣) انظر في معنى الأزجاء : تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٨٨ .

(٤) انظر : كتاب الجيم للشيباني جـ ١ ص ١٩٧ ، وقد ورد الحبج في معنى البعير الضخم ، انظر : ص ٢١١ من نفس المرجع .

(٥) انظر : وافي : فقه اللغة ص ١٠٤ ، عبد التواب : فصول ص ٥٦ .

(٦) انظر : ظاظا : الساميون ص ١٧١ .

غير الأعلام [١] .

ولذا فإنه من المرجح ، بل من المؤكد على ضوء معارفنا التاريخية أن يكون المقصود هم الفرس الذين وكلوهم حماةً لدولتهم من الروم ، فقد ثبت أن امرأ القيس هذا كان عاملا لسابور (ذي الأكتاف » على ناحية مضر وربيعة كما يقول الطبري [٢] .

وبعد هذه الملاحظات العجلى نستطيع الآن أن نعيد قراءة هذا النص على النحو التالي :

هذه (حفرة) مقبرة امرئ القيس بن عمرو ملك
العرب كلها الذي حاز التاج وملك الأسدين ونزارا
وملوكهم ، وطارد محجا (اسم شخص) حتى جاء
يدفع أمامه إبل نجران ، مدينة شمر ومَلَكَ معداً
وسيطر أبناؤه على الشعوب (شعوب القبائل) ،
ووكلهم الفرس لـ « يواجهوا » الروم فلم يبلغ ملك
مبلغه حتى مات سنة ٢٢٣ في السابع من كسلول
(لعلها أيلول) [٣] فليسعد الذين ولدهم . . .

---

(١) انظر كانتينيو مثلا في نقش الحجر (رقم ١٧٠) ، وأم الجمال (رقم ١٩٢) ، حيث وردت الواو في نبشو ، قبرو وكلاهما ليس من أسماء الأعلام .

(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٩ .

(٣) يرى بعض المفسرين أنها تعني كانون الأول (يناير) .
انظر : وافي : فقه اللغة ص ١٠٤ .

نقش حران

عثر على هذا النقش مكتوبا بلغتين ، هما العربية واليونانية ، ويعتبر أحدث النقوش المكتشفة التي تصور الكتابة في العصر الجاهلي ، إذ يرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨ ، أي قبل مولد الرسول ﷺ بثلاثة أعوام ، وقد كتب في أربعة أسطر (انظر النقش ص ٩٣) .

أنا شرحل بر طلمو بنيت ذا المرطول [١]
سنت ٤٦٣ بعد مفسد
خيبر
بعم [٢]

وعبارة هذا النص واضحة ، إلا أننا لا نوافق على قراءة الكلمة الثانية في السطر الأول « شراحيل » كما يحلو للكثيرين لسببين :

الأول : أنهم كانوا لا يكتبون المدات المتوسطة إلا نادرا ، والأقرب إلى الظن أن يكون ما بعد الحاء باء بعدها ياء غير مكتوبة (أي شرحبيل).

الثاني : أن اسم شرحبيل وليس شرحيل أو شراحيل هو الاسم الذي ورد في فصحى التراث ، فلم لا يكون بعينه هو الاسم المدون في النقش ، خصوصا أن زمن النقش هو نفسه الذي وجد فيه اسم شرحبيل [٣] .

---

(١) المرطول معناه : الكنيسة أو الشاهد .
انظر : حسن ظاظا : السابق ص ١٧٤ ، وقارن بعبد التواب : السابق ص ٥٧ .

(٢) انظر في هذا النقش : نفس مراجع النقش السابق (نقش النمارة) .

(٣) نحن جميعا نعرف أن شرحبيل بن حسنة من قادة المسلمين في فتح الشام على عهد الصديق وعمر ﵄ .

ويكون معنى النص حينئذ :

أنا شرحبيل بن ظالم ، بنيت هذا المرطول بعد مفسد خيبر بعام [١].

إن هذين النقشين اللذين عرضنا لهما وإن لم يخلوا من تأثر بالآرامية ، يتجلى في استخدامها لكلمة « بر » بدلا من كلمة « ابن » ، إلا أنهما مع ذلك عربيان ، بدليل أداة التعريف العربية ، وهي « ال » فيهما (التاج ، المرطول ، العرب ، الشعوب ، ...) ، كما أن تقديم اسم الإشارة على المشار إليه ، واستخدام « ذا » في « ذا المرطول » اسم الإشارة العربي ، بدلا من « دنا » (اسم الإشارة الآرامي) ، لما يؤكد هذا ويدعمه ، يضاف إلى ذلك أن التعبير « فلم يبلغ ملك مبلغه » هو تركيب عربي لا ريب فيه ، ولكننا نعترف مع ذلك بأن هذه النقوش وغيرها مما تم اكتشافه فعلا ، لا تقدم صورة واضحة عن طفولة العربية لقلتها ، وقلة ما تحتويه من مادة لغوية من ناحية ، ولاختلاطها بعناصر لغوية من شقيقات العربية من ناحية ثانية [٢] .

ويرى ناصر الدين الأسد [٣] أن قلة هذه النقوش هي إحدى النقائص التي تعتريها ، وهناك نقيصتان أخريان هما :

١ ـ تباعد فتراتها وانفصال أوائلها عن أواخرها ، لوجود فجوات زمنية عريضة ، فقد أُغْفِلَ ذكر قرن كامل بسنيه المائة هو القرن الخامس الميلادي ، لأننا لم نجد نقشا عربيا يرجع تاريخه إلى هذا القرن ، وكذلك

---

(١) مفسد خيبر هي القراءة الصحيحة ، أما قراءة « حينئذ » فلا معنى لها ، ومفسد خيبر (تدميرها) المشار إليه هنا كان بسبب غزوة الغساسنة لها كما يقول ليتمان . انظر : عبد التواب : فصول ص ٥٧ .

(٢) قارن بعبد التواب : السابق ص ٦١ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣١ وما بعدها .

لم نعثر في القرن الرابع إلا على نقش واحد يرجع إلى ثلثه الأول ، أما ثلثاه الأخيران فخاليان أصمان ، ولم يعثر في القرن السادس إلا على نقشين ، أولهما في سنواته الأولى (سنة ٥١١م) ، والآخر بعد منتصفه (٥٦٨م) ، وما بينهما نصف قرن صامت مصمت .

ومن هنا لا بد للدارس الذي يريد تتبع البحث من أن يملأ هذه الفجوات بالاستنتاج والاستنباط .

٢ ـ وأما النقيصة الثالثة ـ وهي أخطرها في نظر الباحث ـ فهي أن هذه النقوش كلها قد اكتشفت في المنطقة الشمالية من بلاد العرب ، التي تمتد من العلا ، ومدائن صالح ، إلى شمال بلاد حوران ، وأما متوسط بلاد العرب وصحيحها . الحجاز ونجد ، فلم يعثر ـ حتى الآن ـ على شيء من النقوش الجاهلية فيها ، فإذا كانت هذه النقوش بكلماتها الفصيحة ، وخطها العربي قد اكتشفت في منطقة كانت مسرحا لآثار دارسة من الثمودية والآرامية والنبطية لغة وخطا ، فكيف تكون هذه النقوش التي قد تكتشف في الحجاز ونجد ؟ وإذا كانت هذه اللغة الفصيحة ، والقلم العربي قد تفشيا في هذه المنطقة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي ـ بل ربما تفشيا قبله ـ ، فإلى أي عهد ترجع نقوش الحجاز ونجد ؟ .

نعم .. إن هذه النقوش كما ذكرنا في البداية ليس فيها غناء كبير ، ولكنها مع ذلك لا يمكن إغفالها كمرحلة سابقة لما نعرفه من عربية العصر الجاهلي ، كما أنها تعطي صورة للخط العربي لا يمكن التغاضي عنها عند دراسة تطور هذا الخط والأصول التي اشتق منها ، ، كما أن في هذه النقوش بعض التفسير للكثير من اللهجات العربية ، كتفسير اختلاف

أدوات التعـريف في العربية ، وكتـفسير كلمـة عتى التي تروى عن هذيل والتي نرى أنها مرحلة وسيطة بين حـتى في الفصحى ، وعكدى في نقش امرئ القيس بن عمر (نقش النمارة) .

* * *

عربية التراث

نقصد بعربية التراث : تلك اللغة العربية التي وردت إلينا نصوصها ممثلة في الشعر الجاهلي والأمثال العربية القديمة ، وما روي عن خطباء العرب وكهانهم في الفترة التي سبقت بعثة النبي ﷺ ، كما تشمل أيضا نصوص القرآن الكريم ، وما ثبتت صحته من الحديث النبوي الشريف وأقوال الصحابة وخطبهم ووصاياهم ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ، وتمتد هذه الفترة لتشمل أيضا عصر الخلفاء الراشدين ، وعصر بني أمية ، وجزءا من عصر بني العباس ، أي أنها تمتد حتى منتصف القرن الثاني الهجري .

إن النصوص التي ترجع إلى هذه الفترة سواء كانت شعرا أم نثرا ، وسواء أكانت تعكس الطابع المحلي لقائليها ، أم تعكس صورة لهذه اللغة الأدبية العامة ، كانت هي النموذج الذي احتذاه النحاة واللغويون العرب وهو يؤصلون قواعد العربية ، ويسجلون مفرداتها منذ مطلع القرن الثاني الهجري ، ويطلق بعض الباحثين [١] على هذه الفترة اسم الفترة قبل الكلاسيكية ، أي الفترة التي سبقت مرحلة تدوين القواعد وتسجيل مفردات اللغة ، أو واكبتها وهي [٢] ما تزال بعد في مراحلها المبكرة (أي في النصف الأول من القرن الثاني) ، وتشمل نصوص هذه الفترة :

١ ـ الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية العصر العباسي الأول .

٢ ـ القرآن الكريم .

---

(١) W. Fischer, Grundriss der arabischen Philologie S. 53 .

(٢) أي عملية التدوين والتسجيل .

٣ - أجزاء من الحديث النبوي الشريف [1] ، وأخبار المغازي ، والسير ، وتعتبر سيرة ابن إسحاق (م ١٥١هـ) من أهم النصوص النثرية التي تزجع إلى هذه الفترة [2] .

٤ - التراث الثقافي للقبائل العربية ممثلا في الأمثال ، والحكايات ، وما يروى عن « أيام العرب » التي كانت تتضمن في الغالب أشعارا منسوبة إلى أبطال المعارك ، وأقوالا منسوبة للقادة والحكماء .

إن الخصائص العامة التي رواها النحاة واللغويون العرب عن الفصحى في تلك الفترة فيها مزج إلى حد ما بين مستويين من مستويات اللغة ينبغي التفريق بينهما ، وهما :

١ - مستوى العربية المشتركة التي كان يفهمها ويتعامل بها الخاصة من القوم ، وهي تلك اللغة التي نزل بها القرآن الكريم ، ونظمت بها الأشعار .

٢ - مستوى اللهجات المحلية التي كان يتعامل بها أفراد القبائل المختلفة في حياتهم اليومية وأحاديثهم ذات الطابع المحلي [3] .

وسوف نتحدث الآن عن المستوى الأول ، أي عن العربية المشتركة ، أما اللهجات العربية إبان هذه الفترة فقد تناولناها في كتابنا : الفصحى ولهجاتها ، مما يغني عن الإعادة هنا .

---

(١) نقصد الأجزاء التي رويت بلفظها لا بمعناها .

(٢) ف . فيشر : المرجع السابق ص ٣ .

(٣) انظر في الخلط بين هذين المستويين عند اللغويين العرب : تمام حسان : العربية معناها ومبناها ص ١٤ ، ورمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٢٨٨ .

العربية المشتركة

إن القول بوجود العربية المشتركة التي تسمو على الاختلافات المحلية، ويستخدمها العرب في الجاد من القول، ليس من مبتكرات الدرس اللغوي الحديث على أي حال، حيث سبق اللغويون العرب إلى القول بذلك. وكانوا يرون أن لهجة قريش التي كان يتحدث بها المكِّيون هي التي استخدمها العرب كافة بمثابة لغة مشتركة ينظمون بها أشعارهم، ويسجلون عقودهم، وأنها توجت بعد ذلك بنزول القرآن الكريم بها، وكانوا يرون أن هذه اللهجة قد دخلت في صراع مع غيرها من اللهجات، ثم كتبت لها الغلبة في النهاية، وذلك لما كان يتمتع به أهلها من مكانة سياسية واقتصادية واجتماعية لم يحظ بها سواهم، يقول أحمد ابن فارس [١] : « أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم : أن قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا ﷺ، فجعل قريشا قطان حرمه، وجيران بيته الحرام، وولاته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم، وتحكم بينهم ... » [٢].

---

(١) الصاحبي : في فقه اللغة ص ٣٣ .

(٢) تابع ابن فارس في رأيه كثير من القدماء والمحدثين، نذكر منهم السيوطي (انظر : الاقتراح ص ١٩٨، بتحقيق : أحمد قاسم)، وعلي عبد الواحد وافي، الذي يقول (في فقه اللغة ص ١١١) بعد أن تحدث عن صراع اللهجات : « أن هذا ما حدث للغة قريش، فقد ترتب على تغلبها على بقية اللهجات العربية أن أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب، فبها كان ينظم الشعر، وتلقى الخطب، وترسل الحكم والأمثال، وتدون الرسائل، ==

ويضيف ابن فارس إلى هذه العوامل السياسية والاجتماعية لتفضيل لهجة قريش أسبابا أخرى لغوية ، إذ يقول : « وكانت قريش - مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها - إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب » [١] .

ويعبر ابن فارس بعد ذلك عن تسامي اللغة القريشية وابتعادها عن الطابع المحلي للهجات الأخرى بقوله : « ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفة قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس ، مثل " تِعملون " و" نِعلم " ، ومثل " شِعير " ، و" بِعير " » [٢] .

وقد حاول كثير من المحدثين تأصيل هذه النظرية ، فأكدوا ما ذهب إليه أبو الحسين أحمد بن فارس من صيرورة لهجة قريش لغة العرب جميعا ، إذ « أصبحت لغة الآداب عند جميع قبائل العرب » [٣] ، وذكروا كذلك أسبابا عديدة ، وعوامل مختلفة ، أهمها :

١ - العامل الديني ، حيث كانت قريش تقطن بجوار البيت الحرام ،

= وتتفاوض الوفود ، ويتبارى الأدباء قبل بعثة الرسول بزمن غير قصير .
ويقرر صبحي الصالح « أن العرب قد استصفو لهجة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة » .
انظر : دراسات في فقه اللغة ص ١١٢ .

(١) السابق ص ٣٤ .

(٢) انظر في هذه اللهجات وغيرها : كتابنا : القراءات القرآنية ولهجات العرب في عصر النبوة ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ١١٢ .

وتقوم بسدانته ، وخدمة الوافدين إليه .

٢ ـ العامل الاقتصادي ، حيث سيطر القريشيون على التجارة بين اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف .

٣ ـ العامل السياسي ، حيث كانت قريش بفضل نفوذها الديني ، وتفوقها الاقتصادي ذات نفوذ سياسي قوي في سائر بلاد العرب .

٤ ـ العامل اللغوي ، الذي تمثل في أن لهجة قريش كانت أوسع اللهجات ثروة ، وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوبا ... وذلك بفضل ما أتيح لها من فرص كثيرة للاحتكاك بغيرها من اللهجات العربية (١) .

إن هذا الرأي الذي يقول بأن اللهجة القريشية هي نفسها التي صارت اللغة الأدبية للعرب جميعا هو قول تعوزه الدقة إلى حد كبير ، وذلك لأن النصوص الأدبية التي وردت عن هذه الفترة التي نتحدث عنها ، وخاصة القرآن الكريم قد اشتملت على كثير من الأساليب والألفاظ التي لا يمكن أن تعزى إلى لهجة قريش (٢) ، وإن كان هذا لا ينفي بالطبع أن هذه العربية المشتركة قد أخذت من اللهجة القريشية كثيرا من الألفاظ وطرائق التعبير (٣) .

إن إعادة النظر في دعوى تمثيل قريش للغة العربية المشتركة ربما جرت ـ كما يقول تمام حسان ـ إلى الكشف عن التعارض بينها وبين كثير

---

(١) باختصار عن المرجع السابق ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في ذلك : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، النوع السابع والثلاثون « فيما وقع في القرآن بغير لغة الحجاز » جـ ١ ص ١٧٥ - ١٧٨ ، ومن أمثلة ذلك : تحقيق الهمزة وعدم تسهيلها بقلبها إلى حرف علة .

(٣) انظر : كتابنا « محاضرات في فقه اللغة » ص ٢٨ ، ط. ٢ .

من المسلمات التي لا مشاحة فيها بين المشتغلين بالدراسات العربية والإسلامية ، ومن أمثلة ذلك ما يلي [١] :

١ - أن القرآن نزل ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ ، ولم ينزل بلسان قريش ، ولو كانت الفصحى في أصلها لهجة قريش ، وكانت قريش أصفى العرب لسانا ، لكان من المتوقع أن يكرم الله رسوله بالإشادة بفصاحة لهجته ، ولا غرابة في ذلك ، فقد أشاد الرسول ﷺ بفصاحة نفسه ، وحين فعل ذلك أشار إلى أنه نشأ في « سعد بن بكر » ، وهي من عليا هوزان ، فهل كانت سعد بن بكر أولى بالفصاحة من قريش ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ .

فإذا كانت إحدى الآيتين تفسر الأخرى ، فإن قومه هنا هم العرب جميعا ، لا قريش فقط .

٢ - أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وتعددت قراءاته ، وكلها مروي بالسند الصحيح عن الرسول ﷺ ، وفي أكثر هذه القراءات ظواهر لغوية لم تشتمل عليها لهجة قريش .

٣ - أنه كان للهجة قريش من الخصائص ما لم يشع في الاستعمال في العربية المشتركة ، وذلك كتخفيفهم للهمزة .

٤ - أن النصوص الأدبية الجاهلية تكاد تكون خالصة لقبائل غير قريش ، بل إننا لم نسمع عن شاعر جاهلي قرشي فحل ... ، وفي مقابل هذه الصورة القرشية الخالية من النشاط الأدبي نجد الشعر في قبائل عربية أخرى ، وهذا إنما يدل على أن الفصحى (العربية المشتركة) لغة جميع

---

(١) الأصول : تمام حسان ص ٧٨ وما بعدها .

العرب ، وليست لغة قريش فقط .. .

٥ - أن النبي ﷺ كان يخاطب أبناء القبائل بلهجات قبائلهم ، مشيرا بذلك إلى أن هذه اللهجات لها من الفصاحة ما للهجة قريش [١].

٦ - أن النحاة حين حددوا قبائل الفصاحة لم يذكروا قريشا بين هذه القبائل ، وإنما قصروها على « قيس ، وتميم ، وأسد ، وطيء ، وهذيل » [٢] .

٧ - أن الذين ادعوا تغلب لهجة قريش على لهجات القبائل الأخرى ، وتحولها إلى لغة مشتركة ، لا يقدمون سندا تاريخيا واحدا يدعم دعواهم ، وإنما يعتمدون فقط على بعض القرائن الحالية ، التي تتمثل في تمتع القرشيين بمكانة دينية واقتصادية وسياسية لم يحظ بها سواهم من العرب [٣] .

وخلاصة القول في هذه المسألة هو أن العربية المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم ، ونظمت بها الأشعار ، قد تخلصت من السمات المحلية للهجات القبائل المختلفة ، بما في ذلك السمات المحلية للهجة قريش ذاتها [٤] ، ولكنها استفادت من كل اللهجات على سواء ، وهذا لا ينفي

---

(١) ومن هنا رأى المحققون من علماء العربية حجية وفصاحة هذه اللهجات ، وقد عقد ابن جني لذلك باب في الخصائص أسماه « باب اختلاف اللغات (اللهجات) » وكلها حجة . انظر جـ ٢ ص ١٠ .

(٢) في الاقتراح للسيوطي ص ٥٦ ، نقلا عن : الفارابي « إن اللذين نقلت عنهم اللغة العربية هم : قيس وتميم وأسد ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ... » .

(٣) باختصار وبعض تصرف عن : تمام حسان : الأصول ص ٧٨ - ٨٠ .

(٤) فمن ذلك على سبيل المثال تحقيق الهمزات التي يخففها القرشيون . انظر في خصائص لهجة قريش : Rabin, Ancient west-arabian, P. 97 F.

أن تكون استفادتها من لهجة قريش أكثر من استفادتها بغيرها من اللهجات ، نظرا لتمتع أهل هذه اللهجة بمكانة ممتازة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

وستناول فيما يلي بعض القضايا الهامة التي تثار حول هذه اللغة المشتركة ، وحول أهم النصوص التي تمثلها ، ونعني بذلك « القرآن الكريم » ، وذلك على أساس أنه قد نزل ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ ، ونعني بذلك قضيتي « الإعراب » ، و« التعريب » ، وهما موضوع الفصل الثالث من هذا المدخل .

* * *

الفصل الثالث
من قضايا فقه اللغة العربية
المبحث الأول: قضية الإعراب

لقضية الإعراب جوانب عديدة ، منها : حقيقة الإعراب وأصالته ، وقيمته الدلالية ، وظاهرة الترادف والاشتراك في العلامات الإعرابية ، ومنها كونه سمة العربية الفصحى ـ سقوطه من لغة الكلام في اللهجات العامية ـ ، وسنحاول فيما يلي توضيح هذه الجوانب المختلفة :

حقيقة الإعراب

الإعراب في اللغة مصدر أعرب ، وهو مأخوذ من مادة عرب التي تدل ـ فيما يقول ابن فارس ـ على ثلاثة معان :

الأول : الإبانة والإفصاح كما في قوله ﷺ : « الثيب تعرب عن نفسها » .

الثاني : النشاط وطيب النفس ، كما في قوله عز وجل : ﴿ عربا وأترابا ﴾ .

الثالث : فساد في جسم أو عضو [1] ، كما في قولهم : عَرِبَتْ معدته ، أي فسدت .

ويرى ابن فارس أن إعراب الكلام (أي الإعراب بمعناه الاصطلاحي) يرجع إلى المعنى الأول « لأن بالإعراب يفرق بين المعاني

---

(١) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ٤/ ٢٩٩ .

في الفاعل والمفعول والنفي والتعجب والاستفهام ... فأما الأمة التي تسمى " العرب " فليس ببعيد أن يكون سميت عربا من هذا القياس ، لأن لسانها أعرب (أفصح) الألسنة ، وبيانها أجود الكلام » [١] .

وأجاز أبو الفتح بن جني أن يكون إعراب الكلام راجعا إلى المعنى الثالث ، عندما ذكر أنه « لما كانت معاني المُسَمَّيْن مختلفة ، كان الإعراب الدال عليها مختلفا أيضا ، وكأنه من قولهم " عَرِبَتْ معدته " أي فسدت ، كأنها استحالت من حال إلى حال ، كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة » [٢] ، وقد أجاز أبو الحسن الأشموني أن تكون صيغة « أفعل » هنا للسلب والإزالة [٣] ، ومن ثم يكون المعنى اللغوي لها : أزال عَرَب الشيء وفساده ، كما في قولهم : أعجمت الكتاب ، أي : أزلت عجمته ، وكأن إعراب الكلام يزيل الفساد الناجم عن الخلط بين المعاني النحوية في حالة عدم وجود الإعراب ، فالكلام بدون الإعراب يكون مشوشا وفاسدا ، والإعراب يزيل ذلك .

إن الإعراب بمعناه اللغوي - لا الاصطلاحي - الذي سنذكره بعد - هو المقصود في كلام الخليل بن أحمد ، عندما تحدث عن ألقاب الإعراب ، إذ لم يجعله قاصرا على الحركات الدالة على المعاني النحوية (حركات أواخر الكلم المعربة) ، وإنما عن الحركات عموما ، سواء في أوائل الكلمات أو أواسطها أو أواخرها ، يقول الخوارزمي في الفصل الذي عقده لـ « وجوه الإعراب ، وما يتبعها على مذهب الخليل بن أحمد » : « الرفع ما وقع في أعجاز الكلم منوناً ، نحو قولك " زيدٌ " ،

---

(١) السابق ٤/ ٣٠٠ .
(٢) الخصائص لابن جني ١/ ٣٧ .
(٣) انظر : شرح الأشموني ١/ ٣٩ .

والضم ما وقع في أعجاز الكلم غير منون ، نحو قولك " يَفْعَلُ " ، والتوجيه ما وقع (من الضم) في صدور الكلم ، نحو ضم عين " عُمر " وقاف " تُقم " ، والحشو ما وقع (من الضم) في الأوساط ، نحو ضم جيم " رجُل " ... إلخ " (١) ، وكأن الإعراب عنده يشمل الإبانة لجميع المصوتات (الحركات) أيا كان موقعها في الكلمة ، وأيا كان المعنى الذي تدل عليه صرفيا كان أو نحويا .

الإعراب اصطلاحا

للإعراب في الاصطلاح تعريفات عديدة ، نكتفي منها بما يلي :

تعريف ابن جني

الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ (٢) .

والمراد بالمعاني هنا المعاني النحوية ، سواء أكانت معاني إفرادية مثل الفاعلية والمفعولية ، أو تركيبية مثل كون الكلام خبرا ، أو إنشاء ، تعجبا أو استفهاما إلى آخره ، أما المراد بالألفاظ فهو ألفاظ العلامات الإعرابية ، من نحو الضمة والفتحة والكسرة وألف المد وواوه وياؤه ... إلخ ، إما بوجود هذه العلامات إيجابا كما في الإعراب بالحركات أو الحروف ، أو سلبا كما في السكون الذي هو عدم الحركة كما في المضارع المجزوم الصحيح الآخر ، وكما في حذف النون في الأفعال الخمسة ، وينبغي

---

(١) ذكر الخوارزمي ثمانية عشر مصطلحا أخرى تشمل نواحي صرفية وصوتية ، كالإمالة ، والتفخيم ، وحركة التخلص من التقاء الساكنين ، وهذا كله ليس من الإعراب الاصطلاحي في شيء .
انظر هذه المصطلحات في : مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٣٠ .

(٢) الخصائص ١/ ٣٧ .

الإشارة إلى أن جزم المضارع يتحقق بوسائل متشابهة ، يجمعها تقصير الصيغة ، إما بحذف الحركة في المضارع الصحيح الآخر ، أو تقصيرها في المضارع المعتل (وهو ما يسميه النحاة العرب : حذف حرف العلة) ، أو بحذف النون في المضارع المسند إلى واو الجماعة أو ألف الاثنين أو ياء المخاطبة .

تعريف ابن يعيش

الإعراب هو الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها [١] .

وقوله لاختلاف أواخر الكلم يشمل حالتي إثبات الحركات وحذفها ، كما أن إشارته إلى تعاقب العوامل تفيد اختلاف الإعراب باختلاف موقع الكلمة أو وظيفتها في الجملة .

تعريف ابن مالك

زاد ابن مالك الأمر تفصيلا عندما عرف الإعراب بأنه :

ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أو سكون أو حذف [٢] .

---

(١) شرح المفصل ١/ ٧٣ ، وقد علل ابن يعيش لهذا الاختلاف بقوله : ألا ترى أنك لو قلت : ضرب زيد عمر - بالسكون من غير إعراب - ، لم يعلم الفاعل من المفعول ، ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه ، والمفعول بتأخره ، لضاق المذهب ولم يوجد في الكلام من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب .

(٢) شرح تسهيل الفوائد ١/ ١٩ ، وقد جاءت عبارة ابن مالك في التسهيل متنا لهذا الشرح .

وقد شرح ابن عقيل مراد ابن مالك من خلال أمثلة توضيحية ، فقال : إن قوله : من حركة أو حرف إلخ بيان لما ، والمراد بالحركة الفتحة والكسرة والضمة ، والمراد بالحرف هو الياء والألف والواو والنون ، في مثل : جاء أبوك والزيدان ، ورأيت الزيدين يضربون ، أما السكون في نحو : لم يضرب ، والحذف : لم يضربا ، ومقتضى العامل هنا قريب مما أطلق عليه ابن جني وابن يعيش « المعنى » ، والمراد « المعنى النحو » .

أصالة الإعراب

لقد أثبتت الدراسات السامية أن ظاهرة الإعراب ظاهرة قديمة جدا وأنها كانت من سمات اللغة السامية المشتركة ، بيد أن اللغات السامية المختلفة قد تباينت في درجة الاحتفاظ بالإعراب ، وأقرب أنواع الإعراب إلى الإعراب السامي القديم هو الإعراب في اللغة الأكادية ، حيث احتفظت هذه اللغة بحالات إعرابية ثلاث ، هي الرفع والنصب والجر ، ولم تعرب المضاف ولا الفعل المضارع ، وقد احتفظت اللغة الآرامية القديمة (آرامية النقوش) بهذا الإعراب أيضا ، ولكن المراحل التالية من الآرامية (الآرامية اليهودية والسوريانية والآرامية الحديثة) قد تخلت عن الإعراب تماما ، وفي مقابل ذلك فإن كلا من العبرية والحبشية قد احتفظت بحالة إعرابية واحدة ، هي حالة النصب [١] .

أما العربية الفصحى فإنها إلى جانب احتفاظها بالإعراب السامي القديم أضافت إعراب الفعل المضارع وإعراب المضاف ، ومن ثم يكون الإعراب بصورته الحالية من خصائص اللغة العربية الفصحى ، ولا

---

(١) انظر : فصول في فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب ص ٣٨٣ .

تشاركها الأكادية [١] إلا في جزء منه ، هو إعراب الاسم (عدا الأسماء المضافة) ، وتدل النقوش الأوجريتية التي اكتشفت مؤخرا أنها كانت مثل الأكادية ، تحتفظ بحالات الإعراب الثلاث (الرفع والنصب والجر)[٢] .

القيمة الدلالية للإعراب

لقد كثر الجدل بين الباحثين حول القيمة الدلالية لعلامات الإعراب ، وأثرها في الكشف عن المعنى النحوي ، فمنهم من ذهب إلى أنها مجرد وسيلة للإسراع في الكلام حال الوصل ، ومنهم من ذهب إلى أنها تفرق - في كثير من الحالات - بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، أي أن لها قيمة دلالية في الكشف عن المعنى النحوي .

وقبل أن نعرض لرأي القدامى والمحدثين حول هذه القضية ، يجدر بنا أولا أن نوضح المراد من المعنى النحوي ، الذي تكشف عنه علامات الإعراب أو ما يحل محلها .

المعنى النحوي

يستفاد من النصوص التي أوردها كل من ابن قتيبة ، وابن فارس ، أن معاني النحو تطلق فيراد بها أحد أمرين :

١ - المعاني النحوية للكلمات ، أي تلك الوظائف التي تنهض بها الألفاظ في الجملة أو التركيب ، وذلك ككون هذه الكلمة فاعلاً أو مفعولاً ، حالاً أو تمييزاً ، نعتاً أو توكيداً ... إلخ .

---

(١) انظر أمثلة ذلك الإعراب في الأكادية في النص الذي اقتبسناه من قوانين القصاص عند حمورابي ص ٥٢ .

(٢) انظر في ذلك : مقال الدكتور محمود حجازي عن اللغة الأوجريتية في مجلة علوم اللغة ، العدد ٩ ص ١٠ وما بعدها .

٢ - معاني الجمل أو الأساليب ، والتي تسمى أيضا معاني الكلام ككونه خبرا أو إنشاء (مثل التعجب أو الاستفهام ... إلخ) .

يقول ابن قتيبة مؤكدا هذه الوجهة : « ولها (للعرب) الإعراب الذي جعله الله وشيا لكلامها ، وحلية لنظامها ، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين ، فالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب ، ولو أن قائلا قال : هذا قاتلٌ أخي - بالتنوين - ، وقال آخر : هذا قاتلُ أخي - بالإضافة - لدل التنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قتله ... وقال رسول الله ﷺ : " لا يُقْتَلُ قرشي صبرا بعد اليوم " ، فمن رواه جزما أوجب ظاهر الكلام للقرشي ألا يقتل إن ارتد ، ولا يقتص منه إن قتل ، ومن رواه رفعا انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش أنه لا يرتد منهم أحد عن الإسلام ، فيستحق القتل ، أفما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين » (١) .

إن المعاني المشار إليها في الحديث الشريف هي من قبيل معاني الجمل ، لأن النهي من قبيل الإنشاء ، والنفي من قبيل الخبر ، وقد أكد ابن فارس الذي تحدث عن معان مشابهة ، كالتعجب والاستفهام ، ما ذهب إليه ابن قتيبة من اعتبار هذا الصنف من المعاني « معان نحوية » ، يقول رحمه الله : « وبه (وبالإعراب) يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا نعت من تأكيد » (٢) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٥ .
(٢) الصاحبي ص ٧٦ .

لقد وسع عبد القاهر الجرجاني بعد ذلك دائرة معاني النحو ، فجعلها تشمل :

أ - معاني الأبواب النحوية التي تنهض بها المفردات أو ما في حكمها من الجمل التي لها محل من الإعراب ، وذلك مثل الخبر والحال والفاعل .

ب - معاني الأدوات أو الحروف مثل : « ما - لا - إنَّ - إذا » ، ويلحق بذلك ويتصل به معاني حروف الجر .

ج - معاني الجمل والأساليب ، مثل معاني الشرط والاستفهام والنهي [١] ، وغير ذلك مما يطلق عليه معاني الكلام [٢] ، وقد أطلق الدكتور تمام حسان على هذا الصنف الأخير مصطلح « المعاني النحوية العامة » ، وعلى الصنف الأول « المعاني النحوية الخاصة » أو « معاني الأبواب المفردة » ، ومثل لها بالفاعلية والمفعولية والحالية [٣] .

إننا نستطيع في ضوء ما ذكره اللغويون والبلاغيون العرب ، أن نقسم الوحدات النحوية وفقا للمعاني التي تدل عليها إلى :

---

(١) انظر في النصوص الدالة على ذلك : دلائل الإعجاز ١٨١ ، ٤١٨ وما بعدها .

(٢) تناول ابن فارس معاني الكلام وجعلها عشرة ، هي : الخبر - الاستخبار (الاستفهام) - الأمر - النهي - الدعاء - الطلب - العرض - التخضيض - التمني - التعجب .
انظر : الصاحبي ص ٢٩٨ .

(٣) انظر للدكتور تمام : العربية معناها ومبناها ص ٢٦ ، وقارن أيضا بص ١٨٧ من الكتاب المذكور .

١ ـ الوحدات النحوية الإفرادية

وهي تلك الوحدات الصغرى التي تدخل ضمن مكونات جملة ما بحيث تدل على معنى مستقل من معاني النحو ، وهي تنقسم بدورها إلى قسمين :

أ ـ ما دل على معنى نحوي ومعجمي معا ، ويمثله ما يسمى في الاصطلاح اللغوي الألفاظ الممتلئة ، مثل رجل ، وامرأة ، وجبل ، وفرس ، وغير ذلك من الألفاظ التي إذا سمعها ابن اللغة يحدث في ذهنه صورة لما تشير إليه في العالم الخارجي ، فإذا وقعت في جملة ما فإنها تعبر بحسب إعرابها على معنى من معاني النحو ، بالإضافة إلى دلالتها الوضعية .

ب ـ ما دل على معنى نحوي فقط ، وهو ما يطلق عليه « الكلمات الفارغة » ، أي تلك التي لا تحدث في الذهن صورة مقابلة لها في العالم الخارجي ، ويمكن أن نطلق عليها « الألفاظ النحوية » ، نظرا لاقتصار إفادتها على الجانب النحوي ، ويمثل هذا الصنف في اللغة العربية ما يعرف بحروف المعاني ، مثل أدوات العطف والشرط والاستفهام وحروف الجر ... إلخ .

٢ ـ الوحدات النحوية التركيبية

وهي كل ما دل على معنى يوصف به التركيب أو الجملة بأسرها ، وذلك مثل الاستفهام أو الأمر أو الإخبار [١] إلخ .

---

(١) انظر في تفصيل ذلك : كتابنا « دلالة السياق ص ٢٢٨ - ٢٣٥ .

علامات الإعراب بين التماس الخفة وأمن اللبس

ذهب جمهور النحاة إلى أن علامات الإعراب تنبيء عن المعاني النحوية كالفاعلية والمفعولية وأن وظيفتها الأساسية هي رفع اللبس والتمييز بين المعاني النحوية المحتملة في التركيب الواحد ، يقول الزجاجي موضحا موقف الجمهور من هذه القضية :

فإن قال قائل : قد ذكرت أن الإعراب داخل عقب الكلام فما الذي دعا إليه واحتيج إليه من أجله ؟ .

فالجواب أن يقال : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها ، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها تنبيء عن هذه المعاني فقالوا : ضرب زيد عمراً فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد على أن الفعل لما لم يسم فاعله وأن المفعول قد ناب منابه ... وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة الى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعاني ، هذا قول جميع النحويين إلا أبا علي قطربا فإنه قد عاب عليهم هذا الإعتلال .. » [1] .

ومن تأمل هذا النص يتضح أن علامات الإعراب إنما دخلت الكلام للتمييز بين الوظائف النحوية في الأسماء التي ليس في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني ، وهذه نقطة في غاية الأهمية حيث يشير ذلك بوضوح إلى أن من الأسماء ما تتضح وظيفته من خلال صورها

---

(١) الأشباه والنظائر ١/ ٧٨ .

(الصرفية) وأبنيتها الدلالية وهذا ما أجهد كثيرا من المحدثين إثباته [١] ، ويؤكد هذا الفهم لموقف النحاة ما ذكروه هنا في « ضُرِبَ زيدٌ » حيث ارتبطت الدلالة النحوية بأمرين معا : هما تغيير أول الفعل ورفع « زيدٌ » مما يعني أن الصيغة والإعراب كلاهما قد ساهم في الكشف عن المعنى النحوي ، وهذا الفهم لكلام النحاة يمكن أن يقودنا إلى حقيقتين هامتين أكدتهما الدراسات اللغوية الحديثة هما :

- أن الإعراب قد يكون الملمح النحوي المميز أو الأساسي إذا لم يكن في صور الكلمات وأبنيتها ما يدل على هذه المعاني .

- أن الإعراب قد يشترك مع غيره في الدلالة على المعاني النحوية كما في « ضُرِب زيدٌ » .

ومن هنا فإن القول بأن من رأى القدماء أن الإعراب وحده هو الذي يميز بين المعاني النحوية هو قول تنقصه الدقة إلى حد كبير وها هو ابن قتيبة الذي نسب اليه عموم القول بذلك [٢] يصرح بأن الإعراب يكون « فارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول لا يفرق بينهما ، إذا تساوت حالاهما في إسكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب » [٣] .

فقول ابن قتيبة « إذا تساوت حالاتهما في إمكان وقوع الفعل عليهما » دليل على أن الإعراب إنما يقوم وحده بوظيفة التمييز بين المعاني

---

(١) انظر على سبيل المثال المجموعة الأولى من الأفعال التي ذكرها الدكتور محمد البنا في مقاله عن « تحليل الجملة الفعلية » ص ١٠٠ وقارن ذلك بالبند « رابعا » ص ٩٠ من كتاب النحو والدلالة للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف .
(٢) انظر تحليل الجملة الفعلية ص ١٠٠ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٤ .

النحوية في هذه الحالة فقط أما في غيرها فقد يشترك معه ملامح أخرى أو تنفرد دونه بأداء هذه الوظيفة ، ومن الأمثلة التي ينفرد فيها الإعراب بذلك قول الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ ، إذ إن وجود الفتحة في لفظ « المسيح » هي التي حالت بين أن يكون معطوفا على لفظ الجلالة ومحضته لأن يكون معطوفا على المفعول به « أحبارهم » فإذا أضفنا إلى ذلك ما مثل به ابن قتيبة لأثر الإعراب في قوله ﷺ « لا يقتل قرشي صبرا » [١] بالرفع والجزم لعرفنا أن الإعراب وحده هو المسئول عن كون الجملة خبرا منفيا في حالة الرفع ، أو أن تكون إنشاءً من قبيل النهي في حالة الجزم .

رأي قطرب

ذهب قطرب إلى أن الكلام « لم يعرب للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض » وحجته في ذلك أنك « قد تجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة المعاني وأسماء مختلفة الإعراب متفقة المعاني فمما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك : إن زيداً أخوك ، ولعل زيداً أخوك ، وكأن زيداً أخوك ، اتفق إعرابه واختلف معناه . ومما اختلف إعرابه واتفق معناه قولك : ما زيد قائما وما زيد بقائم ... وجعل من ذلك قوله سبحانه : ﴿ إن الأمر كُلَّه لله ﴾ بالنصب ، ﴿ إن الأمر كُلُّه لله ﴾ بالرفع ، قرىء بالوجهين جميعا ، وبعد أن ذكر أمثلة عديدة من هذا القبيل قال : فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله » [٢] .

---

(١) السابق ص ١٥ وقارن بالمثال الذي أورده ابن جني في الخصائص ١ / ٣٥ .
(٢) الأشباه والنظائر ١ / ٧٨ ، ٧٩ .

أما تفسيره لوجود الإعراب واختلاف حركاته فقد عبر عنه بقوله : « وإنما أعربت العرب كلامها ، لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا ، لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل ، فكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت ولا بين أربعة أحرف متحركة لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون في كثرة الحروف المتحركة ويستعجلون وتذهب الصلة من كلامهم ، فجعلوا الحركة عقيب الإسكان » ، وأما عن إختلاف الحركات فقد علل له بقوله :

« لو فعلوا ذلك (أي الإلتزام بحركة واحدة) لضيقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع في الحركات ولم يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة » (١) .

وواضح من هذا أن قطربا كان يرى فيما يسمى بحركات الإعراب مجرد وسيلة للتخلص من ثقل الكلام في حالة الوصل وأن الإعراب ليس ملمحا نحويا ، وقد ردّ عليه الجمهور بأنه « لو كان الأمر كما ذكر لجاز جر الفاعل مرة ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام ، فأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير في ذلك وفي هذا إفساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظم كلامهم » (٢) .

---

(١) السابق ١/ ٧٩ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

إنه إذا كان رد الجمهور يحمل الطابع النظري فإن أحمد بن فارس قد رد على ذلك ونقده بدليل عملي يتمثل فيما ورد عن العرب من التزام الحركة الإعرابية المعنية في المواقع التي تقتضيها مما يدل على أن القوم كانوا يعرفون لهذه الحركات أثرها ، يقول عليه رحمة الله « والدليل على صحة هذا (الأمر) وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أظعان لليلى ‏ ‏ ‏ ‏ دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون »(١) .

إن ما ذكره ابن فارس متعلقا بقصيدة الحطيئة يجد له تأييداً قويا في أشعار أخرى جاهلية وإسلامية منها على سبيل المثال قصيدة لبيد التي مطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها ‏ ‏ ‏ ‏ بمنى تأبد غولها فرجامها

فهذه القصيدة التي بلغت سبعة وثمانين بيتا جاءت قوافيها كلها بالرفع ولو كان الغرض هنا مجرد حركة تعقب الإسكان لوردت أحيانا مرفوعة وأحيانا منصوبة أو مجرورة (٢) ، ونضيف إلى ما ذكره الجمهور وابن فارس أن الإعراب ليس دائما بالحركات وإنما يكون أحيانا بالحروف كالألف والنون في المثنى والواو والنون في جمع المذكر وثبوت النون

---

(١) الصاحبي ص ١٣ .

(٢) انظر قصيدة لبيد في شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٩١ - ١١٦ .

في رفع الأفعال الخمسة ، فأي حركة هنا أعقبت الإسكان ؟ وإذا ثبت أن هذا التفسير الذي قدمه قطرب لاختلاف علامات الإعراب لا ينطبق على كل حالاته ويتناقض مع الواقع اللغوي فلا بد من البحث عن تفسير آخر يتلاءم مع هذا الواقع ، وهنا لا نجد للاختلاف سببا غير أن هذه العلامات تكشف عن المعاني النحوية إما وحدها وإما مع غيرها من الملامح النحوية .

وفيما يتعلق بالشبهة التي أوردها قطرب متعلقة باختلاف المعاني مع اتفاق الحركة الإعرابية والعكس فقد رد عليه الجمهور بأن قالوا : « إنما كان أصل دخول الإعراب في الأسماء التي تذكر بعد الأفعال لأنه يذكر بعدها اسمان أحدهما فاعل والآخر مفعول به ، ومعناهما مختلف ، فجعل الفرق بينهما بالإعراب ثم جعل سائر الكلام على ذلك ، وأما الحروف التي ذكرها فمحمولة على الأفعال » (١) .

إن هذا الرد الذي تكفل به الجمهور يعتمد على افتراض تاريخي لا يمكن إثباته ومن ثم يتعين البحث عن تفسير آخر مقبول لما زعمه قطرب من اختلاف المعنى واتفاق الإعراب في الأمثلة التي ذكرها (إن زيداً أخوك - لعل زيداً أخوك - كأن زيداً أخوك) ونتساؤل أولا :

ما المعنى الذي اختلف هنا ؟ وما الإعراب الذي اتفق ؟ الذي اختلف هو معنى الجملة ، ففي المثال الأول جملة خبرية مؤكدة ، وفي المثال الثاني جملة إنشائية تفيد الرجاء ، وفي المثال الثالث جملة خبرية تشبيهية ، ويرجع إختلاف هذه المعاني التركيبية إلى اختلاف الأدوات ، وأما المعاني النحوية الإفرادية فإنها متفقة في الجمل الثلاث حيث إن

---

(١) الأشباه والنظائر ١/ ٧٦ .

« زيداً » في هذه الجمل هو المسند إليه مما يعني أن وظيفته النحوية واحدة والإعراب الدال على ذلك واحد أيضا ، وهنا نجد خلطا بين طائفتين من معاني النحو هما المعاني التركيبية والمعاني الإفرادية والقول بتميزهما يحل هذه الإشكالية القطربية ، ولو سلمنا بأن ذلك حاصل في بعض الأحيان (وهو يحدث بالفعل في أحيان عديدة) كأن يكون كل من المبتدأ والخبر والفاعل ونائبه مرفوعا وبالتالي تتفق العلامة الإعرابية وتختلف المعاني النحوية ، وقد يحدث العكس أيضا بأن يكون المعنى النحوي واحداً وتختلف العلامة الإعرابية الدالة عليه كما سيتضح من جدول الإعراب في اللغة العربية ، وكذلك جدول الإعراب في اللاتينية ، لو حدث ذلك لكان لذلك تفسيره الصحيح الذي يعتمد على واقع اللغة العربية من ناحية وعلى مقارنة حالات الإعراب في اللغات الأخرى من ناحية ثانية .

إن التفسير الصحيح لذلك هو أن علامات الإعراب رموز لغوية ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الرموز أو الوحدات اللغوية من قبولها لمبدأى الترادف والاشتراك وكلاهما من السمات المميزة للغات البشرية ، فكما أن هناك اشتراكا في « الألفاظ » أو الوحدات المعجمية ، واشتراكا في المورفيمات أو الوحدات الصرفية فإن علامات الإعراب (وهي وحدات صرفية أصلا) مما يقبل الاشتراك أيضا ، وما ينطبق على قبول الوحدات الصرفية للترادف ينطبق أيضا على علامات الإعراب .

إن هذه الحقيقة المتمثلة في قبول مبدأى الاشتراك والترادف في العلامات الإعرابية لا تنفرد بها اللغة العربية وانما تشاركها في ذلك كل اللغات التي تنتمي الى الفصيلة « المتطورة » من اللغات البشرية ونعني

بها الفصيلة التصريفية [١] يقول جون لاينز « إن كل نظرية تتعلق بالإعراب بصفة عامة ينبغي أن تراعى أمرين هما :

١ - أن نفس العلامة الإعرابية تحقق أكثر من وظيفة نحوية .

٢ - أن الوظيفة النحوية المعينة قد تتحقق من خلال أكثر من علامة إعرابية بطرق مختلفة في نفس اللغة ، ثم أردف قائلا : إن كلا هذين الأمرين يصلحان لوصف لغات عديدة داخل وخارج إطار فصيلة اللغات الهندية الأوربية [٢] .

الإشتراك والترادف في العلامات الإعرابية

بين العربية واللاتينية

لتأكيد المقولة السابقة وهي الإشتراك والترادف في العلامات الإعرابية ذكر « لاينز » حالات الإعراب الستة في اللغة اللاتينية ، ومن المعروف أن هذه الحالات ترتبط ارتباطا وثيقا بكل من الجنس والعدد إذ يراعى فيما يتعلق بالجنس إنقسام الأسماء إلى مؤنث ومذكر ومحايد ، أما العدد فإنه ينقسم إلى مفرد وجمع ولكل حالة إعرابية علامتها التي قد تختلف باختلاف هذين الأمرين (أي الجنس والعدد) ، كما يتضح من الجدول التالي [٣] :

---

(١) انظر في هذه الفصائل وخصائصها النحوية ، أسس علم اللغة لماريوباي ص ٥٦ .
وقارن بـ : يانسن Handbuch der linguistik , S. 431 .

(٢) لاينز G. Lyons , Einfuhrung , S. 297 .

(٣) اقتبسنا هذا الجدول عن المرجع السابق ص ٢٩٤ وقمنا بتحليله واستخلاص نتائجه وترجمة مصطلحاته ، أما الكلمات المختارة في الجدول فهي puella بمعنى « بنت » وتنتمي إلى طائفة الأسماء المؤنثة ، و lupus بمعنى « ذئب » وتنتمي إلى طائفة الأسماء المذكرة ، أما الكلمة الأخيرة فهي bellum بمعنى =

إعراب المفرد

الحالة الإعرابية	المؤنث	المذكر	المحايد
1 - Nominativ (حالة الفاعلية)	puella	lupus	bellum
2 - Vokativ (حالة النداء)	puella	lupe	bellum
3 - Akkusativ (حالة المفعولية)	puellam	lupum	bellum
4 - Genetiv (حالة الإضافة)	puellae	lupi	belli
5 - Dativ (حالة المفعولية غير المباشرة)	puellae	lupo	bello
6 - Ablativ (الآلية أو الوسيلة)	puella	lupo	bello

إعراب الجمع

الحالة الإعرابية	المؤنث	المذكر	المحايد
1 - Nominativ	puellae	lupi	bella
2 - Vokativ	puellae	lupi	bella
3 - Akkusativ	puellas	lupos	bella
4 - Genetiv	puellarum	luporum	bellorum
5 - Dativ	puellis	lupis	bellis
6 - Ablativ	puellis	lupis	bellis

من تأمل الجدول السابق يتضح أن :

١ ـ العلامة « um » تشترك في الدلالة على الحالات الإعرابية الآتية : الفاعلية والمفعولية والنداء في المفرد المذكر ، والمفعولية في المفرد المحايد وحالة الإضافة في الجمع مطلقا (مؤنثا أو مذكرا أو محايداً) .

== « حرب » فتنتمي إلى الجنس المحايد .

٢ - أن العلامة « a » تشترك في الدلالة على حالة الفاعلية والنداء في المفرد المؤنث والنداء والفاعلية والمفعولية في الجمع المحايد .

٣ - أن العلامة « ae » تشترك في الدلالة على حالة الإضافة والمفعولية غير المباشرة في المفرد المؤنث ، والفاعلية والنداء في جمع المؤنث .

٤ - أن العلامة (o) (الضمة الطويلة الممالة) تشترك في الدلالة على المفعولية المباشرة والآلية في المفرد المذكر وكذلك المحايد .

٥ - تشترك العلامة (i) (الكسرة الطويلة) في الدلالة على حالة الإضافة في المفرد مذكراً كان أو محايداً والفاعلية والنداء في جمع المذكر .

٦ - تشترك العلامة (is) في الدلالة على المفعولية غير المباشرة والآلية في الجمع بأنواعه الثلاثة .

أما العلامات التي انفردت بالدلالة على حالة إعرابية واحدة فهي :

١ - « am » للدلالة على حالة المفعولية للمفرد المؤنث .
٢ - « a » (ألف المد) للدلالة على حالة الآلية للمفرد المؤنث .
٣ - « as » للدلالة على حالة المفعولية للجمع المؤنث .
٤ - « us » للدلالة على حالة الفاعلية للمفرد المذكر .
٥ - « os » للدلالة على حالة المفعولية للجمع المذكر .
٦ - « e » للدلالة على حالة النداء للمفرد المذكر .

وخلاصة القول أن هناك ست علامات إعرابية تشير كل واحدة منها إلى أكثر من وحدة نحوية وأن هناك ست علامات أخرى تنفرد كل

منها بالدلالة على حالة واحدة [١] .

وفيما يتعلق بظاهرة الترادف وهو دلالة أكثر من علامة واحدة على نفس المعنى النحوي [٢] فيمكن استخلاصه من الجدول على النحو التالي :

١ - حالة الفاعلية يدل عليها بالعلامات : " ae " , " i " , " a " , " us " , " um " (وذلك بغض النظر عن الجنس والعدد) .

٢ - حالة النداء ويدل عليها بالعلامات : " ea " , " i " , " a " , " e " , " um " .

٣ - حالة المفعولية ويدل عليها بـ : " as " , " os " , " a " , " am " , " um " .

٤ - حالة الإضافة ويدل عليها بالعلامات : " i " , " um " , " ae " .

---

(١) هنا جانب آخر مهم للاشتراك في نفس العلامة سواء تلك التي تعددت وظائفها النحوية أو التي لم يلاحظ فيها ذلك وهو اشتراك نفس العلامة في الدلالة على معان صرفية بالإضافة إلى وظيفتها النحوية مثال ذلك أن العلامة « a » تدل على حالة الفاعلية وعلى الإفراد وعلى التأنيث (بالإضافة إلى دلالتها النحوية على المفعولية والفاعلية والنداء في الجمع المحايد) انظر الجدول .

(٢) يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن دلالة هذه العلامات « لا تعدو أن تكون دلالة لغوية محضة » وقد ترجم المصطلح syntactic ترجمة خاطئة عندما ذكر أنه يعني « دلالة لغوية » والصواب دلالة نحوية أو تركيبية ، وذكر أن هذه الدلالة لا تمت لمنطق عقلي أو دلالة عقلية ، وهذا صحيح فقط فيما يتعلق بتقسيم الجنس إلى مذكر ومؤنث ومحايد أما دلالة العلامات الإعرابية على الحالات أو المعاني النحوية فهو أمر اصطلاحي لم يقل أحد أن له علاقة بالعقل أو المنطق .
انظر : من أسرار اللغة ص ٢١٨ .

٥ - حالة المفعولية غير المباشرة ويدل عليها بالعلامات : , " is " " ae " , " o " .

٦ - حالة الآلية ويدل عليها بالعلامات : " a " , " o " , " is " .

وبهذا يتأكد أن ظاهرة الترادف أي دلالة أكثر من علامة على معنى نحوي واحد متحققة في اللاتينية كما في غيرها وليست العربية بدعا في ذلك ، وسيتضح من دراسة ظاهرتي الاشتراك والترادف في العلامات الإعرابية في اللغة العربية أن العربية واللاتينية وكلاهما من اللغات المتصرفة قد سلكتا نفس المسلك ، وهذا ما سنتناوله في الفقرة التالية .

الاشتراك والترادف في العلامات الإعرابية في الفصحى

تميز اللغة العربية الفصحى في إعراب الأسماء بين حالات ثلاث هي : « الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى (نحوي) فالرفع علم الفاعلية ... وكذلك النصب علم المفعولية .. والجر علم الإضافة » (١) ، وقد ذكر ابن يعيش « أنه لولا إرادة جعل كل واحد منها علما على معنى من معاني الاسم لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها » (٢) .

---

(١) المفصل للزمخشري (المنشور مع شرح ابن يعيش) ١ / ٧١ .

(٢) شرح المفصل ، وقد ذكر ابن يعيش أن بقية المرفوعات محمولة على الفاعل وذلك لأن الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الإعراب الكلام من حيث كان تكلف زيادة الإعراب إنما احتمل للفرق بين المعاني التي لولاها (أي لولا زيادة الإعراب) وقع لبس فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول اللذين يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلا ومفعولا ، ورفع المبتدأ والخبر لم يكن لأمر يخشى التباسه ، بلْ لضرب من الاستحسان والتشبيه بالفاعل من حيث كان كل واحد منهما مخبراً عنه (مسنداً إليه) وافتقار المبتدأ للخبر الذي بعده كافتقار الفاعل إلى الخبر (أي الفعل) الذي قبله ولذلك رفع المبتدأ والخبر ، وذهب سيبويه وابن ==

ولا يختلف الإعراب باختلاف الجنس في اللغة العربية إلا في حالة الجمع السالم ولكنه يختلف باختلاف العدد الذي ينقسم إلى مفرد ومثنى وجمع ، كما يختلف باختلاف قابلية الأسماء للصرف (التنوين) وعدم قابليتها لذلك ، وقد تختلف العلامات الإعرابية أيضا باختلاف نوع الاسم من حيث التمام والنقصان فإن الاسم إذا حذفت لامه وتضمن معنى الإضافة أعرب بالحروف وذلك كما في إعراب الأسماء الستة [١].

القيمة الدلالية للإعراب عند المحدثين من اللغويين العرب

يتفق جمهور المحدثين من اللغويين العرب مع جمهور العلماء القدامى ، في أن للإعراب قيمته الدلالية ، وأن لعلامات الإعراب أثرها في الدلالة على المعاني النحوية ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا نفر قليل ، ذهب بعضهم إلى أن لبعض العلامات قيمة دلالية ، ولبعضها الآخر قيمة صوتية هي التماس الخفة ، وذهب آخرون إلى تغليب الناحية الصوتية ، وأنها وحدها هي المسئولة عن تغير أواخر الكلمات ، وذهب فريق ثالث إلى أن هذه العلامات الإعرابية ذات قيمة جزئية في الدلالة على المعاني النحوية ، وسنوجز عرض هذه الآراء لتبين وجه الحق فيها ، ومدى اتفاقها أو اختلافها مع الحقائق اللغوية والتاريخية .

= السراج إلى أن المبتدأ والخبر هما الأول والأصل في استحقاق الرفع وغيرهما من المرفوعات محمول عليهما ... » وربما كان هذا الخلاف بين النحاة هو الذي جعل الدكتور إبراهيم مصطفى يفضل التسمية بـ « الإسناد » لأن كلا من الفاعل والمبتدأ مسند إليه والخبر والفعل مسندٌ، انظر إحياء النحو ص ١ .

(١) انظر في علة إعراب هذه الأسماء الستة (أبوك ، أخوك ، .. إلخ) شرح المفصل ١ / ٥١ ، ٥٢ .

١ - رأي إبراهيم مصطفى

يرى الدكتور إبراهيم مصطفى أن لبعض العلامات الإعرابية دلالة على المعنى النحوي ، وهي الضمة التي تدل على الإسناد ، والكسرة التي تدل على الإضافة ، أما الفتحة فإنها علم الخفة، كما ذهب أيضا إلى أن التنوين يدل على التنكير ، ونعى على النحاة العرب تضييقهم دائرة البحث النحوي ، بجعله مقصورا على الإعراب والبناء دون أن يبحثوا خصائص الكلام من التقديم والتأخير والنفي والاستفهام والتأكيد (١) .

إن هذا الرأي رغم أنه ليس بجديد ، إذ سبق إليه الزمخشري عندما قال ما خلاصته : « الرفع والنصب والجر ، كل واحد منها علم على معنى ، فالرفع علم الفاعلية وما ألحق بها ، وكذلك النصب علم المفعولية وما ألحق بها ، والجر علم الإضافة » (٢) ، قال ابن يعيش : « ولولا إرادة جعل كل واحد منها علما على معنى من هذه المعاني ، لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها » ، ونقل عن سيبويه وابن السراج : أن « المبتدأ والخبر هما الأول والأصل في استحقاق الرفع ، وغيرهما من المرفوعات محمول عليهما » (٣) ، وقد أراد إبراهيم مصطفى أن يجمع بين رأي كل من الزمخشري وسيبويه ، فجعل الرفع علما للإسناد ، حتى يشمل كلا من الفاعل والمبتدأ والخبر ، ثم إنه جعل النصب علامة على الخفة لا

---

(١) انظر : إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ص ٤٠ وما بعدها ، وقد خصص الشيخ محمد أحمد عرفة كتابه « النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة » للرد على المزاعم التي أوردها إبراهيم مصطفى في « إحياء النحو » ، كما رد عليه أيضا فضيلة الشيخ الخضر حسين في « دراسات في العربية وتاريخها » ص ١٨١ .

(٢) المفصل للزمخشري (المنشور متنا لشرح المفصل لابن يعيش) ١/ ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) شرح المفصل ١/ ٧٣ .

المفعولية ، ولكن أين علم الإسناد في : كان زيدٌ قائماً ، إن زيداً قائمٌ ، وظننت زيداً قائماً ، ما زيد بقائم .

إن تحديد معنى واحد للرفع أو النصب أو الجر يتنافى مع الحقيقة العلمية الثابتة ، وهو أن علامات الإعراب في اللغات المعربة تحقق أكثر من وظيفة نحوية ، وأن الوظيفة النحوية المعينة قد تتحقق من خلال أكثر من علامة إعرابية بطرق مختلفة في نفس اللغة ـ كما ذكر جون لاينز [١] ـ ، ولنا أيضا أن نتساءل عن حالة نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة ، والمثنى وجمع المذكر بالياء ، أين الخفة في هذا ؟ ، وأين الإضافة التي جعلت الكسرة علما عليها ؟ .

ويكفي للرد على ما زعمه إبراهيم مصطفى فيما يتعلق بتضييق دائرة البحث النحوي ، ما ذكره ابن جني في تعريفه النحو بأنه : انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير ، والإضافة والنسب والتركيب ، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة [٢] ، وهذا لا ينفي بالطبع أن متأخري النحاة قد وجهوا جل عنايتهم إلى معاني النحو الإفرادية ، تاركين المعاني النحوية التركيبية لعلماء البلاغة ، وإذا ساغ الفصل بين الأمرين فإنما هو لأغراض تعليمية بحتة .

---

(١) G. Lyons, Einführun in die theoritikal Linguistiks, S. 267 .

(٢) الخصائص ١/ ٣٤ ، وانظر أيضا : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، الذي جعل من التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإضمار والإظهار ، معاني نحوية .

٢- رأي إبراهيم أنيس

أعاد الدكتور إبراهيم أنيس مقولة قطرب وصاغها على النحو الآتي : « لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعاني في أذهان العرب القدماء كما يزعم النحاة ، بل لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض » (١) .

أما اختلاف الحركات في أواخر الكلمات فإنه يرجع إلى أحد عاملين : طبيعة الصوت ، أو انسجام الحركات مع ما يكتنفها من حركات أخرى .

ولتوضيح هذا الرأي ذكر أن ما سمي بالكلمات المعربة يخضع في تحريك أواخره لنظام توالي المقاطع ، ونظام توالي الحروف ، ويدعو هذا النظام إلى تحرك أواخرها في غالب الأحيان ، ولكنها قد تبقى دون حركة في آخرها في القليل من الأحيان ، وذلك حين لا يتطلب نظام المقاطع وجود حركة في آخرها (٢) .

أما الإعراب بالحروف كما في المثنى وجمع المذكر السالم ، فذهب إلى أنه من تلفيق النحاة ، ففي حالة المثنى مثلا التزمت بعض القبائل بالألف في جميع الحالات ، وقبائل أخرى التزمت بالياء في جميع الحالات ، فجعل النحاة من الاستعمال الأول حالة الرفع ، ومن الثاني حالتي النصب والجر ، يقول إبراهيم أنيس في تقرير ذلك : « ولا شك في أن القبيلة الواحدة كانت تلتزم صيغة واحدة من صيغ المثنى ، وأن النحاة حين هموا بوضع قواعدهم ، ووجدوا الصيغتين موزعتين بين

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢٣٧ .

(٢) السابق ص ٢٥٨ .

القبائل ، خصوا الصيغة التي بالألف لحالة الرفع ، والصيغة الأخرى لحالتي النصب والجر » (١) ، ثم ذكر نفس التفسير لاختلاف إعراب جمع المذكر السالم والأفعال الخمسة ، وفيما يتعلق بإعراب الأسماء الخمسة أو الستة (أب - أخ - فم - حم - ذو - هن) فقد ذهب إلى أن الأصل فيها أنها كانت مشددة الحرف الثاني ، أي : أبٌّ - أخٌّ إلى آخره ، وأن هذا التضعيف قد سهل تحت تأثير عامل المخالفة ، بأن جعلت إحدى البائين (في أبّ مثلا) حرف مد ألفاً أو واواً أو ياءً ، ثم أردف قائلا : « وقد يسر النحاة أمر هذه الأسماء ، فحدثونا أن بعض العرب كانوا يلتزمون فيها الألف فيقولون : أباك ، أخاك ... إلخ في كل الحالات والمواضع » (٢) .

إن هذا الرزي لا يثبت أمام حقائق التاريخ اللغوي ، ولا يلبث أن يتهاوى أمام النظر العلمي الصحيح ، وقد تصدى له كثيرون من المحققين وأبطلوا حججه (٣) ، ونضيف إلى ذلك :

١ - أن متطلبات النظام المقطعي في اللغة العربية لا تتطلب كون الحركة مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة ، بل يكفي مجرد الحركة ليكون المقطع مفتوحا Open ، ومن ثم فإن هذا التطلب لا يفسر اختلاف حركات الإعراب من ضم وفتح وكسر ، أما الزعم بأن بعض الحروف

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢٧١ .

(٢) السابق ٢٧٤ .

(٣) انظر في الرد على هذه المزاعم : رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٣٨٥ ، صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص ١٢٤ ، ولعل أحدث وأشمل ما كتب عن ذلك بحث الدكتور محمد حسن جبل « أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في اللغة العربية » ، وهو منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة ، ص ١ - ٧٣ .

كانت تؤثر حركة بعينها ، كإيثار حروف الحلق للفتحة ، وإيثار الميم للضم مثلا ، أو تأثر الحركة بما يجاورها ، فهذا كله صحيح فيما يتعلق بحركة الإتباع ، أما حركة الإعراب فلا علاقة لها بذلك ، وإلا لوجدنا الباء في بعض النصوص مؤثرة للضم في جميع الحالات ، والحاء - مثلا - مؤثرة للفتح في كل حالاتها ، ولم يرد بهذا أي نص موثوق ، أو حتى غير موثوق ، يقول ابن فارس : والدليل على أن القوم قد تداولوا الإعراب أننا نستقرئ قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون [1] .

٢ - إن دعوى تلفيق النحاة لإعراب المثنى وغيره مما يعرب بالحركات ، فضلا عن كونها بدون دليل ، لأن أحدا لم ينقل إلينا أن بعض القبائل كانت تلتزم بالياء ، ولو حدث ذلك لنقلوه كما نقلوا إلينا أن قبيلة بني الحارث بن كعب وغيرها كانت تلتزم بالألف في المثنى في جميع حالاته ، ولاقتصار هؤلاء على الألف في جميع حالات المثنى تفسير آخر يختلف تماما عما ذكره الدكتور أنيس ، وهو أن هؤلاء المستعربين قد تأثروا بلغتهم الأولى الحميرية (العربية الجنوبية) التي كانت تستخدم الألف والنون علامة على التعريف ، وقد استصحبوا معهم هذه العادة اللغوية بعد أن اتخذوا من عربية الشمال لسانا لهم ، ثم انتقلت هذه

---

(١) الصاحبي ص ١٣ .

العادة منهم إلى غيرهم ممن جاورهم من العرب الشماليين [١] .

٣ - إن تفسير اختلاف إعراب الأسماء الستة لا يمكن أن يكون صحيحا ، إذ لم ينقل عن أحد أن كلمة « ذو » نطقت مضعفة ، ثم إن حركة المخالفة (ألف المد) التي التزمت بها إحدى القبائل لم يقابلها جعل هذه الحركة واو أو ياء في قبائل أخرى ، ثم لماذا اقتصرت هذه المخالفة على « أب - أخ ... إلخ » ، ولم نجدها في يد ودم وغير ذلك من الأسماء الثنائية .

٢- رأي تمام حسان

يرى الدكتور تمام حسان أن الكشف عن العلاقات التي تربط بين معاني الأبواب النحوية (أي المعاني الإفرادية) ، مثل الفاعلية والمفعولية ، هي الغاية من الإعراب ، ويمكن التفسير الصحيح لهذه العلاقات في ضوء مجموعة القرائن المقالية والمقامية ، وقرائن المقال إما معنوية مثل الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية ، وإما لفظية ، وتحت هذه الأخيرة يندرج الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم ، وذكر أننا لكي نكشف أن « زيدا » هو الفاعل في مثل « ضرب زيدا عمرا » فإنه تتوفر لدينا القرائن الآتية :

١ - قرينة الصيغة	من حيث إنه ينتمي إلى مبني الاسم .
٢ - قرينة الإعراب	لكونه مرفوعا .
٣ - قرينة الإسناد	المتمثلة في العلاقة بينه وبين الفعل .
٤ - قرينة الرتبة	حيث إنه ينتمي إلى مرتبة التأخر من الفعل .

(١) انظر في هذا بحثنا عن « العربية والاستعراب » ، وهو منشور ضمن الكتاب التكريمي للأستاذ ف . فيشر ص ٤٦ .

٥ - قرينة الصيغة في الفعل   من حيث كونه مبنيا للمعلوم وليس للمجهول .

٦ - قرينة المطابقة   المتمثلة في أن الفعل معه مسند للمفرد الغائب .

٧ - قرينة الرتبة - مرة أخرى -   وهو كونه متقدما على المفعول به وهذه رتبة غير محفوظة .

وبسبب كل هذه القرائن نصل إلى أن زيدا هو الفاعل ، وهذه القرائن المتضافرة هي التي تكشف عن المعنى النحوي ، وقد رتب على القول بتضافر القرائن مجموعة من النتائج ، أهمها :

أ - إلغاء نظرية العامل باعتباره خرافة لا أساس لها ، وتقديم بديل لها يتمثل في القرائن المذكورة .

ب - لا تعدو العلامة الإعرابية أن تكون واحدة فقط من قرائن كثيرة تفيد في الكشف عن المعنى النحوي .

ج - قد يتضح المعنى بدون إحدى هذه القرائن ، فيمكن حينئذ الترخص فيها بحذفها ، وهذا ينطبق على العلامة الإعرابية كما ينطبق على غيرها .

د - القول بالترخص في القرينة يفسر القليل والشاذ والنادر ، ويضع ذلك كله في إطار القاعدة [١] .

---

(١) انظر في رأي الدكتور تمام حسان مؤلفاته الآتية : العربية معناها ومبناها ، النحو العربي بين النظرية والتطبيق (مجلة المناهل المغربية ، العدد ٧/ ١٩٧٦) ، التمهيد في اكتساب اللغة العربية (مكة المكرمة ١٤٠٨هـ) ، درجات الصواب والخطأ اللغوي (ضمن مقالات في اللغة والأدب - مكة المكرمة ١٤٠٩هـ) ==

إن دعوى الاستغناء بالقرائن المتضافرة عن العوامل لا يفسر بحال اختلاف العلامات الإعرابية باختلاف المواقع ، أو - فلنقل - الوظائف النحوية التي تشغلها الكلمات في الجمل العربية ، كما أنه لا يمكن التسليم بأن تضافر القرائن هو المسئول عن ترخص العرب في ترك العلامة الإعرابية ، وإلا لكان لسائل أن يسأل : أليس لنا أن نترخص في ترك الإعراب كما كانوا يترخصون ؟ ، أي إذا فهم المعنى بدون هذه العلامة ، وليس بمغن فتيلا أن يقول الدكتور تمام حسان بأن العرب كانوا يترخصون لأنهم أصحاب سليقة ، أما نحن فلا [١] ، ذلك لأن الإعراب وإن كان قرينة تدل على المعنى النحوي ، إلا أنه قرينة أساسية وليس من القرائن الفائضة Redumdant ، ويكون الملمح فائضا إذا فقد صفته التمييزية أو الفارقة ، وهذا يقودنا إلى الحديث عن :

الملامح النحوية البديلة للإعراب

في كل اللغات المعربة توجد مجموعة من الملامح النحوية التي تُعَرَّفُ بأنها وحدات التركيب النحوي التي لا تدل على معنى في ذاتها ، ولكن يؤدي تغيّرها إلى تغير المعنى النحوي ، وهذه الملامح وإن لم تكن ذات معنى مستقل ، إلا أن لها وظيفة هامة في الجملة ، تتمثل في الإشارة إلى المعنى النحوي والكشف عنه ، ومن ثم تحديد هذه الوحدة النحوية أو تلك ، وقد يقوم بهذه المهمة أكثر من ملمح واحد في الجملة الواحدة ، بمعنى أنها تعمل مفردة ومتضافرة - وليست متضافرة فقط - للكشف عن المعاني النحوية بأنواعها المختلفة [٢] .

== وأخيرا البيان في روائع القرآن (دار الفكر - القاهرة ١٩٩٣م) .

(١) انظر : مقالات في اللغة والأدب ص ٧٤ .

(٢) انظر : كتابنا « دلالة السياق » ص ١٩٥ ، وقد ذكرنا هناك ملامح : الترتيب ==

وفي اللغـة الإعرابيـة يعد الإعـراب هو الملمح الأسـاسي الكاشف عن المعنى النحوي ، فإذا تعذر ظهـوره لسبب من الأسباب ، حلت محله ملامح بديلة قـد تتضافر معاً ، وقد تنفـرد إحداهن بالكشف عن المعنى ، وقد كـان أبو الفتح ابن جـني رائـدا فـي هـذا الميدان - كـما فـي غـيره - عندما قال : « الإعـراب : هو الإبانة عن المعاني بالألفـاظ ، ألا تـرى أنك إذا سـمعت " أكـرم سـعيد أباه " ، و" شكر سـعـيـدا أبوه " علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ، ولو كان الكلام شرجا واحدا لاستبهم أحدهمـا من صاحبـه .. فإن قلت فـقد تقول : " ضـرب يحيى بشرى " ، فـلا تجد إعـرابا فاصلا وكـذلك نحوه ، قيـل : إذا اتفق ما هذه سبيله مما يخـفى في اللفظ حـاله ألزم الكلام من تقـديم الفـاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقام بيـان الإعراب ، فإن كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى ، وقع التصرف فيه بالتقديم والتـأخير نحو : " أكل كمثرى يحيى " لك أن تقدم وأن تؤخـر كـيف شئت ، وكـذلك : " ضربت هذا هـذه " ، و" كلم هذا هذه " ، وكذلك إن وضح الغـرض بالتثنية والجـمع جاز لك التصرف ، نحو قولك : " أكرم اليحييان البشريين " ، و" ضرب البشريين اليحيون " ، وكذلك لو أومأت إلى رجل وفـرس فقلت : " كلم هذا هذا فلم يجبـه " جعلت الفاعـل والمفعول أيهـما شئت ، لأن في الحـال بيانا لما تعني ، وكـذلك قولك : " ولدت هـذه هذه " من حيث كـانت حـال الأم من البنت معـروفة غير منكـورة ، وكذلك إن ألحـقت الكـلام ضربا من الإتبـاع جاز لك التصرف لما تلحق من البيـان نحو : " ضرب يحيى نَفْسَه بشرى " ... »(١) .

== والصيـغة والاختـيار والأداء ، وهي الملامح التي ذكـر بلومفيلد أنـها تكشـف عن معاني النحو في الإنجليزية ، وذكرنا أمثلة لذلك من العربية أيضـا .

(١) الخصائص ١/ ٣٧ .

من هذا النص الذي تَفَـرَّدَ به ابن جني (١) ، نستطيع أن نستخلص الحقائق الآتية :

أولا : الإعــراب هو الملمـح الأسـاسـي في الكشف عـن المعـانـي النحوية ، وهو بذلك ينتمي إلى ما يـعرف في علم اللغة الحديث بالملامح الفارقة ، التي لا يجـوز حذفها أو الاستـغناء عنها ، وليس من نوع الملامح أو القرائن الفـائضة (يعـد الملح فائضا إذا أمكن فـهم المعنى بدونه ، ومن ثم يفقد صفته التمييزية) .

ثانيا : عند تعـذر الإعـراب فإن هنـاك ملامح نحـوية أخـرى تحل محله ، منها :

أ ـ التـرتيب ، أي التـزام تقديم الـفاعل وتأخـيـر المفـعول ، حـيث يستغنى بحفظ الرتبة التي هي أصلا غـير محفوظة عن الإعراب ، ويكون هذا الملمح أساسيا إذا تعذر الإعراب ، ولـم تكن ثمت قرائن أخرى حالية أو مقالية كـما في : ضرب موسى عيسى ، أو إذا عـرض للوحدة النحوية ما يجـعلها واجـبة التقـديم ، كأن يكون المفعـول به شرطا أو اسـتفهـاما ، حيث يتـحول بذلك من الأبواب ذات الرتب غير المحـفوظة إلى الصنف المحفوظ الرتبة ،كما في قـوله تعالى : ﴿ وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) أشار ابن يعيش تبعـا لابن جني إلى نحو من هذا عندمـا قال : « فإن قـيل فانت تقـول : ضرب هذا هذا ، وأكـرم عيـسى مـوسى ، قـيل : هذا شيء قادت إليـه الضرورة هنا لـتعذر ظهـور الإعراب فـيهمـا ، ولو ظهر الإعراب فـيهـما أو في أحدهما أو وُجِدَت قرينة معنوية أو لفظية جـاز الاتساع بالتقديم والتأخير ... » . شرح المفصل ١/ ٧٢ .

(٢) عرض ابن جني لهذه الحالة في باب « نقض المراتب » في الخصائص ٢/ ٣٨٣ .

ب ـ المطابقة ، اعتد ابن جني بالمطابقة ملمحا نحويا ، يحل محل الإعراب عند تعذر ظهوره ، وذكر لها صورتين : المطابقة في الجنس (التذكير والتأنيث) ، كما في : ضَرَبَتْ هذا هذه ، حيث نعلم من لحوق التاء للفعل أن الفاعل هو المؤنث ، والأخرى هي المطابقةفي العدد (التثنية أو الجمع) ، وهنا أصاب ابن جني في القاعدة وأخطأ في المثال ، لأن التمثيل يضرب البشريين البحيون ، لا يصلح هنا لوجود علامة إعراب المثنى والجمع ، والصواب أن يمثل بنحو قوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّو النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ، وذلك على لغة من يلحق الفعل علامة التثنية والجمع (لغة أكلوني البراغيث) .

ج ـ الإسناد (أو التعلق) ، ويتمثل هذا الملمح في لمح العلاقة الإسنادية بين الفعل والفاعل من ناحية ، والفعل والمفعول به من ناحية أخرى ، فالفعل أَكَلَ لا يسند إلا لما يقع منه الأكل ، أما الكمثرى فهي مما يقع الأكل عليها ـ لا منها ـ ، ومن ثم يكون يحيى هو الفاعل ، تأخر أو تقدم ، ومن ثم يكون المعنى المراد في عبارة ابن جني : « فإن كانت هناك دلالة من قبل المعنى » هو المعنى المعجمي للفعل ، من حيث صحة أو عدم صحة إسناده لما يلي ذلك الفعل .

د ـ السياق (الخارجي) أو دلالة الحال ، وهذا ملمح غير لغوي ، وقد ذكر له أبو الفتح مثالين ، يتمثل أحدهما في عملية الإيماء المصاحب للكلام ، والآخر في عنصر المشاهدة المتمثل في رؤية البنت والأم [١] .

---

(١) هناك ملامح نحوية أخرى بديلة لم يشر إليها ابن جني في هذا النص ، مثل ملمح الاختبار ، وملمح الصينة ، وملمح الأداء ، وقد تحدثنا عن هذه الملامح تفصيلا في كتابنا « دلالة السياق » ص ٢٣٥ - ٢٥١ ، فانظرها وأمثلتها هناك ، وقارن بـ « العربية معناها ومبناها ص ٢٢٤ .

الإعراب وتاريخ العربية

سبق أن ذكرنا أن الإعراب بمعنى الدلالة على المعاني النحوية ، كالفاعلية والمفعولية بالعلامات الإعرابية ، هو من الخصائص التي تتميز بها اللغات السامية ، ولقد احتفظت كل من اللغة العربية والأكادية بهذا الإعراب ، في وقت تخلت عنه كلية أو بصفة جزئية لغات سامية أخرى [١] .

ويعتبر الإعراب عند كثير من الباحثين هو الحد الفاصل بين مرحلتين متميزتين في تاريخ العربية ، ونعني بهما : العربية الفصحى في ثوبها القديم الذي ورثته عن اللغة السامية الأصلية ، والعربية الحديثة التي تفرعت إلى لهجات متعددة ، تخلى فيها الناس عن الإعراب في لغة الكلام العادي ، وقد اختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي سقط فيه الإعراب من الكلام ، كما اختلفوا في قيمة العلامة الإعرابية ، وأثرها في الدلالة على المعاني النحوية ، كما ذكرنا آنفا ، وسنناقش - بإيجاز - مسألة سقوط الإعراب من لغة الحياة اليومية فيما يلي :

متى سقط الإعراب من الكلام ؟

لقد ثار جدل بين المستشرقين حول الزمن الذي بدأت فيه الصورة الثانية للعربية (العربية الحديثة) في الظهور ، وقد لخص أستاذنا ف . فيشر الآراء حول هذه المسألة في مقدمة كتابه Handbuch der arabischen Dialekte; S. 15 في الاتجاهين التاليين :

---

(١) وذلك مثل اللغة الآرامية التي لا يلاحظ فيها أي أثر للإعراب بعد مرحلة الآرامية القديمة ، ومثل اللغة الحبشية التي احتفظت ببعض الحالات الإعرابية فقط .

١ ـ كانت العربية في عهد الرسول ﷺ سواء في الحضر أم في البادية تُنْطَقُ بدون إعراب كلغة حديث ، أما لغة الشعر وغيره من الألوان الأدبية فقد كانت لغة معربة يتوسل إليها بالتعليم ، وتختلف إلى حد ما عن لغة الحديث العادي ، ويمثل هذا الاتجاه من المستشرقين : أوجست فيشر ، كارل فولرز ، أنطون شبيتالر ، وهانزفير ، وحجتهم الرئيسية هي أن نظام الكتابة العربية قد أهمل كتابة الحركات القصيرة ، بل والطويلة أحيانا ، ولو كانت لغة الحديث لذلك العهد تلتزم بالحركات الإعرابية لظهرت هذه الحركات في الكتابة أيضا [١] .

٢ ـ كانت العربية في عصر الرسول ﷺ وبعد ذلك بعشرات السنين لغة معربة في الحديث العادي ، واللغة الأدبية على السواء ، ويمثل هذا الاتجاه كل من : ت . نولدكه ، و ي . فك ، ي . بلاو ، الذين يرون أن عدم كتابة الحركات الإعرابية ليس دليلا على عدم وجودها ، لأن الكتابة العربية لا تصور الكلمات كما تنطق في الوصل ، وإنما تنظر إلى صيغتها في حالة الوقف ، وهذا يتفق مع وجهة نظر اللغويين العرب ، الذين لم يَسِمُوا أي نص باللحن لعدم كتابة الحركات ، وإنما وسموا بالخطأ لغة الحديث التي تخلت عن هذه العلامات كما يقول نولدكه [٢] .

---

(١) انظر : A. Fischer; in ZDMG 59 (1905) S. 807 F.
K. Vollers; Volkssprache und Schriftsprache in Altarabien. S. 10 F.
A. Spitaler; in Bibliotéca Orientales, 10 (1953) S. 144 F.
H. Wehr; In ZDMG (1952) S. 179 .

(٢) انظر في هذه الآراء : T. Noldecke; neue Beitrage; S. 1 - 5 .
J. Fuck; Arabiya; S. 5 .
انظر : الترجمة العربية لكتاب فك ص ١٥ .
==

ويرى فيشر أن بداية سقوط الحركات الإعرابية من الكلام ربما رجعت إلى الفترة التي سجلت فيها النقوش النبطية (من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الأول بعده) [(١)] ، لأن كتابة الإعلام في هذه النقوش تدع مجالا لافتراض أن الحركات الإعرابية كانت قد فقدت وظيفتها إلى حد ما ، ثم تلاشت هذه الوظائف تماما في نهاية هذه الفترة [(٢)] .

ولكنه مع ذلك لا يرفض الاتجاه الثاني تماما ، ويرى أن انتشار العربية بعد حركة المد الإسلامي قد أفقدها كثيرا من خصائصها المميزة في الألفاظ والتراكيب .

ولا يتسع المقام الآن لدحض النظرية الأولى ، فقد تكفل بذلك أصحاب النظرية الثانية ، ونضيف إلى ذلك أن اختلاف كتابة الهمزة في النصوص القرآنية لا دلالة له إلا على اختلاف حركتها الإعرابية ، في نحو : « شركاؤهم ، شركاءهم ، شركائهم ... » ، كما أن كتابة الإعراب بالحروف أو بالحركات الطويلة (كما يسميها بعض الباحثين) في نحو : « أباهم ، أبوهم ، أبيهم ... » هي دليل قاطع على وجود الإعراب في وقت كتابة هذه النصوص .

ومما يدل دلالة أكيدة على أن الإعراب كان لا يزال مستخدما في

J. Blau; the emergance and linguistic Background of judeo-Arabic P. I. --

(١) انظر : في اللغة النبطية ص ٦١ .

(٢) ويعتمد هذا الرأي على ما كتبه ف. ديم عن النقوش النبطية وعلاقتها بالإعراب في العربية الفصحى في مجلة المستشرقين الألمان (ZDMG) العدد ١٢٣ (١٩٧٣) ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

لغة الحديث العادي بعد نزول القرآن بأكثر من قرنين من الزمان ، هو « أن اللغويين العرب لم يعتمدوا على الشعر والقرآن فقط ، بل اعتمدوا أيضا على لغة الأعراب الفصحاء ، وكان الإعراب من أهم السمات التي لاحظها اللغويون العرب عند رواتهم » [١] ، وكان هؤلاء الأعراب حتى عصر ابن جني (القرن الرابع) أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة ـ كما يقول ابن جني [٢] ـ .

لقد حاول ف . ديم W. Diem في مقالته عن النقوش النبطية ، وظاهرة الإعراب في الفصحى [٣] ، أن يثبت من جديد من خلال دراسته لكتابة الأعلام العربية في النقوش النبطية ، أن العربية كانت قد تخلت عن الإعراب منذ الفترة التي كتبت فيها هذه النقوش أو بعض منها على الأقل ، وتتلخص حجته في أن كتابة هذه الأعلام كانت تنتهي أحيانا بالواو ، وأحيانا بالألف ، وأحيانا بالياء ، ولما كان هذا الاختلاف في الكتابة لا يتطابق مع المعاني النحوية التي تؤديها هذه الكلمات ، أي أن الكلمة التي تكون في موقع رفع قد تأتي مختومة بالألف ، في الوقت الذي ننتظر أن تختتم بالواو ، وأيضا فإن المفعول به قد تأتي في آخره أحيانا واو ، وأحيانا ياء ، في الوقت الذي ينتظر فيه مجيء الألف [٤] ، وهذا في نظره دليل على ضعف الإحساس العام بقيمة العلامة الإعرابية في الدلالة على

---

(١) حجازي : علم اللغة العربية ص ٢٣٥ .

(٢) الخصائص جـ ٢ ص ٣٦ ، ومعنى عبارة ابن جني ، أن الأعراب الفصحاء على عهده كانوا يستنكرون أي خطأ في الإعراب ، أكثر من استنكارهم لمخالفة الصيغ الصرفية في بناء المفردات اللغوية . انظر : قصة الشجري مع ابن جني في نفس الموضع من الخصائص .

(٣) انظر : مجلة المستشرقين الألمان ZDMG العدد (١٢٣) (١٩٧٣م) ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

(٤) يلاحظ هنا أن الواو والألف والياء إنما تقابل الضمة والفتحة والكسرة .

المعنى ، مما أدى إلى سقوطها في النهاية .

وهذا الرأي واضح الخطأ والبطلان ، لأن الكتابة النبطية لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها تمثل لغة عربية خالصة ، أو لغة آرامية خالصة كما سبق ، وإنما هي لغة مختلطة امتزجت فيها العناصر العربية بالعناصر الآرامية ، ولا علاقة إطلاقا لكتابة أواخر الكلمات هذه بالإعراب في العربية ، وإنما كانت أواخر الكلمات في هذه اللغة تنتهي بالألف التي هي أداة التعريف في اللغة الآرامية ، ولكن هذه الألف كان يوقف عليها عند بعض بالواو ، وعند آخرين بالياء .

وعلى ذلك فإن كتابة هذه الأعلام إنما تعكس صورة للوقف عليها ، تختلف باختلاف القبيلة ، وربما أيضا باختلاف الزمن الذي سجل فيه النقش [١] .

ومما يؤيد هذا الرأي ويرجحه ، أننا نعلم أن قبيلة طيئ كانت تقطن المنطقة التي كان يعيش فيها هؤلاء النبط ، وكانت تستعمل اسم الموصول الذي كانوا يستعملونه ، ونعني بذلك « ذو » ، فإذا ذكر سيبويه [٢] أن بعض طيئ كان يقف بالياء على الكلمات المختومة بالألف ، وبعضهم كان يقف بالواو ، فإننا نستطيع على ضوء ذلك أن نفسر اختلاف كتابة الأعلام في اللغة النبطية [٣] .

---

(١) سبق أن ذكرنا أن الكتابة العربية لا تسجل الكلمات كما تنطق في حال الوصل ، وإنما تراعي حالة الوقف فقط كما أشار إلى ذلك نولدكه .

(٢) انظر : الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٧ س ١٩ (ط. بولاق) .

(٣) انظر : مقالتنا « اللغة النبطية .. مكانتها بين اللغات السامية وعلاقتها بقضية الإعراب في الفصحى » المنشورة في العدد الثاني من حولية كلية اللغة العربية ص ٥١٧ - ٥٣٩ .

المبحث الثاني
قضية التعريب بين التراث وعلم اللغة الحديث

لظاهرة التعريب أهمية قصوى ، لا لكونها قضية لغوية فحسب ، وإنما لكونها قضية ذات أبعاد دينية وحضارية أيضا [١] .

والتعريب في اللغة مصدر قولهم : عَرَّبْتَ اللفظ أي جعلته عربيا ، وهو مأخوذ من مادة (ع ر ب) التي تدل على الإبانة والإفصاح [٢] .

مفهوم التعريب (اصطلاحاً)

لقد أشار اللغويون العرب غالباً إلى مفهوم التعريب من خلال تناولهم للمصطلح « مُعَرَّب » ، ولا نلمح فيما ذكروه عن « التعريب » سوى إشارات قليلة أقرب إلى أن تكون توضيحاً لغوياً لمعنى اللفظ منها إلى أن تكون تحديداً اصطلاحيا له ، من ذلك على سبيل المثال ما ذكره الجوهري في الصحاح ، والخفاجي في مقدمة شفاء الغليل ، إذ يقول الجوهري : « تعريب الاسم الأعجمي : أن تتفوه به العرب على منهاجها » [٣] ، ويقول الخفاجي : « التعريب : نقل اللفظ من العجمية إلى العربية » [٤] .

ولا شك أن كلام الجوهري أقرب إلى طبيعة التعريب من كلام الخفاجي ، لأن مجرد نقل اللفظ إلى العربية لا يكفي لاعتباره مُعَرَّباً ، إذ قد يظل بعد النقل أعجمياً ، ولم يحدد العالمان العصر الذي يتم فيه التفوه

---

(١) انظر في ذلك : حولية كلية اللغة العربية بالمنصورة ، العدد ١١ ص ٥٦٣ .

(٢) انظر في المعاني الأخرى لهذه المادة ص ١١١ .

(٣) الصحاح ٤/ ١٧٩ .

(٤) شفاء الغليل ص ٣ .

أو النقل ، وهو أمر ذو بال في تحديد ما اعتبره العلماء « مُعَرَّباً » ، كما لم يشر الجوهري إلى المنهاج العربي المتبع في تعريب اللفظ ، وهو ما أولاه العلماء ـ خاصة سيبويه ـ أهمية قصوى في تقسيم الكلم الأعجمي عند نقله إلى العربية ، إذ ربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه ، ويبدو أن اهتمام فقهاء اللغة العرب بجمع الألفاظ المعربة واستقصائها ، وبيان أصولها ومعانيها ، كان أكثر من اهتمامهم بكيفية التعريب وتحديد ماهيته ، ومن ثم وجدنا تعريفات عديدة للمُعَرَّب (لا للتعريب) نشير إلى أهمها فيما يلي :

المعرب عند الجواليقي

عرّف أبو منصور الجواليقي بمفهوم « المعرّب » الذي اتخذ منه عنواناً لكتابه المشهور حول هذه الظاهرة عندما قال : « هو : ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي ، ونطق به القرآن المجيد ، وورد في أخبار الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها » [١] .

ونأخذ من تصور الجواليقي لمفهوم المعرب أن عملية التعريب لا تعدو أن تكون استعمال العرب الفصحاء للفظ منقول عن لغة أجنبية ، وهذه أول إشارة إلى النطاق الزمني [٢] ، الذي تنبغي مراعاته كي يُعتد

(١) المعرب ص ٥١ ، ت. شاكر .

(٢) لعل الجواليقي في تحديده لهذا النطاق الزمني للتعريب ـ وهو أمر تابعه فيه مجمع اللغة العربية في قراره الأول عن التعريب كما سيأتي ـ قد وقف عند نهاية عصر الاحتجاج ، وهو حوالي منتصف القرن الثاني الهجري ، وهذا أمر ـ كما يقول الدكتور جبل ـ يمنع أي تجديد في اللغة ، أو إضافة إلى ما كان فيها عند أواسط هذا القرن .

انظر : الاحتجاج بالشعر في اللغة ، للدكتور محمد حسن جبل ص ١٠٩ .

بتعريب اللفظ ، وفيما عدا ذلك لم يشر الجواليقي إلى نوع التغيير الذي يلحق اللفظ على المستويات اللغوية المختلفة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية .

المعرب عند الجمهور

نقل التهانوي رأي جمهور العلماء في مفهوم المُعَرَّب عندما قال : « المعرّب عند علماء العربية : لفظ وضعه غير العرب لمعنى وقد استعمله العرب بناء على ذلك الوضع » (١) ، وقد صاغ السيوطي هذا المفهوم بعبارة أخرى ، عندما ذكر أن المعرب : هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعان في غير لغتها (أي لغة العرب) (٢) ، ويلاحظ هنا عدم التقيد بنطاق زمني محدد ، كما يلاحظ عدم مراعاة التغيير في الكلمة الأعجمية ، أي أن الكلمة تكون معربة متى استعملها العرب في كلامهم ، وكأن الأمر مقصور على المعيار الدلالي وحده ، ويتمثل ذلك في مراعاة أن يكون اللفظ قد وضع لمعنى في لغة أخرى ، ثم استعمله العرب في ذلك المعنى بعينه .

المعرب عن ابن كمال باشا والخفاجي

أشار ابن كمال باشا في رسالته « تحقيق تعريب الكلمة الأعجمية » إلى أن استعمال العرب للفظ الأعجمي ليس كافياً ، كي نعده من « المعرّب » ، وإنما لا بد من إجراء نوع من التغيير الصوتي (بالإبدال أو الإلحاق) على اللفظ الأعجمي المستعمل ، حتى يحكم بتعريبه ، « وذلك أن العرب كما تستعمل الكلمة الأعجمية وتجعلها جزءا من الكلام بعد

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون ٤/ ٩٤٥ .

(٢) المزهر ١/ ٢٦٨ .

التعريب ، كذلك تستعملها وتجعلها جزءاً منه قبله » [١] .

وفحوى هذه العبارة أن الكلم الأعجمي الذي يستعمله العرب قسمان ، الأول : مُعَرَّب ، والآخر : غير مُعَرَّب [٢] ، والاستعمال الأول على ثلاثة أوجه ، والآخر على وجه واحد ، فجملة أقسام الكلمة الأعجمية المستعملة في كلام العرب أربعة ، فصلها ابن كمال باشا على الوجه الآتي :

القسم الأول : ما لم يتغير ولم يكن ملحقاً بأبنية كلامهم ، كخُرَاسان ، وهذا القسم غير مُعَرَّب (أي أنه يظل أعجمياً) .

القسم الثاني : ما لم يتغير ولكن كان ملحقاً بأبنية كلامهم ، كخُرَّم ، وهو من المعرّب .

القسم الثالث : ما تغير ولكنه لم يُلحَق ، مثل آجُرّ ، وهذا أيضاً من المعرّب .

القسم الرابع : ما تغير وألحق مثل دِرْهَم [٣] ، وهو من المعرب كذلك .

إن هذا التصور من ابن كمال باشا يجعل « للمعرّب » ، وبالتالي للتعريب مقياسين ، إذا وجدا أو أحدهما كان اللفظ معرّباً ، وإلا فهو أعجمي ، ويرجع هذان المقياسان معاً إلى الجانب الصوتي ، وهذان المقياسان هما :

---

(١) رسالتان في المعرب ص ٧٧ .

(٢) يتفق هذا مع ما ذكره الدكتور محمد حسن جبل ، من أن الأعجمي قد يكون معرباً أو غير معرب .
انظر : الاستدراك على المعاجم العربية ص ٤٥ .

(٣) ببعض تصرف عن : رسالتان في المعرب ص ٧٨ .

الأول : التغيير في الوحدات الصوتية للكلمة المعربة « بنوع تصرف من تبديل حرف أو تغيير حركة » [١] .

الآخر : الإلحاق بنية الألفاظ العربية ويقتضي هذا الإلحاق نوعاً من التغيير في البناء المقطعي للفظ المعرب ، ويكون ذلك بالحذف أو الزيادة أو نقل الحركة ، كما في دِرْهم التي غيرت بزيادة الهاء إلحاقاً له ببناء فِعْلَل ومثل بهرج الذي غير بحذف النون من أوله وأصله « نبهره » [٢] ، أما إذا ترك اللفظ على حاله دون تغيير في بنيته المقطعية فإنه « لا يكون من المعرب مع أنه يكون جزءاً من كلام العرب ، قال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول فقد جئنا خراسانا » [٣]

ويتفق ابن كمال باشا في هذه التقسيمات مع الخفاجي ، الذي قسم الكلم المنقول عن لغة أعجمية إلى أقسام أربعة ، عندما ذكر أن « منه ما لم يُغيَّر ولم يُلحَق بأبنيتهم كخراسان ، وما غير وألحق كخُرَّم ، وما غير ولم يلحق كآجُرّ ، وما لم يغير ووافق أبنيتهم (أي ألحق بها) » [٤] ، وقد ذكر الخفاجي أن النوع الأول يعد من التكلم بغير العربية [٥] ، وفي هذا نوع من التعسف ، لأن التعريب كما سنرى لا يقتصر على الجانب الصوتي ، وإنما له جوانب أخرى صرفية ونحوية ، تجعل مثل هذه الكلمات التي لم تتغير صوتياً أو مقطعياً مُعَرّبة أيضاً ، وكم كان سيبويه موفقاً عندما أشار

---

(١) رسالتان في المعرب ص ٧٨ .
(٢) السابق ٨٣ ، ١٣١ ، وقد ألحقوه ببناء فَعْلَل مثل سَلْهَب .
(٣) السابق ٨١ .
(٤) شفاء الغليل ص ١٠ .
(٥) السابق نفس الصفحة سطر ١٦ .

إلى هذه التقسيمات دون الحكم القاطع على بعضها بأنه معرب ، وبأن الآخر ليس كذلك ، ولم يعتد بالتغيير معياراً للحكم على تعريب الكلمة إلا في حالة واحدة ، هي أن تكون الكلمة الأعجمية مشتملة على حروف لا نظائر لها عند العرب ، وفي هذه الحالة يجب تغيير ما ليس للعرب بأقرب الحروف العربية إليه ، يقول في « الكتاب » :

« اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه .. وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم ، كان على بنائهم أو لم يكن نحو خراسان وخرّم والكُرْكُم » (١) .

ويتضح من ذلك أن سيبويه لا يشترط الإلحاق ، أو لا يعتد به مظهراً للتعريب ، كما أنه لا يوجب التغيير الصوتي إذا اتفقت حروف الكلمة الأعجمية مع الحروف العربية ، وإن كان هذا يحدث أحياناً إذ « ربما أبدلوا مكان الحرف الذي هو للعرب عربياً غيره » (٢) .

وفيما يتعلق بالمعيار الدلالي الذي نقله التهانوي عن الجمهور (علماء العربية) فإنه غير معتد به عند الخفاجي وابن كمال باشا ؛ إذ يقول الخفاجي : « قد يُعرّب لفظ ثم يستعمل في معنى آخر غير ما كان موضوعاً له » (٣) ، ويقول ابن كمال باشا عند حديثه عن الخُرَّم : « وأصل خرّم فارسي معرب ، وقال صدر الأفاضل : نَبْت به يشبه الشيب ـ أراد به

---

(١) الكتاب ٤/ ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٢) السابق ٣/ ٣٠٤ ، وقد نقل عن سيبويه جل الذين كتبوا عن المعرب كالجواليقي (المعرب ص ٦) ، وابن بري في حاشيته على معرب الجواليقي التي نشرها الدكتور السامرائي بعنوان : « في التعريب والمعرب » ص ٣٢ .

(٣) شفاء الغليل ص ٣ .

سراج القطرب -، وهذا المعنى مخصوص بلغة العرب ، ومن هنا يظهر أن الكلمة الأعجمية بعد تعريبها يجوز أن توضع لمعنى آخر غير معناها الأصلي ، وذلك لا ينافي كونها معربة باعتبار المعنى الأول » (١) .

التعريب والمعَرَّب عند المحدثين من اللغويين العرب

لم يخرج المحدثون من اللغويين العرب كثيراً عن مفهوم القدماء فيما يتعلق بمفهوم النعريب أو المعرب ، وقد صيغ هذا المفهوم بصورة أساسية في صورة قرارين أصدرهما مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نص الأول منهما على أن : « المُعَرَّب هو اللفظ الذي نقله العرب الذين يعتد بعربيتهم من لغة أعجمية واستعملوه في كلامهم » (٢) .

ولم يحدد هذا القرار العرب الذين يعتد بعربيتهم ، كما لم يشر إلى أي نوع من التغيير الذي يلحق الكلمة الأعجمية عند تعريبها ، وهو بهذا يتفق إلى حد كبير مع مفهوم الجواليقي الذي أشرنا إليه آنفاً ، ويبدو أن المقصود بالعرب الذين يعتد بعربيتهم هم أولئك الفصحاء الذين عاشوا حتى نهاية عصر الاحتجاج ؛ لأن هؤلاء هم الذين يوثق بعربيتهم ، يقول الخفاجي معقباً على كلام الجواليقي السابق : « والصحيح منه ما وقع في القرآن الكريم أو الحديث أو الشعر القديم أو كلام من يوثق بعربيته » (٣) .

---

(١) رسالتان في المعرب ص ٨٠ ، وانظر في معاني الخرم : أدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة ص ٥٤ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية ١/ ٣٠٢ .

(٣) الخفاجي : شفاء الغليل ص ٣ ، هذا وقد ناقش الدكتور محمد حسن جبل القدماء في هذا النطاق الزمني الذي وقفوا عنده ، وجعلوه حداً لا ينبغي تجاوزه ، وأوضح أن كثيرين لم يلتزموا به .
انظر : الاحتجاج بالشعر في اللغة ص ٧٨ ، ١٠٩ .

أما القرار الثاني الذي أصدره المجمع بشأن هذه الظاهرة فإنه يتناول التعريب ، وقد نص فيه على أن :

« التعريب : (هو) إدخال العرب في كلامها كلمة أعجمية بصورتها أو بتصرف فيها » ، وهو هنا لا يشير إلى عصر بعينه ، ولكنه يسوي بين الكلمة التي أصابها نوع من التغيير عند تعريبها ، وتلك التي ظلت دون تغيير ، وهو هنا متأثر بمذهب سيبويه فيما يتعلق بالإلحاق بأبنية الكلام العربي ، بيد أنه يتجاوزه فيما يتعلق بضرورة تغيير الحرف الذي ليس للعرب بحرف عربي قريب منه ، وكأنه بهذا يجيز نقل الحرف الأعجمي كما هو [1] ، وهذا الذي أجازه المجمع يخالف إجماع علماء العربية ، كما يجافي الذوق العربي ، ولهذا فقد لقي انتقادات شديدة من اللغويين الذين يغارون على الفصحى ، ويحرصون على بقائها محتفظة بطابعها الأصيل ، ومسلكها المتميز في تعريب الكلمات ، نذكر من هؤلاء الغُيُر الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لمعرب الجواليقي ، إذ يقول : « والقارئ لقرارات الأعلام التي أقرها المجمع يرى فيها معنى واحداً يجمعها ، وروحاً واحداً يسيطر عليها : الحرص على أن ينطق أبناء العربية بالأعلام التي ينقلون إلى لغتهم بالحروف التي ينطق بها أهلوها ، وقسر اللسان العربي على ارتضاخ لُكْنة أعجمية لا مثال لها في حروف العربية ، وتسجيل هذه الغرائب من الحروف برموز اصطلاحية تدخل على الرسم العربي » [2] .

---

(١) تأكدت هذه الشبهة في قرارات أخرى أصدرها المجمع في العدد الرابع من مجلته ص ١٨ - ٢٠ ، وقد استحدث المعجميون العرب رموزا كتابية لمجاراة النطق الأجنبي للأعلام .

(٢) مقدمة معرب الجواليقي ص ١٨ .

وقد حذا الدكتور سليمان العايد حذو الشيخ شاكر في نقده اللاذع لهذه القرارات ، ووصفها بأنها : « غير متلائمة مع روح العربية ، وأن في نقل الحرف الأعجمي كما هو لحناً أشد خطراً من اللحن في الإعراب ، لأن الثاني (أي اللحن في الإعراب) منتهاه خطأ في التعبير ، وأما الأول ففيه إحداث في اللغة وزيادة على ما وضعه أصحابها ، وهم أهل الفصاحة ، وأعلم بلغتهم من غيرهم ، مع ما فيه من خروج عما قرره أئمة اللغة في كل عصر ، وما ارتضاه أصحابها في كل مصر » (١) .

وممن عرف التعريب من اللغويين العرب في العصر الحديث أستاذنا فضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم نجا ، فلم يقيده بزمن محدد ، ولكنه رأى ضرورة الالتزام بالمنهاج العربي ، ويقتضي هذا الالتزام تغيير ما ليس من حروف العرب بعربي قريب منه ، كما يستلزم أيضا انسجام اللفظ المعرب مع أبنية الكلام العربي ، يقول ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ : « التعريب : نطق العرب بألفاظ ذات معنى في غير العربية على منهاج نطقهم في العربية » (٢) ، ونستنبط من هذا التعريف أن اللفظ إذا لم ينطق وفقا للمنهاج العربي ، فإنه يظل محتفظاً بطابعه الأجنبي ، ويكون من الأعجمي لا من المعرب ، وشتان ما هما .

لقد شاعت إلى جانب مصطلح « المعرَّب » مصطلحات أخرى قريبة أو مماثلة له في كتابات المحدثين (٣) ، منها : المقترض ـ الأعجمي ـ الدخيل ـ المولد ، وسنتناول ذلك ـ بإيجاز ـ قبل حديثنا عن المستويات التي يتحقق من خلالها تعريب اللفظ الأعجمي .

---

(١) مقدمة رسالتان في المعرب ص ١٦ .

(٢) فقه اللغة العربية ص ٧٧ .

(٣) ورد كثير من هذه المصطلحات في كتابات القدماء أيضاً .

المقترض : ورد هذا المصطلح عند الدكتور إبراهيم أنيس [١] ، ويقصد به اللفظ الذي أخذته لغة ما من لغة أخرى ، وهو بذلك أعم من المعرب ، وربما كان الدكتور أنيس متأثراً في هذه التسمية بالمصطلح الأجنبي (الانجليزي) Porrowing ، أو المصطلح الألماني Entlehnung ، وقد يلتقي مفهوم الاقتراض مع مفهوم التعريب إذا كانت اللغة العربية هي اللغة الآخذة ، مع مراعاة خضوع هذا اللفظ المقترض للمنهاج العربي ، فإذا لم يخضع لذلك أطلق عليه في هذه الحالة وصف « الأعجمي » ، ويرى الدكتور أنيس أن التفريق بين المعرب والأعجمي لم يلتزم به دائماً [٢] .

الأعجمي : ذكرنا في الفقرة السابقة أن الأعجمي هو اللفظ المأخوذ عن لغة أجنبية ولم يخضع لمقاييس الكلام العربي .

وسنرى عند حديثنا عن مستويات التعريب أنه لا يكاد يوجد لفظ استعملته العرب وهو أعجمي الأصل ، إلا وقد أُخضع للتغيير إن لم يكن على المستوى الصوتي ، فعلى غيره من المستويات الصرفية أو النحوية أو الدلالية .

الدخيل : جاء مصطلح الدخيل في عنوان كتابين ، هما : « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » للشهاب الخفاجي ، و« قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل » لابن فضل الله المحبي [٣] ،

---

(١) انظر : من أسرار اللغة ص ١٠٩ .

(٢) السابق ص ١٢٥ .

(٣) طبع كتاب الخفاجي بتصحيح الشيخ نصر الهوريني في المطبعة الأميرية ١٢٨٢هـ ثم بتحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي ١٣٧١هـ ، أما كتاب المحبي فلا يزال مخطوطا ، وقد حقق الجزء الأول منه في رسالتي ماجستير ، الأولى : ==

ويؤخذ من كلام الخفاجي في مقدمته أن المراد بالدخيل أمران : المعرّب ، وهو الذي عرّبه الفصحاء الذين يحتج بكلامهم ، والمولّد ، وهو الذي عرّبه المتأخرون ، يقول الخفاجي : « فما عرّبه المتأخرون يُعَدُّ مولّداً ، وكثيراً ما يقع مثله في كتب الحكمة والطب » ، وذكر أنه ضم في كتابه إليه (أي إلى المعرّب) قسم المولّد [١] ، وقد ذكر السيوطي أنه قد يتناسى هذا الفرق بين المعرّب والدخيل « فيطلق على المعرّب دخيل ، وكثيراً ما يقع ذلك في كتاب العين والجمهرة وغيرهما » [٢] ، وفحوى هذه العبارة أن الخليل وابن دريد وغيرهما لا يفرقون دائماً بين ما عرّبه الفصحاء في عصور الاحتجاج ، وما عرّبه المتأخرون .

وفي العصر الحديث فرّق الدكتور حسن ظاظا بين المعرّب والدخيل فذكر أن : « المعرّب : لفظ استعاره العرب الخلص في عصر الاحتجاج باللغة من أمة أخرى ، والدخيل : لفظ أخذته اللغة (العربية) من لغة أخرى في مرحلة من حياتها متأخرة عن عصور العرب الخلص الذين يحتج بلسانهم ، وتأتي الكلمة الدخيلة كما هي أو بتحريف طفيف في النطق » [٣] .

وواضح من هذين التعريفين أن الفارق بين المعرب والدخيل هو في مراعاة العصر الذي دخل فيه اللفظ إلى اللغة العربية ، وقد ذكر الدكتور ظاظا معياراً آخر للتفرقة بين المعرب والدخيل ، يتمثل في عنصر

= للدكتور عثمان محمود صيني في جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ ، والأخرى للدكتور أحمد عبد المجيد أبو غرارة في كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٨هـ ، ثم نشر كاملا في الرياض ١٤١٥هـ بتحقيق الدكتور عثمان محمود صيني .

(١) انظر : مقدمة شفاء الغليل ص ٢ وما بعدها . (٢) المزهر ١/ ٢٦٩ .

(٣) كلام العرب ص ٧٩ ، وعلى هذا فالدخيل عند الدكتور ظاظا يرادف ما عربه المولدون عند الخفاجي .

التغيير الذي يصيب الكلمة الأعجمية عند نقلها إلى العربية ، فإذا جاءت لفظة أجنبية وهُذِّبت من حيث لفظها ، بحيث أشبهت الأبنية العربية القحة في ميزانها الصرفي ، عُدّت من المعرّب ، أما إذا بقيت على وزن غريب على اللغة فهي من الدخيل « وهذا معيار مرجوح من وجهة نظره ، لأنه يؤدي إلى اعتبار الفِلّين من المعرب ، والآجر من الدخيل ، وليس الأمر كذلك » [١] .

إن الذي رآه الدكتور ظاظا مرجوحاً اعتقده الدكتور حلمي خليل راجحا ، فذكر أن « المعرب : لفظ مقترض من اللغات الأجنبية وضع في الصيغ والقوالب العربية ، والدخيل : لفظ دخل العربية من اللغات الأجنبية بلفظه أو بتحريف طفيف في نطقه » [٢] .

إن هذه التفرقة بين المعرب والدخيل سواء اعتمدت على المعيار الذي رجحه الدكتور ظاظا ، أم ذلك الذي اعتد به الدكتور حلمي خليل ، لا تستند إلى دليل لغوي أو منطقي ، كما لم يقل بها أحد من أئمة اللغة ، وقد كان الشهاب الخفاجي أقرب إلى الدقة العلمية عندما نظر إلى ما عربه المتقدمون والمتأخرون جميعاً على أنه من الدخيل ، وذلك بالنظر إلى أصله الذي أخذ عنه ، وقد نظر بعد ذلك إلى تلك الثروة اللغوية الدخيلة ، فإن كانت قد دخلت على أيدي العرب الفصحاء كانت من المعرب ، وإن كانت على إيدي المولدين عدت من المولد .

أما المعيار الآخر وهو « وضع اللفظ في الصيغ والقوالب العربية » أي الإلحاق بأبنية الكلام العربي ، فليس مما اعتد به القدماء ، لأن العرب

---

(١) كلام العرب ص ٧٩ ، والدخيل على هذا الأساس يرادف الأعجمي بالمعنى الذي ذكرناه آنفا .

(٢) المولد في العربية ص ٢٠٢ .

ربما ألحقوا اللفظ الأعجمي الأصل ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه ويبقى مع ذلك ، أي مع عدم إلحاقه معرَّباً ، لأن التعريب ربما كان قد تم على مستوى آخر من المستويات التي سنذكرها فيما بعد ، كأن يعرف بأداة التعريف العربية ، أو أن يُعْرَب كما تُعْرَب الألفاظ العربية .

وأيا ما كان الأمر فإن الكلمة تظل دخيلة سواء أعرِّبت من حيث صيغتها (ألحقت بأبنية الكلام العربي) ، أم عرِّبت على أي مستوى آخر من مستويات التعريب .

المولد : قد يرادف المولد المعرَّب كما ذكرنا [١] ، وخاصة عند الخفاجي ، الذي يرى أن ما عرّبه المتأخرون يعد مولداً ، ولكن المولد ليس مقصوراً على ما يعربه المتأخرون ، وإنما يشمل أيضاً تلك الصيغ والتعبيرات الي اشتقها المولّدون من أصول عربية فصيحة ، وقد قصر بعض الباحثين المولد على هذا النوع الأخير فقط (ولا مشاحة في الاصطلاح) .

يقول الدكتور محمد حسن جبل : « المولد من اللغة هو ما ابتكر من الألفاظ العربية بعد عصر الاحتجاج ، إما بلفظه (صورته الصوتية) ، أو بصيغته فقط ، أو بمعناه فقط ، أو كان عبارة أو استعمالاً » [٢] ، وقد نص على أن « المبتكر لكي يعد مولداً فلا بد أن يكون على صلة وثيقة بالمعنى العام لتركيبه .. فإذا كان مقطوع الصلة بتركيبه وبابه كان غريباً عن اللغة ، وقد يتمثل في الأعجمي معرباً أو غير معرب ، أو في العامي

---

(١) انظر ص ١٥٩ .

(٢) الاستدراك على المعاجم العربية ص ٤٥ ، وانظر في تعريف المولد : السيوطي : المزهر ١/ ٣٠٤ .

الغـريـب الأصل ، أو المجهـولـة » [١] ، ويرى الدكتـور حسن ظاظا أن المولد : « هو لفظ عربي البناء أعطى في اللغة الحديثة معنى مختلفاً عما كان العرب يعرفونه » [٢] ، وكأنه يقصر التوليد على المعنى أو التغيير الدلالي .

وقد جعل باحث آخر التعريب إحدى طرق ثلاث يتم بها التوليد ، ونسب ذلك إلى المحدثين ، وهو بهذا يتفق مع ما ذهب إليه الخفاجي .

وهذه الطرق الثلاث هي : التوليد والاشتقاق ونقل دلالة جديدة إلى لفظ قديم [٣] .

مستويات التعريب

تخضع كل لغات العالم لمجموعة من النظم الفرعية التي تتآلف فيما بينها لينشأ عنها نظام متكامل هو هذه اللغة المعينة أو تلك ، وهذه النظم - كما حددها اللغويون - هي النظام الصوتي ، والنظام الصرفي ، والنظام النحوي ، وأخيراً النظام الدلالي ، وتتمايز اللغات فيما بينها بحسب اختلافها في هذه النظم أو بعضها ، حيث إن لكل لغة خصائصها المميزة فيما يتعلق بهذه النظم في مجموعها ، وإن كان هذا لا يمنع أن تشترك لغتان أو أكثر في بعض عناصر هذا النظام الفرعي أو ذاك [٤] ، ولكنه لا يحدث إطلاقاً أن تتفق أكثر من لغة في كل هذا النظم ولا في أغلبها ، فإذا حدث أن احتاجت لغة من اللغات إلى استعارة ألفاظ من

---

(١) الاستدراك على المعاجم العربية ص ٤٥ .

(٢) كلام العرب ص ٧٩ .

(٣) المولد في العربية للدكتور حلمي خليل ص ١٨٨ .

(٤) مثال ذلك أن تشترك اللغات السامية مثلاً في احتواء نظمها الصوتية على أحرف الحلق والإطباق .

لغة أخرى ، فإن اللغة الآخذة تُخضع ما تأخذه لنظمها الخاصة بها أو لمعظمها ، بحيث تصبح هذه الألفاظ في النهاية خاضعة للنظام العام لتلك اللغة .

إن اللغة العربية تصلح نموذجاً لدراسة إخضاع الكلمات المستعارة لنهاج اللغة الآخذة ؛ إذ عندما تكلم الفصحاء بالألفاظ الأجنبية الأصل فإنهم تكلموا بها على منهاجهم ، أو وفقاً للنظام العام الذي تخضع له الألفاظ العربية ، وهذا الخضوع للنظام العربي ليس مقصوراً على الجانب الصوتي - كما توحي بذلك النظرة العجلى في كتاب سيبويه ومن نحا نحوه من اللغويين العرب - ، ولكنه يشمل إلى جانب ذلك الجوانب الصرفية والنحوية والدلالية ، وهذه الجوانب المختلفة التي يحدث فيها التعريب هي ما نطلق عليه « مستويات التعريب » ، وسنشير إليها - بإيجاز - فيما يلي :

التعريب على المستوى الصوتي

لقد أولى العلماء العرب هذا الجانب من التعريب جل عنايتهم ، وأفاضوا في الحديث عنه ، حتى ظن كثيرون أن التعريب يقتصر على هذا الجانب ، ولم ير التعريب إلا فيه ، وقد كان سيبويه رائد اللغويين العرب في الحديث عن هذه الناحية الصوتية في التعريب ، عندما قصر حديثه في الباب الذي عقده للتغيير الذي يحدث في الكلمة عند تعريبها ، وهو « باب ما أُعرِب من الأعجمية » (١) .

وقد حصر كلامه في هذا الباب على أمرين ، كلاهما يتعلق بالمستوى الصوتي :

---

(١) الكتاب ٤ / ٣٠٣ وما بعدها .

الأول : خضوع الكلمة المنقولة للنظام الصوتي للغة العربية ، بحيث إذا اشتمل اللفظ الأعجمي على وحدة صوتية [١] لا توجد ضمن وحدات النظام الصوتي للعربية ، فإن العرب كانوا يبدلونها وحدة أخرى قريبة منها مما يتضمنه النظام الصوتي للعربية ، مثال ذلك : الباء المهموسة التي كانوا يبدلونها مرة فاءً ، ومرة باء ، لأنها قريبة منهما ، يقول سيبويه : ويبدلون من الحرف الذي بين الباء والفاء ، الفاء نحو الفِرِنْد ، وربما أبدلوا الباء (المجهورة) لأنهما قريبتان جميعاً [٢] .

الآخر : إلحاق اللفظ بأبنية الكلام العربي ، ويعني ذلك خضوع الكلمة الأعجمية عند تعريبها للنظام المقطعي للغة العربية ، وليس المراد بالبناء هنا الوزن التصريفي الذي يبين الحروف الأصلية والزائدة ؛ لأن الراجح أن هذه الكلمات لا توزن « لتوقف الوزن على معرفة الأصلي والزائد ، وذلك لا يتحقق في الأعجمية » [٣] ، وإنما المراد توالي الحركات والسكنات ، وهو ما يعرف الآن بالنظام المقطعي ، ويعتمد هذا النظام في اللغة العربية على دعامتين ، إحداهما : ما تتيحه اللغة العربية من المقاطع [٤] ، والأخرى : علاقات التوارد المقطعي أو نظام تواليها [٥] ،

---

(١) التعبير هنا بالوحدة الصوتية أدق من التعبير بالحرف ، لأن الوحدات الصوتية أو الفونيمات كما تشمل الحروف تشمل أيضاً الحركات ، أي أنها تضم جانبي النظام الصوتي ، وهما : الصوامت والمصوتات ، وكلاهما مما يراعى في عملية التعريب .

(٢) الكتاب ٤/٣٠٦ .

(٣) الخفاجي : شفاء الغليل ص ٣ .

(٤) انظر في أنواع المقاطع التي تجيزها اللغة العربية : التجويد والأصوات للدكتور إبراهيم نجا ص ٢٧ ، أصوات اللغة العربية للدكتور عبد الغفار هلال ص ١١٨ ، والتجويد والأصوات اللغوية للدكتور عبد الحميد أبو سكين ص ١٢٠ .

(٥) انظر في نظام توالي المقاطع في اللغة العربية : في الأصوات اللغوية للدكتور ==

وفيما يتعلق بالدعامة الأولى فإن اللغة العربية على سبيل المثال لا تجيز أن يبدأ المقطع بصوتين صامتين ، ولا أن يختم بهما إلا في حالة التوقف ، وفيما يتعلق بالدعامة الثانية فإن اللغة العربية لا تجيز توالي أربع متحركات ، أي أربع مقاطع متماثلة من النوع الأول في الكلمة الواحدة وما يشبهها ، الذي يتكون من : صامت + مصوت قصير ، ولهذا فإنها لجأت إلى تسكين لام الفعل الماضي عند إسناده إلى ضمائر الرفع المتحركة في مثل ضَرَبْتُ ، وضَرَبْتَ ... إلخ ، فراراً من هذا التوالي المقطعي الذي يأنفه الذوق العربي .

لقد تحدث العلماء العرب عن الإلحاق بأبنية الكلام العربي ، على أساس أنه أمر أغلبي ، ولكنه اختياري ، قد يحدث ، وقد لا يحدث ، إذ ربما ـ كما يقول سيبويه ـ ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه ، وهذا ينصرف في نظرنا إلى الدعامة الثانية للنظام المقطعي ، أي ما يتعلق بتوالي المقاطع ، وقد ذهب بعض العلماء العرب إلى أن مراعاة هذه القاعدة لازم بحسب الأصل ، وإن كان غير لازم بحسب الورود والاستعمال [1] .

أما إذا تعلق الأمر بالدعامة الأولى للنظام المقطعي ـ ويكون ذلك إذا اشتملت الكلمة الأعجمية على مقطع أو مقاطع لا يجيزها النظام العربي ـ ، فإن التغيير يصبح لازما حتى تصبح الكلمة مكونة من مقاطع تسمح بها اللغة العربية ، وهذه نتيجة يمكن استنباطها بسهولة إذا أُمعن النظر في تلك الكلمات التي أوردتها كتب المعرب ، أو فيما تضمنته

== إبراهيم أنيس ص ١٦٨ ، وعلم الصوتيات للدكتورين عبد الله ربيع وعبد العزيز علام ص ٢٥٩ وما بعدها .

(١) شفاء الغليل ص ٦ .

المعاجم من الكلمات المعربة ، وقد أحس القدماء بهذا النوع من التعريب ، ولكنهم لم يفصلوا بينه وبين نظام توالي المقاطع ، والفرق بينهما شاسع ، حيث إن الإلحاق في النوع الأول لازم أصلاً واستعمالا . أما الثاني فإنه لازم بحسب الأصل فقط ، ولكن قد يرد في الاستعمال ما يخالفه كما قرر الخفاجي فيما رد به على من يزعم وقوع سيبويه في التناقض ونص عبارته : « فإن قلت في قوله في أول كلامه ربما ألحقوه وربما لم يلحقوه » ، وفي أثناءه « التغيير منه ما يطرد ، ومنه ما لا يطرد » ، وفي آخره « للتغيير الذي قد لزم » نوع تناف قلت : لا تنافي فإن الإلحاق والتغيير فيما يقتضيه لازم بحسب الأصل ، غير لازم بحسب الورود ، والاستعمال كما هو في كلماتهم العربية .. » [١] .

وتعقيبنا على ذلك أن التغيير لازم بحسب الأصل والاستعمال جميعاً ، إذا تعلق الأمر بوحدة صوتية ليست للعرب ، أو إذا كانت الكلمة المنقولة تتضمن نوعا من المقاطع لا تجيزه العربية ، وليس هذا التغيير بلازم إذا كان الحرف من حروف العرب ؛ إذ ربما أبدلوه عربياً غيره ، وربما لم يبدلوه ، كما أن الإلحاق ليس بلازم إذا تعلق الأمر بنظام توالي المقاطع لا بنظام تكونها .

ونكتفي هنا بإيراد مثال واحد مما ألحقوه بأبنية كلامهم ، لأنه يتضمن من المقاطع ما لا تجيزه العربية ، وهو كلمة « دِرْهم » التي ألحقوها بـ « هِجْرع » ، وقد أخذ العرب هذه الكلمة عن اللغة الفارسية التي أخذتها هي الأخرى عن اللفظ اليوناني « درَخْم DRAHM » [٢] ، يقول

---

(١) شفاء الغليل ص ٦ .

(٢) انظر في الأصل اليوناني : فرنكل S. Freankel, AFW. S. 191 .

الجوهري : « الدرهم فارسي معرب ، وكسر الهاء لغة » [١] ، وذكر ابن كمال باشا أن أصله في الفارسية « دِرَمْ » ، فغُيِّر بزيادة الهاء إلحاقا له بصيغة فِعْلَل .

هذا ما قالوه ، ولكن البحث اللغوي الحديث أثبت أن للكلمة في الفارسية صورتين ، إحداهما حديثة وهي « دْرَمْ » ـ بدال ساكنة ـ ، وليست مكسورة كما ذكر ابن كمال باشا [٢] ، والصورة الأخرى دْرَخْم كما قال فرنكل ، ويمكن تصوير الأولى مقطعيا على النحو الآتي : ص ص + ح + ص ، أما الثانية فصورتها ص ص + ح + ص ص [٣] ، وكلا هاتين الصورتين مما لا تجيزه اللغة العربية ، وعندما أرادوا نقل الكلمة كان لا بد من تغيير هذا المقطع ، فأضافوا كسرة بعد الدال ، ثم نقلوا حركة الراء إلى الصامت الذي بعدها ، ليفصلوا بين الصامتين الذي يختم بهما المقطع ؛ لأن ختم المقطع بصامتين لا تجيزه العربية أيضا إلا في حالة الوقف ، وهكذا تغيرت البنية المقطعية للكلمة لتصبح على النمط المألوف في نسبج المقطع العربي ، وقد نظر بعضهم إلى الصورة الحديثة في الفارسية وهي « دْرَم » ، فاعتقدوا زيادة الهاء للإلحاق ، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد أن هذه الهاء بدل من الخاء (أو ما يشبه الخاء x) (في الأصل القديم المأخوذ عن اليونانية) ، وهذا نوع من الإبدال غير المطرد ، ونستنتج من ذلك أن تعريب هذه الكلمة قد تم في العصر البهلوي ، حيث كانت الخاء أو ما يشبهها لا تزال موجودة في النطق

---

(١) الصحاح ٥/١٩١٨ .

(٢) رسالتان في المعرب ص ٧٩ .

(٣) يرمز بالرمز « ص » هنا للصامت ، وبالرمز « ح » للحركة ، أما الرمز « ص ص » فللصوتين الصامتين المتواليين ، وبالرمز « ح ح » للحركة الطويلة .

الفارسي [١] ، ولم تسقط هذه الخاء إلا في الفارسية الحديثة .

التعريب على المستوى الصرفي

لكل لغة نظامها الصرفي الخاص بها ، والمقصود بالنظام الصرفي هنا مجموعات من المعاني الصرفية المعبر عنها بوجدات لغوية تسمى المورفيمات Morphemes ، أو الوحدات الصرفية ، ومن المعاني المعبر عنها بهذه الوحدات ما يتعلق بالنوع (التذكير والتأنيث) ، والعدد (الإفراد والتثنية والجمع) ، والتعيين (التعريف والتنكير) ، والزمن (الماضي والمضارع) ، والحالة الفعلية (البناء للمعلوم أو المجهول) ، وغير ذلك من المعاني المعبر عنها بعلامات تلحق أصول الكلمات .

وتختلف الوحدات الصرفية من لغة لأخرى ، كما تختلف العلامات الدالة عليها في ماهيتها أو في مواضعها التي تلحق بها ، مثال ذلك أن اللغة الفارسية لا تملك وسيلة صرفية للتعبير عن النوع ، بخلاف العربية التي تميز المذكر عن المؤنث بعلامة خاصة تلحقها بالمؤنث ، وفي اللغة الآرامية توجد وسيلة صرفية للتعبير عن حالة التعريف ، هي إلحاق الألف بآخر الكلمة المعرَّفة ، وذلك بخالف اللغة العربية التي تستخدم الألف واللام (أو اللام فقط على رأي الخليل) للتعبير عن معنى التعريف ، وهي تلحق الأداة المعرفة بأول الكلمة ، وهكذا تتمايز اللغات في نظمها الصرفية .

---

(١) انظر في صورة هذه الكلمة في العصر البهلوي : جفري A. Jeffery Foreign, P. 130 ، ويطلق على الفارسية في هذا العصر اسم الفارسية الوسيطة ، أما النطق الذي أشار إليه ابن كمال باشا فقد كان سائدا إبان العصر الساساني ، وظلت موجودة حتى عم نور الإسلام ، ويطلق على الفارسية في هذا العصر اسم « الفارسية الحديثة » .

والسؤال الآن هو : كيف كان العرب يتصرفون عندما كانوا ينقلون كلمة من لغة تختلف في نظامها الصرفي عن العربية ؟ .

والجواب : أنهم كانوا يعربون هذه الكلمات صرفيا ، إما بإضافة العلامات العربية للألفاظ المنقولة من لغات ليس فيها علامات أصلاً ، أو كانوا يستبدلون بالعلامات الأجنبية علامات عربية ، وكانوا يلحقون هذه العلامات في نفس المواضع التي تشغلها في الكلمات العربية الأصيلة ، فإذا نقلوا الكلمة من الفارسية ، وأرادوا تأنيثها أو تثنيتها ، أضافوا إليها علامة التأنيث أو التثنية العربيتين ، نظراً لخلو الفارسية من مثل هذه العلامات ، وإذا أرادوا تعريف كلمة مأخوذة عن الآرامية ، حذفوا علامة التعريف الآرامية ، وهي الألف في آخر الكلمة ، لتحل محلها علامة التعريف العربية ، التي كانوا يلحقونها أول الكلمة . وقد أشار ابن جني إلى هذا النوع من التعريب ، لأن فيه قياساً على كلام العرب ، ومن ثم يصبح داخلاً في جملة الكلام العربي ، لأن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب كما يقول المازني [1] .

يقول أبو الفتح : « ويؤكد هذا عندك أن ما أُعْرِب من أجناس الأعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامها ، ألا تراهم يصرفون في العَلَم نحو : آجر وإبريسم ، وفرِنْد وفَيْرُوزج ، وجميع ما تدخله لام التعريف ، وذلك أنه لما دخلته اللام في نحو الديباج والفرِنْد والسِّهريز والآجُرّ أشبه أصول كلام العرب ، أعني النكرات ، فجرى في الصرف

---

(١) انظر : شرح تصريف المازني ١/ ١٨٠ ، وقد ذكر المازني أن هذا هو رأي الخليل وسيبويه ، وقد نقل ابن جني هذه العبارة في الخصائص ١/ ٣٥٧ منسوبة للمازني ، وكأنه لما ارتضى رأي الخليل وسيبويه صار له رأياً .

ومنعه مجراها » (١) .

ومن أمثلة المعرب على المستوى الصرفي مما استعاض العرب فيه بأداة التعريف العربية عن الأداة الأجنبية بعد حذفها ، كلمتا اليَمّ والطُّور ، فقد كانا في أصلهما الآرامي (٢) (السورياني) يَمَّـا ، وطوراَ ، بألف التعريف في آخر الكلمة ، ثم حذفت هذه الأداة من آخر الكلمة لتحل الألف واللام دلالة على التعريف ، كما هو متبع في سائر الألفاظ العربية ، فصارتا « اليَمّ ، والطُّور » .

لقد سبق الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام اللغويين المحدثين في معرفة التغيير الذي لحق بهاتين الكلمتين على المستوى الصرفي عندما قال ـ فيما ينقله عنه أبو حاتم الرازي ـ : « للعرب في كلامها علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه ، منهم إدخالهم الألف واللام في أول الاسم ، كما أدخلوا في الطور وحذفوا الألف التي في آخر الحرف (أي تلك التي تدل على التعريف) ، وهو في السوريانية طورا على حال واحد ، وكذلك اليم هو في السريانية يَمَّا ، فأدخلت العرب فيه الألف واللام وصرفته في جميع الإعراب على ما وصفت » (٣) .

إن السوريانية التي أشار إليها أبو عبيد في النص السابق ليست سوى لهجة آرامية انتشرت حول مدينة الرها التي اعتنق أهلها المسيحية ،

---

(١) الخصائص ١/ ٣٥٧ .

(٢) نقل الجواليقي عن ابن قتيبة أنهما معربان عن السوريانية (انظر : المعرب ص ٢٦٩ ، ٤٠٣) ، وانظر في أصل هاتين الكلمتين في الآرامية : جفري .A S-Freankel, AFW. وفرنكل ، Jeffery, Foreign. P. 206 , 293 S. 231 .

(٣) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ١/ ٧٧ .

ثم كرهوا أن يحتفظوا بالاسم القديم (الآراميون) ، لارتباط هذه التسمية بالعقائد الوثنية ، وقد أصبحت بمرور الوقت لغة أدبية ، وكانت هي اللغة السائدة في بلاد الشام إبان ظهور الإسلام (١) .

التعريب على المستوى النحوي

كما تختلف اللغات على المستويين الصوتي والصرفي ، فإنها تختلف أيضاً في نظامها النحوي ، ويعتمد النظام النحوي في أي لغة على إحدى وسيلتين ، الأولى : الدلالة على المعاني النحوية من نحو الفاعلية والمفعولية والحالية وغير ذلك بعلامات يطلق عليها علامات الإعراب ، والأخرى : بالتزام طريقة معينة في ترتيب الكلمات داخل الجمل ليحل التزام هذا الترتيب محل العلامات الإعرابية ، ومن المعروف أن اللغة العربية قد التزمت بالوسيلة الأولى إلا فيما تعذر فيه ظهور العلامات الإعرابية ، في نحو : ضرب موسى عيسى ، وفي هذه الحالة فإن في التزامهم تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يحل محل العلامة الإعرابية ، ولقد ورثت اللغة العربية نظامها الإعرابي المعروف عن اللغة السامية المشتركة التي انبثقت عنها سائر اللغات المعروفة ـ اصطلاحاً ـ باللغات السامية ، وفيما عدا العربية والأكادية والأجريتية فقد تخلت سائر اللغات السامية عن الإعراب بصورة كاملة أو جزئية (٢) ، وإضافة إلى الساميين

---

(١) انظر في العلاقة بين الآرامية والسوريانية : بروكلمان C. Brockelmann, Aramaische., S. 148 ، ويرى موسكاتي أن السوريانية هي أهم اللهجات الآرامية الشرقية ، انظر في بقية اللهجات الآرامية : موسكاتي S. Moscati, Introduction, P. 12 .

(٢) انظر في اختصاص العربية والأكادية بالإعراب الموروث : برجشتراسر : التطور النحوي ص ٧٥ .

الذين جاوروا العرب فقد احتك العرب كذلك بأمم تخلو لغاتهم من الإعراب أصلاً كالفرس ، أو في لغاتهم إعراب يختلف عن الإعراب في العربية كالرومان .

وفي كل الحالات السابقة فإن العرب الفصحاء عندما كانوا يقترضون ألفاظاً من اللغات التي تختلف عن العربية في نظامها الإعرابي ، أو لم يكن بها إعراب أصلاً يُعَرِّبون هذه الكلمات نحوياً ، بإخضاعها لأصول الإعراب وقواعده في اللغة العربية ، وكانوا على سبيل المثال يحذفون العلامات الإعرابية من الألفاظ اللاتينية ، مثل : us أو um في نهاية الكلمة ، لتحل محلها علامات الإعراب العربية ، أما اللغات التي لم يكن بها إعراب كالفارسية ، فإنهم كانوا يلحقون هذه الكلمات علامات الإعراب ، وكانوا يمنعونها من الصرف إذا كانت أعلاماً (١) ، وفي حالة اللغات السامية التي فقدت الإعراب ، مستعيضة عنه بوسائل أخرى للدلالة على المعاني النحوية ، فإنهم كانوا يعربون مثل هذه الكلمات نحوياً بتجريد أواخرها مما يعوق ظهور العلامات الإعرابية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك حذف الألف من آخر الكلمات الآرامية ، تلك الألف التي كانت تدل أصلاً على حالة التعريف ، ثم فقدت هذه الوظيفة في مرحلة متأخرة (٢) ، وبعد حذف هذه الألف يلزمونها الإعراب العربي رفعاً ونصباً وجراً ، وقد تنبه إلى هذه الحقيقة أبو عبيد القاسم بن سلام ، عندما قال بعد حديثه عن حذف الألف في

(١) انظر في إعراب مثل هذه الكلمات : « باب الأسماء الأعجمية » في كتاب سيبويه ٣/ ٢٣٤ .

(٢) انظر في وظيفة الألف في الآرامية (السوريانية) : بروكلمان C. Brockelmann, Syrisch Gr. S. 51 .

اليم والطور ، وإدخال أداة التعريف العربية عليهما : « ومن ذلك (أي ومن خصائص العربية) إلزامهم إياه الإعراب في كل وجه : في الرفع والنصب والخفض » [١] .

لقد أشار كل من أبي الفتح عثمان بن جني ، وجار الله الزمخشري إلى أن إخضاع الكلمة الأعجمية لقواعد الإعراب العربية ، يخرجها من إطار العجمي ويكسوها ثوب الكلمات العربية الأصيلة ، يقول ابن جني : « قال أبو علي : إذا قلت : طاب الخُشْكَنَانُ ، فهذا من كلام العرب ، لأنك بإعرابك إياه قد أدخلته في كلام العرب » [٢] .

والإعراب هنا ليس مقصوداً به التعريب ، وإنما الإعراب النحوي المعروف ، بدليل قوله بعد : « ألا ترى أنك تقول : طاب الخشكنانُ ، فتجعله من كلام العرب ، وإن لم تكن العرب تكلمت به ، فبرفعك إياه كرفعها صار لذلك محمولاً على كلامها ، ومنسوباً إلى لغتها » [٣] .

ويقول العلامة الزمخشري مؤكدا هذه الحقيقة ، وهي أن إجراء علامات الإعراب على الاسم الأعجمي يعتد به مظهراً للتعريب : « فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي ؟ قلت : إذا عُرِّب خرج من أن يكون عجمياً ، لأن معنى التعريب أن يجعل عربياً بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهاجه ، وإجرائه على أوجه الإعراب » [٤] .

إن هذه النصوص الثلاثة لأبي عبيد ، وابن جني ، والزمخشري ،

---

(١) عن كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ١/ ٧٧ .
(٢) الخصائص ١/ ٣٥٧ .
(٣) السابق ١/ ٣٥٩ .
(٤) تفسير الكشاف ٣/ ٥٠٧ .

تؤكد بما لا يدع مجالاً لأي شك أن من وسائل تعريب اللفظ الأعجمي إخضاعه نحوياً لعلامات الإعراب في العربية ، وهو ما أسميناه بـ « التعريب على المستوى النحوي » ، وينطبق هذا المعيار - كما ينطبق المعيار الصرفي - على جميع الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم مما قيل بتعريبه ، كما ينطبق كذلك على الألفاظ الأخرى التي وردت في اللغة ونسبت إلى أصول أعجمية (١) .

التعريب على المستوى الدلالي

الأصل في التعريب أن ينقل اللفظ إلى العربية ليستعمل في نفس المعنى الذي وضع له في لغته الأصلية ، ولكنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تضاف إلى هذا اللفظ معان لم تكن للفظ حال عجمته ، وهذا المعنى الجديد الذي أضيف إلى اللفظ وإن كان عربياً خالصاً ، إلا أنه لا يمنع من عده معرباً بحسب الوضع الأول ، ويمكن أن نعتبر هذه الإضافة الجديدة تعريباً لهذا اللفظ على المستوى الدلالي ، مثال ذلك لفظ « الخُرَّم » الذي يعني في الأصل العيش الواسع (٢) ، ثم استعمل بعد تعريبه في معنى نبات يشبه الشيب ، أي سراج القطرب ، يقول ابن كمال باشا :

---

(١) يقسم بعض الباحثين المعرب إلى قسمين ، أحدهما : معرب ورد في القرآن ، والآخر معرب ورد في اللغة ، ولعل مناط هذا التقسيم أن القسم الأخير لا اختلاف عليه بخلاف الأول ، انظر في ذلك : من تراث لغوي مفقود للدكتور أحمد علم الدين الجندي ص ١٣١ .

(٢) تعني هذه الكلمة في الأصل حالة الفرح والسرور والمنظر الجميل ، كما تعني الخضرة والطبيعة الجميلة ، وعلى ذلك فإن معنى العيش الواسع هو من المعاني المجازية للكلمة . انظر في ذلك : رسالتان في المعرب ص ٨٠ هـ ١ ، وقد اقتصر أدي شير في الألفاظ الفارسية المعربة ص ٥٤ على أنه بمعنى الناعم من العيش .

« ومن هنا ظهر أن الكلمة الأعجمية بعد تعريبها يجوز أن توضع لمعنى آخر غير معناها الأصلي ، وذلك لا ينافي كونها مُعَرّبة » .

ونقول في مثل هذه الحالة : إن في الكلمة أكثر من مظهر واحد من مظاهر التعريب ، فهي قد عُرِّبت أولاً على المستوى اللفظي (صوتياً كان ذلك أم صرفياً أم نحوياً) ، ثم عُرِّبت بعد ذلك على المستوى الدلالي بإضافة هذا المعنى العربي إلى معناها الأصلي ، ويمكن أن يعد من ذلك أيضاً لفظ الياسمين الذي عربه العرب أولاً في معنى الزهر المعروف ، ثم استعملوه بعد ذلك في معنى جديد ليس له في أصله الفارسي ، وهو النمط يطرح على الهودج ، وكذلك الوَرْد الذي عربوه أيضاً ليدل على نوع من الزهور ، ثم أضافوا إليه جعله اسماً للفرس وللأسد ، ويرى السيوطي أن اللفظ في الاستعمال الأول معرب أما في الثاني فإنه عربي ، وقد عقد لذلك فصلاً ترجمنه : فصل في ألفاظ مشهورة في الاستعمال لمعان وهي فيها مُعَرَّبة ، وهي عربية في معان أخر غير ما اشتهر على الألسنة ، ثم ذكر الياسمين والورد (١) .

ولا يستقيم ما ذكره السيوطي إذا كان هذا اللفظ مما ينتمي للغة واحدة ، إذ كيف يكون مرة معرباً ، أي أن له أصلاً أعجمياً ، ومرة عربياً ؟ أي له أصل في لغة العرب ، أما إذا كان هذا اللفظ مما توافقت فيه اللغات (٢) ، فهذا يعني أن له أصلاً في كلتا اللغتين ، وهذا أمر وارد ، بل ويحدث كثيراً خاصة في اللغات التي تنتمي إلى فصيلة لغوية واحدة ،

---

(١) المزهر ١/ ٢٨٤ .

(٢) انظر في توافق اللغات : الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ص ٣٠٥ ، حيث ذكر طائفة من الأسماء القائمة في لغتي الفرس والعرب على لفظ واحد ، وقارن بالمزهر ١/ ٢٦٦ .

وحينئذ يكون من المحتمل أن يستعمل لفظ واحد في لغتين لمعنيين مختلفين ، ثم تستعير إحدى اللغتين المعنى الذي ليس في لغتها ، ثم تضيفه إلى اللفظ نفسه ، وهذا هو الذي نسميه بالتعريب على المستوى الدلالي ، وبهذا يستقيم قول السيوطي ويصبح المقصود بكون اللفظ مُعَرَّباً في عبارته السابقة : « التعريب على هذا المستوى الدلالي ، وليس التعريب في المجالات الصوتية أو الصرفية أو النحوية » .

ومن أوضح أمثلة هذا النوع من التعريب في اللغات السامية أن لفظ « وثب » ، وهو لفظ سامي قديم توافقت فيه العربية والعبرية والآرامية والعربية الجنوبية (الحميرية) ، بيد أن معناه في العربية يختلف عن معناه في هذه اللغات ، حيث يدل في العربية على الانتقال من حالة الثبات إلى حالة الحركة ، أي القفز ، ولكنه يدل في اللغات الأخرى على عكس ذلك ، أي تغيير الحالة من الحركة إلى السكون ، أي الجلوس [١] ، ثم استعمل عرب الشمال هذا اللفظ في المعنى الذي كان يستعمله فيه عرب الجنوب ، مع الاحتفاظ بدلالة اللفظ على معناه الذي اختصت به العربية وهو القفز ، وقد ذكر ابن قتيبة في حديث النبي ﷺ : « أن عامر بن الطفيل أتاه فَوَثَّبَهُ وسادة ... إلخ » الحديث ، وقد عقب على هذا الاستعمال بقوله : وثَّبه وسادة أي فرَّشه إيّاها ، وأجلسه عليها ، والوِثاب: الفِراش بلغة حمير ، وهم يسمون الملك إذا كان لا يغزو مَوْثبانا ، يريدون أنه يطيل الجلوس ولا يغزو ، ويقولون للرجل ثِبْ ، أي اجلس [٢] .

---

(١) وكلا هذين المعنيين مأخوذ عن المعنى السامي القديم ، وهو تغيير الحالة مطلقاً ، ثم تخصص هذا المعنى فصار في العربية مخصوصاً بتغيير الحالة من السكون إلى الحركة ، وفي اللغات الأخرى على عكس ذلك .

(٢) غريب الحديث لابن قتيبة جـ ١ ص ٢٩٣ .

وقد روى ابن جني عن الأصمعي ما يفيد اختصاص هذا المعنى ، أي الوثوب في معنى الجلوس بلغة حمير ، فقال : « روينا عن الأصمعي أن رجلا من العرب (الشماليين) دخل على ملك ظفار ، فقال له الملك : ثِبْ ، وثِبْ - بالحميرية - : اجلس ، فوثب الرجل ، فاندقت رجلاه ، فضحك الملك وقال : ليست عندنا عَرَبِيَّتْ ، من دخل ظفار حمَّر - أي تكلم بكلام حمير - » (١) .

ثم أشار ابن جني إلى جواز تعريب هذه الكلمة وما أشبهها تعريباً دلالياً بأن يضاف إلى معناها المشهور في عربية الشمال هذا المعنى الجديد ، الذي لم يكن معروفاً لها إلا عند حمير ، فقال : « فإذا كان (ذلك) كذلك جاز جوازاً قريباً كثيراً أن يدخل من هذه اللغة في لغتنا ، وإن لم يكن لها فصاحتنا » (٢) .

ولا شك أن الذي دخل في لغتنا في هذه الحالة هو المعنى فقط ، أما اللفظ فهو مما توافقت فيه اللغات ، وقد اعتد ابن فارس بهذا النوع من التعريب عاملاً من عوامل اختلاف اللهجات العربية (٣) ، مما يوحي بأن هذا التعريب لم يكن عند جميع العرب في البداية ، ولكنه - كغيره من الظواهر اللهجية - كان خاصاً بطائفة من العرب ، يقول ابن فارس : « وهي (أي اللهجات) وإن كانت لقوم دون قوم ، لما انتشرت تعاورها كلٌّ » (٤) ، وتعني هذه العبارة الأخيرة أن التعريب على هذا المستوى

---

(١) الخصائص ٢/ ٢٨ ، وقد ذكر ابن فارس (الصاحبي ص ٣١) أن الرجل هو زيد ابن عبد الله بن درام .

(٢) السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الصاحبي ص ٣١ .

(٤) السابق ، نفس الصفحة .

الدلالي قد يبدأ به بعض العرب ، ثم ينتشر بعد ذلك مشكلاً عنصراً من عناصر اللغة المشتركة .

ومن أمثلة التعريب على هذا المستوى من اللغة الآرامية قولهم « الجُدَّاد » التي تعني في العربية « صغار الشجر » ، وجُدَّاد الطلح : صغاره ، وكل شيء تعقد بعضه في بعض من الخيوط وأغصان الشجر فهو جُدَّاد (١) ، وقد ذكر فرنكل أن هذه الكلمة بمعنى الخيوط مستعارة من معنى اللفظ الآرامي Guddada (٢) ، وقد سبق العلماء العرب إلى تسجيل ذلك عندما ذكروا أن لفظ الجداد في معنى « الخيوط المعقدة » من النبطي (أي الآرامي) ، وقد استعار العرب معنى ثالثاً للفظ من الفارسية ، وهو معنى « الخلقان من الثياب » (٣) ، فذكروا أنه معرب كُدَّاد بالفارسية .

إن التعريب على هذا المستوى الدلالي ليس مقصورا على لغات الفصيلة السامية ، وإنما قد يحدث أيضاً بين العربية والفارسية كما في المثال السابق (جداد) ، خلافا لابن فارس(٤) ، وكما في قولهم « إبريق » الذي يعني في العربية : السيف الشديد البريق ، وقد ورد بهذا المعنى في قول ابن أحمر الباهلي :

تَعَلَّق إبريقاً وأظهر جعبة ليهلك حَيًّا ذو زهاء وجامل

---

(١) الألفاظ المشتركة في العربية للدكتور أمين فاخر ص ١٤ .
(٢) فرنكل S. Freankel, Ar. Fw. S. 256 .
(٣) الألفاظ المشتركة ص ١٦٧ ، ولم يوافق ابن فارس من قال بتعريب هذا المعنى الأخير عن الفارسية ، وذكر أن معنى « الخلقان من الثياب » عربي أصيل ، وهو من الجد بمعنى القطع ، وذلك أنها تقطع قطعاً على استواء .
انظر : مقاييس اللغة ١/ ٤٠٩ .
(٤) انظر : الهامش السابق .

قال بعضهم : الإبريق : السيف ههنا ، سمي به لبريقه ، وقال غيره : الإبريق ههنا قوس فيه تلاميع ، وجارية إبريق : براقة الجسم [١] .

وإلى جانب هذا المعنى العربي للفظ ، فقد استعار العرب المعنى الفارسي لهذا اللفظ ، وهو معنى الإناء ، وجمعه أباريق ، وشاهده قول عدي بن زيد :

ودعا بالصبوح يوماً فجاءت قَيْنَةٌ في يمينها إبريق

قال كراع : هو الكوز ، وقال أبو حنيفة : « مرة هو الكوز ، ومرة هو مثل الكوز ، وهو في كل ذلك فارسي » [٢] .

ومن الأمثلة الأخرى لهذا النوع من التعريب الدلالي لفظا : البَرَق (فهو في معنى البُرُوق مصدر برق عربي ، وفي معنى الحَمَل معربٌ دلاليا عن الفارسية) ، والجَرْم فهو في معنى القطع العربي لفظاً ومعنى ، وفي معنى الحر فارسي معرب (دلاليا) [٣] .

إن هذا النوع من التعريب هو بحق المسئول في حالات كثيرة عن ظاهرة المشترك اللفظي في اللغة العربية ، كما يقول الدكتور أمين فاخر ، وقد دلت الأمثلة السابقة ـ وكثير غيرها ـ على صدق ما ذهب إليه [٤] .

إنه ليس من الضروري أن تعرب جميع الألفاظ على كل المستويات التي ذكرناها آنفا ، وإنما يكفي لإطلاق وصف التعريب أن

---

(١) الألفاظ المشتركة ص ٨٣ .

(٢) السابق ، نفس الصفحة ، وذكر السيوطي في المهذب (ت. الدكتور أبو سكين) أنها فارسية .

(٣) انظر في هذين اللفظين : الألفاظ المشتركة في العربية ص ٨٣ ، ١٧٧ .

(٤) انظر : الألفاظ المشتركة ص ١٣ .

تخضع لمقاييس الكلام العربي في أيٍّ من هذه المستويات ، فإذا لم تعرب كلمة ما على المستوى الصوتي مثلا بأن بقيت أصواتها دون تغيير ولم تلحق بأبنية كلام العرب (وهو ما يعتبره ابن كمال باشا وغيره أعجميا) وذلك كما في « خُراسان » مثلاً ، فإنها تكون معرَّبة على المستوى النحوي ، وهكذا فإن البيت الذي ساقه دليلاً على عجمتها هو نفسه الدليل على تعريبها (نحوياً) (١) ، ومن الوجهة الصرفية فإنها يمكن أن تثنى وتجمع وتلحق بها علامات التصغير والنسب ، وغير ذلك مما يجعلها معربة على المستوى الصرفي .

ليس في القرآن الكريم أعجمي

إن القول بتعدد مستويات التعريب وهو قول استخلصناه من أقوال أئمة العربية والتفسير ، كابن جني والرازي والزمخشري يؤدي بنا إلى نتيجة حتمية هي خلو القرآن تماما من أي لفظ أعجمي ، لأننا إذا استقصينا جميع الألفاظ التي قيل بأعجميتها في القرآن الكريم ، فسنجدها جميعاً قد خضعت للتعريب على المستوى النحوي ، إذ شملتها جميعاً أحكام الإعراب العربية من رفع ونصب وخفض ، وعلى المستوى الصرفي فإنها ـ عدا الأعلام ـ قد عربت صرفيا بأن لحقتها أداة التعريف العربية أحياناً ، ولحقتها أداة التنكير (التنوين) في أحيان أخرى ، فجرت بذلك مجرى أصول الكلم العربي ، كما أن منها ما لحقته علامات التثنية أو الجمع العربية ، وعلى المستوى الصوتي فإنها خضعت جميعاً للنظام

---

(١) هذا البيت هو :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

حيث وردت كلمة « خراسان » مرة مرفوعة وأخرى منصوبة ، وهي لا تعامل كذلك في أصلها الأعجمي .

الصوتي العربي ، فلم تتضمن إحداها وحدة صوتية ليست للعرب ، كما لم تبدأ كلمة أو تختم بمقطع لا يجيزه البناء المقطعي في اللغة العربية ، فليس فيها على سبيل المثال ما يبدأ بصوتين صامتين أو أكثر ، أو يختم بأكثر من صامت في غير حالة الوقف ، وهو ما نجده كثيراً في الكلمات الفارسية والآرامية .

إن اللفظ الأعجمي عند تعريبه قد يخضع لأكثر من نوع من أنواع التغيير التي يكفي واحد منها لكي يخلع رداء العجمى ، ويكتسي ثوب العروبة ، ومن ثم يصبح عربياً بالتجنس أو بالاستعمال ، وبهذا نستطيع القول بأنه ليس في القرآن ألفاظ أعجمية ، وإنما فيه ألفاظ عربية أصلاً واستعمالاً ، أو استعمالاً فقط ، وإن كان هذا لا يمنع بالطبع من النظر إلى هذه الألفاظ باعتبار أصلها بأن ينظر إليها من منظور تاريخي بحت ، بغض النظر عن صورتها الحاضرة التي اكتست فيها ثوب العروبة ، وأصبحت مُعَرَّبة بخضوعها لمقاييس الكلام العربي .

وبهذا تنحسم مشكلة الخلاف بين علماء العربية فيما يتعلق باحتواء القرآن الكريم على ألفاظ أعجمية ، وهذه مشكلة قديمة نستطيع الآن أن نفسرها من منظور لغوي يتبين منه أن علماء العربية من اللغويين والفقهاء والمفسرين قد سبقوا الدنيا بأسرها في تطبيق منهجين مختلفين في دراسة هذه القضية ، نعني بذلك المنهج التاريخي الذي يعني بمعرفة أصل الكلمات ومراحل تطورها وانتقالها من لغة لأخرى ، والمنهج الوصفي الذي يعني بدراسة حالة اللغة على ما هي عليه في زمن محدد ومكان معين لا يتجاوزهما (١) .

---

(١) انظر في الفرق بين هذين المنهجين : مناهج البحث في اللغة والمعاجم ، ==

وبهذا أيضا يندفع ما يزعمه بعض الباحثين المحدثين من أن المفسرين والفقهاء قد عالجوا القضية بناء على « مواقف مذهبية خارجة عن اللغة قد أوقعتهم في تعسف كبير » (١) .

إن القدماء من علماء العربية لم يتعسفوا وهم يبحثون هذه القضية وإنما الذي تعسف حقاً هم أولئك الذين تعجلوا في فهم منهج القدماء ، أو نقلوا عنهم من مصادر متأخرة دون الرجوع إلى المصادر الأصلية - وهي متيسرة الآن - التي سجلوا فيها آراءهم ، ومن ذلك على سبيل المثال أن المحدثين - أو كثير منهم - عند الحديث عن قضية المعرب في القرآن الكريم ينسبون للإمام الشافعي ﷺ أنه ينفي وقوع المعرب في القرآن الكريم ،والإمام الشافعي لم ينطق بذلك ، ولم يتحدث عن المعرب ، وإنما تحدث عن الأعجمي فقط ، وشتان ما هما ! .

يقول رحمه الله : « ومن جماع علم كتاب الله : العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب » (٢) ، وقد رد على من زعم أن في القرآن عربياً وأعجمياً بأن القرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب .. « ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظاً ،

= للدكتور هلال ص ١٥ - ٤٣ .

(١) صاحب هذا الزعم هو إبراهيم بن مراد في كتابه « دراسات في المعجم العربي » ص ١٧٦ ، ولا يعدو في زعمه هذا أن يكون بوقا يردد أقوال بعض المستشرقين من أمثال فرنكل وجفري وغيرهم .
وانظر زعما مماثلا للدكتور لويس عوض في « مقدمة في فقه اللغة العربية » ص ٦٥ ، وقد كفانا الدكتور عبد الغفار هلال في كتابه « أصل العرب ولغتهم » ص ٩٠ وما بعدها مؤونة الرد على هذا الزعم الباطل ، وانظر أيضا في الرد عليه : الدكتور أحمد علم الدين الجندي في كتابه : في القرآن والعربية ص ٢٢٨ .

(٢) الرسالة ص ٤٠ (الفقرة ١٢٧) .

ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجوداً فيها من يعرفه » (١) ، وقد ذهب ﷺ إلى أن من قَبِل اللسان العربي من غير العرب متبعاً للعرب في تعلمه منها ، فقد صار من أهل لسانها « وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها ، لا يذهب منه شيء عليها ولا يطلب عند غيرها ، ولا يعلمه إلا من قَبِلَه عنها ، ولا يشركها فيه إلا من اتبعها في تعلمه منها ، ومن قبله منها ، فهو من أهل لسانها ، وإنما صار غيرهم من غير أهله بتركه ، فإذا صار إليه صار من أهله » (٢) .

إنه إذا كان الشخص من العجم الذي يقبل لسان العرب ، يصبح من أهل ذلك اللسان ، فما بالنا باللفظ الذي يخضع لمقاييس الكلام العربي ، ويقبل ارتداء ثوب العروبة ، ألا يكون حينئذ من الكلام العربي ؟ وقديماً قال أبو عثمان المازني : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب (٣) .

إن جميع الألفاظ التي قيل إنها بلسان كذا أو بلسان كذا صارت جميعاً بلسان العرب ، لأنها قبلت مقاييس اللسان العربي ، وهذا كله حق لا مرية فيه ، خاصة إذا نظرنا إلى تلك الألفاظ وقد استعملت في كلام العرب وفقاً لما يسمى في الدراسات الحديثة بالمنهج الوصفي ، الذي يكتفي بالنظر في اللغة المعينة في زمان ومكان محددين ، دون مراعاة

---

(١) الرسالة ص ٤٢ .
(٢) السابق ص ٤٤ .
(٣) تصريف المازني ، المطبوع مع شرحه الموسوم « المنصف ، شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني » ، ت : إبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين ، جـ ١ ص ١٨٠ ، وقارن بابن جني : الخصائص ١/ ٣٥٩ .

للنواحي التاريخية أو المقارنة .

إننا لا نعدم بين علماء أصول الفقه من نظر في هذه القضية من الوجهة التاريخية أيضاً ، فرأوا أن بعض الألفاظ القرآنية ترجع إلى أصول أعجمية ، ولكنها أصبحت معربة بالنظر إلى صورتها التي وردت في القرآن الكريم ، وهنا كان حديثهم عن المعرب لا عن الأعجمي ، وكان رائدهم في ذلك الإمام الجليل سيدنا عبد الله بن العباس ﷺ ، يقول ابن الحاجب في مختصره : « في القرآن مُعَرَّب وهو عن ابن عباس وعكرمة ، ولنا (أي ومما يشهد لنا) المشكاة (في الأصل) هندية ، واستبرق وسجيل فارسية ، وقسطاس رومية » (١) .

وبعد أن ناقش الإصفهاني شارح المختصر هذه المسألة ، خلص إلى القول : « وما يوضح أن المعرب (وليس الأعجمي) واقع في القرآن إجماع أهل العربية على أن نحو إبراهيم منع من الصرف لوجود العلتين : المعرفة (أي العلمية) والعجمة ، فيكون معرّباً ، وهو واقع القرآن » (٢).

لقد لخص الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام هذا الخلاف بين وجهتي النظر ، وفسرها تفسيراً علمياً صحيحا عندما قال : « والاستبرق إنما هو استبره يعني الغليظ من الديباج ، وهكذا تفسيره في القرآن ، وقد صار هذا الحرف بالفارسية مع أحرف سواه ، وقد سمعت أبا عبيدة يقول : من زعم أن في القرآن ألسنا سوى العربية ، فقد أعظم على الله القول ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ ، وقد روى عن

---

(١) مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه (وقد طبع مع شرحه المسمى : بيان المختصر) ، ت : محمد مظهر بقا جـ ١ ص ٢١٦ .

(٢) بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب) ١/ ٢٣٩ .

مجاهد وعكرمة في أحرف كثيرة أنها من غير لسان العرب ، مثل : سجّيل ومشكاة ، قال أبو عبيد : فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره ، وكلاهما مصيب إن شاء الله ، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل (أي بالمنظور التاريخي) ، فقال أولئك على هذا الأصل ، ثم نطقت به العرب بألسنتها ، فَعَرَّبته فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحال (أي بالمنظور الوصفي) عجمية الأصل » (١) .

إن المرء ليدهش من هذه الدقة في تعبيرات العلماء ، فمجاهد وعكرمة لم يقولوا إن هذه الألفاظ بغير لسان العرب ، ولكنهم قالوا « من غير لسان العرب » ، أي أن مبتدأ هذه الألفاظ بغير لسان العرب ، أما أبو عبيدة فإنه - فيما سمعه منه أبو عبيد - لم ينف سوى أن في القرآن ألسناً سوى العربية ، لأن هذه الكلمات وأشباهها قد أصبحت بتعريبها جزءاً من لسان العرب ، وقد تأكد ما سمعه أبو عبيد من أستاذه أبي عبيدة بما سجله الأستاذ في « مجاز القرآن » ، فقال : « نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن طه بالنبطية فقد أكبر ، وقد يوافق اللفظ اللفظ ويقاربه ، ومعناهما واحد ، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها ، فمن ذلك " الاستبرق " بالعربية وهو الغليظ من الديباج ، وهو بالفارسية " استبره " » (٢) .

---

(١) غريب الحديث (الطبعة الهندية باعتناء محمد عظيم خان) جـ ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١٧ وما بعدها ، بتحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين ، وممن سار على منهج أبي عبيدة في تفسير هذه المسألة الإمام محمد بن جرير الطبري في مقدمة تفسيره : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١ / ١٣ ، والإمام أحمدبن فارس في الصاحبي ص ٤٥ ، والإمام الباقلاني في إعجاز القرآن ص ١٣ ، ٣١ ، ومن المحدثين الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لمعرب ==

إن أبا عبيدة هنا لا يتحدث عن الأصل التاريخي ، وإنما عن الصورة الحاضرة للكلمة ، فهي بالألف واللام في أولها ، والقاف في آخرها عربية (بالتعريب) ، ولكنها بدون الألف واللام ، وبالهاء في آخرها فارسية ، والذي في القرآن الكريم هو الصورة العربية للكلمة ، وليست الفارسية ، وليس من حق أحد أن يزعم أن في القرآن شيئا بغير العربية ، ونلاحظ هنا أيضاً أنه يستعمل الباء (بالنبطية ، بالفارسية ، بالعربية) ، ولا يستعمل « من » ، وفي هذا من دقة التعبير والأمانة العلمية ما فيه .

إن مسألة التوافق بين اللغات التي أشار إليها أبو عبيدة ، والشافعي [١] ، ومن بعدهما ابن جرير الطبري [٢] ، ينبغي أن تفهم على هذا الأساس ، أي أن تكون للكلمة المعربة صورة أخرى أعجمية في لغة أخرى ، والمستعمل في القرآن هو الصورة العربية لا غير ، وعند بحث المسألة من الوجهة التاريخية فليس هناك ما يمنع أن يكون اللفظ أصيلاً في كلتا اللغتين ، وينطبق هذا على كثير من الألفاظ ذات الأصول السامية ، التي ورثتها هذه اللغات ، ومنها العربية من اللغة المشتركة التي انبثقت عنها جميعاً ، أعني اللغة السامية الأم .

لقد ارتضى جمهور العلماء تفسير أبي عبيد للخلاف بين علماء العربية [٣] ، فيما يتعلق بوجود الأعجمي والمعرب في القرآن الكريم ،

== الجواليقي ص ١١ ، والدكتور أحمد علم الدين الجندي في « في القرآن والعربية » ص ٢١٥ .

(١) في الرسالة ص ٤٥ : « لا ننكر أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلاً من لسان العرب .. » .

(٢) انظر : مقدمة جامع البيان ص ١٤ وما بعدها .

(٣) انظر في هذا : كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ١ / ١٣٧ ، والمعرب للجواليقي ص ٥٢ ، والمهذب للسيوطي ص ٩ ، وشفاء الغليل للخفاجي ص ٤ ، ==

وقد أثبت هذا البحث من منظور لغوي أنه لا أعجمي في القرآن ، وأنه ليس فيه شيء بغير لسان العرب ، وأن من قال إن كذا من النبطية أو من الفارسية ، فإن المقصود هو بيان الأصل التاريخي أو الإشارة إلى ما يقابل الصورة العربية بهذه اللغة أو تلك ، فـ « استبره » بالفارسية تقابل « الاستبرق » بالعربية ، واليم والطور بالعربية يقابلان « يَمًّا وطوراً » بالسوريانية ، وقد أثبتت الدراسات اللغوية المعاصرة صدق ما ذهب إليه هذا الإمام العظيم ، لأن اللفظ المستعمل في لغة مّا يكتسب جنسية هذه اللغة ، ولا يفقد في ذات الوقت جنسيته السابقة ؛ إذ « تنسب الكلمات المستعارة للأمة المستعيرة لها ، وللأمة المعيرة إياها على السواء » (١) .

اتجاهات اللغويين العرب في دراسة الألفاظ المعربة

فيما عدا مسألة احتواء القرآن الكريم على ألفاظ أعجمية أو معربة وهو ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، تلك المسألة التي شارك اللغويين في بحثها الفقهاء والمفسرون وعلماء الأصول ، انفرد اللغويون بدراسة المادة اللغوية المعربة ، وقد سلكوا في بحثهم مسلكين مختلفين ، أحدهما : يهتم بجمع الألفاظ المعربة ، والآخر : يحاول استخلاص القواعد العامة التي تخضع لها هذه الألفاظ عند التعريب ، وسنلقي الضوء على هذين الاتجاهين في دراسة المعرب ـ بإيجاز ـ فيما يلي :

= ورسالة في التعريب للمنشي ص ١٣٠ ، ومن المحدثين الدكتور يعقوب بكر في نصوص في فقه اللغة ٢/٢٦ ، والدكتور حلمي خليل : المولد في العربية ص ١١٨ .

(١) تنمية اللغة العربية ص ١٥ .

الاتجاه الأول

ركز اللغويون الذين سلكوا هذا الاتجاه على تأليف نوع من المعاجم الخاصة يمكن أن يطلق عليها « معاجم الألفاظ المعربة » ، حيث رأوا في هذه الألفاظ نوعاً خاصاً من الثروة اللغوية يجب استقصاؤها وشرحها والاستشهاد عليها ، مثلها في ذلك مثل الألفاظ المشتركة والمتضادة والمترادفة والغريبة .

لقد نظر هذا الفريق من العلماء إلى « المعرَّب » على أنه ظاهرة من ظواهر فقه اللغة العربية ، ومن ثم فإن دراسته تقع في إطار المعارف أو العلوم غير المضبوطة [١] ، ومن أهم خصائص هذا النوع من الدراسة أنه يهتم ببحث الجزئيات وحشد المفردات والاستقراء الكامل لمفردات الظاهرة موضوع البحث ، ولذا فقد كان من هدف هؤلاء ترتيب المادة اللغوية المعرَّبة بحيث لا يند عنها شيء يصل إليه علم المؤلف ، وممن سلك هذه الطريقة من فقهاء اللغة : الجواليقي في « المعرَّب » ، والخفاجي في « شفاء الغليل » ، والمحبي في « قصد السبيل » ، وبدر الدين المنشي في « رسالة في التعريب » [٢] ، وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات تتناول طائفة بعينها من المعربات ، مثل « الألفاظ الفارسية المعرَّبة » لأدي شير ، و« الألفاظ الآرامية الدخيلة في الفصحى » لفرنكل [٣] ، و« المفصل في الألفاظ الفارسية المعربة » لصلاح الدين

---

(١) انظر في خصائص المعارف أو العلوم غير المضبوطة : التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ١/١٦ ، وقارن بالدكتور تمام حسان : الأصول ص ١٣ - ١٩ .

(٢) طبعت هذه الرسالة ضمن رسالتين في المعرب بتحقيق الدكتور سليمان العايد .

(٣) طبع هذا الكتاب بالألمانية ، وقد رمزنا له اختصاراً بـ S. Freankel, AFW .

المنجد ، وإلى جانب هذين الضربين وجد نوع ثالث يتناول الألفاظ المعربة في نص بعينه ، وذلك كما فعل السيوطي في كتابيه « المتوكلي » ، و« المهذب » ، حيث تناول معرب القرآن الكريم ، وكما فعل جفري في كتابه عن الألفاظ الأجنبية في القرآن الكريم [١] .

وقد تضمنت مقدمات هذه المؤلفات بعض المعلومات المتعلقة بأمارات المعرّب ، ومذاهب العرب في استعماله ، وربما تحدث بعضهم عن التغييرات التي تلحق الألفاظ المعرّبة ، معتمدين في هذه النقطة الأخيرة على جهود أصحاب الاتجاه الآخر ، وخاصة سيبويه .

الاتجاه الآخر

أما أصحاب الاتجاه الآخر فقد تناولوا قضية الألفاظ المعرّبة من الوجهة التقعيدية ، مستغنين عن ذكر المفردات بذكر القواعد الكلية التي تخضع لها ، أي إنهم نظروا إلى التعريب على أنه ضرب من الصناعات أو العلوم المضبوطة [٢] ، التي يستغنى فيها بالقاعدة الكلية عن ذكر ما لا يحصى من المفردات ، وعلى النقيض من أصحاب الاتجاه الأول اعتمد هؤلاء الاستقراء الناقص بمعنى الاكتفاء بنماذج وعينات مختارة من الألفاظ المعرّبة ، وبذلك يدخل التعريب مبحثاً من مباحث علم اللغة .

لقد حاول أصحاب هذا الاتجاه ـ ما وسعتهم المحاولة ـ التقعيد للمعرّب مستنبطين قواعدهم من دراسة الثروة المعرّبة في النصوص

---

(١) طبع هذا الكتاب بالإنجليزية ، وقد رمزنا له اختصاراً بـ A. Jeffery, Foreigen voc .

(٢) انظر في خصائص الصناعات (العلوم المضبوطة) ، وهي الشمول والموضوعية والتماسك والاقتصاد ، كتابنا مدخل إلى علم اللغة الحديث ص ٣٧ ، وقارن بالمراجع التي ذكرت هناك .

الفصيحة التي وصلت إليهم ، مقارنين بين الألفاظ المعرّبة وأصولها الأجنبية التي كانوا يعرفون بعضها ، وخاصة الأصول الفارسية والسوريانية قديماً ، واللاتينية واليونانية في العصر الحديث .

لقد كان سيبويه في هذا المجال ـ كما في غيره ـ رائداً لكل من جاء بعده من اللغويين العرب قديماً وحديثاً ، وقد تغيّى هذا الفريق بمحاولته التقعيد للمعرّب تحقيق هدفين ، أولهما : نظري يعني بتفسير مناحي الاختلاف بين الكلمات المعربة وأصولها الأعجمية ، والآخر : عملي تطبيقي يوضح ما ينبغي مراعاته عند تعريب كلمات جديدة .

التقعيد للمعرب قديماً وحديثاً

كما ذكرنا ـ في الفقرة السابقة ـ فإن سيبويه كان أول من بعج قواعد التعريب وأصّلها ، ولم يزد عليه المتأخرون من النحاة واللغويين سوى ملاحظات جزئية متناثرة [1] ، وفي العصر الحديث ظهرت محاولات عديدة للتقعيد للمعرب ، كان من أبرزها محاولة أحمد عيسى في كتابه « التهذيب في أصول التعريب » ، ومحاولات أخرى عديدة قامت بها المجامع اللغوية ، وخاصة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

قواعد التعريب عند سيبويه

تناول سيبويه في الكتاب القواعد التي تخضع لها الألفاظ المعربة

---

(١) من ذلك على سبيل المثال حصرهم للحروف التي يجب إبدالها في الألفاظ المعرّبة ، وتلك التي يجوز فيها الإبدال .
انظر : في التعريب والمعرب (حاشية ابن بري على معرب الجواليقي) ص ٢٠ ، ومقدمة شفاء الغليل للخفاجي ص ٥ ، وانظر في جهود العلماء العرب بعد سيبويه صديقي . Siddiqi, studien, S. 39

في المجالات الصرفية والنحوية والصوتية ، وقد تناول النوعين الأولين بإيجاز ، ولكنه فصل في قواعد التعريب على المستوى الصوتي ، خاصة ما يتعلق من ذلك بالتعريب عن الفارسية .

- فعلى المستوى الصرفي لم يذكر سوى ما يتعلق بجمع ما كان على أربعة أحرف فصاعدا جمع تكسير ، فذكر أنه يكسر على مثال مفاعل ، وأنهم يلحقون جمعه الهاء إلا قليلاً ، وقد ذكر في تعليل هذه القاعدة أنهم ألحقوا المعرّب بنظيره العربي ، فـ « الجوارب » شبهوه بالكواكب حين أعرب ، و« الكيالجة » نظيره في العربية « صياقلة » (١) .

- وعلى المستوى النحوي ، اختص المنع من الصرف بالقواعد الآتية :

١ - كل اسم أعرب وتمكن في الكلام ، فدخلته الألف واللام ، وصار نكرة ، فإنك إذا سميت به رجلا صرفته ، إلا أن يمنعه من الصرف ما يمنع العربي ، وذلك نحو : الديباج واللجام ... إلخ .

٢ - الأعلام من نحو إسماعيل وإبراهيم وأشباه هذه الأسماء لم تقع في كلامهم (أي كلام العرب) ، إلا معرفة على حد ما كانت في كلام العجم ، ولذلك فهي تمنع من الصرف .

٣ - الأعلام الثلاثية (ساكنة الوسط) من نحو نوح ولوط ، تنصرف على كل حال لخفتها .

٤ - أسماء الأماكن الأعجمية (المعربة) ، إذا كانت على ثلاثة أحرف ، وسمي بها لم تنصرف كما لو سمينا امرأة بحمص وجور

---

(١) الكتاب ٣/ ٦٢٠ .

وماه (١) .

ويدل اقتصار سيبويه على هذه القواعد أن المعرّب في غير هذه الحالات يعرب إعراب الكلم العربي ، وأنه ـ فيما يتعلق بالتعريف والتنكير ـ تدخله الألف واللام ، ويلحقه التنوين ما لم يمنعه من الصرف ما يمنع العربي (٢) .

تقعيد سيبويه للمعرب على المستوى الصوتي

ذكر سيبويه للتعريب على المستوى الصوتي نوعين من القواعد ، يمكن أن يطلق على الأول قواعد الإبدال ، وعلى الآخر قواعد الإلحاق ، وينقسم النوع الأول إلى : قواعد الابدال المطرد ، وقواعد الإبدال الجائز .

قواعد الإبدال المطرد

صاغ سيبويه لهذا النوع من الإبدال قاعدة عامة أشبه بالدستور أو القانون الكلي ، وهي : « يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة » (٣) ، وفي إطار هذا القانون العام ذكر سيبويه مجموعة من القواعد ، أهمها :

القاعدة الأولى

« يبدل كل حرف ليس من حروف العربية بما قرب منه إبدالاً

---

(١) انظر هذه القواعد في الكتاب جـ٣/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ .

(٢) يقول ابن يعيش معللا لعدم صرف الأعلام الأعجمية الأصل : « وأما العجمة فإنها من الأسباب المانعة من الصرف ، لأن العجمة دخيلة على كلام العرب ، لأنها تكون أولاً في كلام العجم ، ثم تعرب ، فهي ثانية له ، وفرع عليه » شرح المفصل ١/ ٦ .

(٣) الكتاب ٤/ ٣٠٣ .

مطرداً » (١) .

وتطبيقاً لهذه القاعدة ذكر سيبويه مثالين من الفارسية ، هما :

- الكاف (أو الجاف) الفارسية ، ويبدل منها الجيم نحو الجربز والآجر (٢) ، وربما أبدلوا منها القاف أو الكاف ، فقالوا كربق وقربق .

- الباء التي بين الباء والفاء (الباء المهموسة) ، ويبدل منها الفاء كما في الفرند والفندق ، وربما أبدلوا الباء ، قال بعضهم « البرند » (٣) .

القاعدة الثانية

يبدل الحرف الذي لا يثبت في كلامهم (أي الفرس) إذا وصلوا (عند التعريب) جيماً ، وربما أبدلت قافاً ، وقد فسر سيبويه ذلك بأن الهاء في مثل موزه وكوسه تحذف في كلام الفرس وتبدل مرة همزة ، ومرة ياءً « فلما كان هذا الآخر لا يشبه أواخر كلامهم (أي العرب) صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم وأبدلوا الجيم (فقالوا كوسج وموزج) ، لأن الجيم قريبة من الياء ، وهي من حروف البدل » (٤) .

---

(١) الكتاب ٤/ ٣٠٥ .

(٢) كلمة الآجر ليست فارسية الأصل كما يوهمه التمثيل بها للإبدال في الفارسية ، وإنما هي كلمة أكادية انتقلت إلى كل من الفارسية والعربية والآرامية ، وهي بالجيم في أصلها الأكادي agurru ، وقد صارت في الفارسية agur ، وربما تكون قد عربت عن الأكادية مباشرة ، أو عن طريق الفارسية .
انظر في ذلك : هـ. تسمون H. Zimmern, AKK. Fw. S. 31 .

(٣) الكتاب ٤/ ٣٠٦ .

(٤) نفسه ٤/ ٣٠٥ .

القاعدة الثالثة

تُغَيِّر الحركة التي ليست للعرب بحركة عربية قريبة منها ، كما في تغييرهم الحركة التي في زُوْرْ (Zor) وآشوب (Ašob) (١) ، فيقولون زُورٌ وأشُوبٌ وهو التخليط ، لأن هذا ليس من كلامهم (٢) .

الإبدال غير المطرد

صاغ سيبويه قاعدة الإبدال الجائز بقوله : « ربما أبدلوا بعض الحروف التي هي للعرب بحروف عربية قريبة منها » .

ثم قال شرحاً لهذه القاعدة وتمثيلاً لها : « وأما ما لا يطرد فيه البدل فالحرف الذي هو من حروف العرب ، نحو سين سراويل ، وعين إسماعيل ، أبدلوا للتغيير الذي قد لزم (٣) ، فأبدلوا من الشين نحوها في الهمس والانسلال من بين الثنايا (أي السين) ، وأبدلوا من الهمزة العين لأنها أشبه الحروف بالهمزة » (٤) .

قواعد الإلحاق

ذكر سيبويه أن الإلحاق بأبنية الكلام العربي ليس من قواعد التعريب الواجبة ، وإنما هي أمر جوازي قد يحدث وقد لا يحدث ، نظراً

---

(١) في طبعة هارون للكتاب ضبط الزاي بالفتحة « زَوْرْ » ، وقد أخذنا الضبط الصحيح عن : صديقي Siddiqi, studien, S. 24 .

(٢) الكتاب ٤/ ٣٠٥ .

(٣) يوهم قول سيبويه في البداية « عدم اطراد الإبدال » ، وفي النهاية « للتغيير الذي قد لزم» وقوعه في التناقض ، وقد أجاب الشهاب الخفاجي عن ذلك بقوله : « لا تنافي ، لأن الإلحاق والتغيير فيما يقتضيه لازم بحسب الأصل ، غير لازم بحسب الورود والاستعمال » انظر: شفاء الغليل ص ٦ .

(٤) الكتاب ٤/ ٤٠٤ .

لأن العرب (ربما ألحقوه (أي اللفظ الأعجمي عند تعريبه) ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه » (١) .

ويؤخذ من الأمثلة التي ذكرها أن الإلحاق أكثر ، وقد فَسَّر ذلك بأن الإلحاق من مظاهر التعريب ؛ إذ « لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم ، كما يلحقون الحروف بالحروف العربية » ، وقد ختم سيبويه حديثه عن التعريب بعبارة جامعة تفيد أن هذه القواعد لا تعدو أن تكون تفسيراً وتوجيهاً لما حدث في الألفاظ الأعجمية عند تعريبها ، يقول - رحمه الله - : « فهذه حال الأعجمية فعلى هذا فوجّهها إن شاء الله » (٢) .

تعقيب ورأي

إن القاعدة الأولى من قواعد الإبدال المطرد ، وما تفرع عنها ، ينبغي أن يستضيء بها اللغويون المحدثون في محاولتهم وضع القواعد الصوتية للتعريب من اللغات الحديثة ، التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل كالفرنسية والإنجليزية والروسية وغيرها ، وما نظن سيبويه اقتصر على الفارسية إلا لأنها كانت معروفة له ، ولو كان قد عرف الآرامية والرومية (اليونانية) أو غيرهما من اللغات التي أخذت عنها العربية ، لكان قد كشف عن القواعد التي تنظم تعريب الألفاظ من هذه اللغات بشكل أعم وأوسع مما ذكره وطبقه على الفارسية .

وفيما يتعلق بالقاعدة الثانية ، فإن سيبويه لم يتسن له الإلمام بالتطور التاريخي لنطق الألفاظ في الفارسية ، واقتصر في موازنته بين الأصول

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٠٤ .

(٢) السابق ٤/ ٣٠٧ .

الأعجمية والألفاظ المعربة على الصور النطقية التي كانت سائدة في عصره ، وهو ما يعرف بالفارسية الحديثة (بعد ٦٥١م) ، ولو كان قد تسنى له معرفة البهلوية أو الفارسية الوسيطة (من ٢٢٦ - ٦٥١م) ، لعلم أن هذه النهاية التي كانت تلحق الكلمات الفارسية في عصرها الحديث ، أي الهاء في نحو موزه وكوسه [١] ، قد تطورت عن نهاية أخرى كانت تلحق الكلمات في الفارسية الوسيطة ، وهذه النهاية هي الفتحة متلوة بالجاف (الكاف الفارسية) ، وقد أبدلت هذه الكاف الفارسية إبدالاً مطرداً ، مرة جيماً ، وأخرى قافاً أو كافاً ، فقالوا : كوسج ، وكوسق ، ومعنى ذلك أن هذه الكلمات المعربة المختومة بالجيم أو القاف قد عُرِّبت في العصر البهلوي (الفهلوي) قبل الإسلام بزمن طويل .

وفيما يتعلق بالإبدال غير المطرد ، أي إبدال الحرف الذي هو للعرب عربياً غيره قريباً منه ، كما في إبدالهم الشين سيناً في إسماعيل وسراويل ، فلا نسلم أن الأمر كان جوازياً كما يعتقد سيبويه ، وإنما خضع هذا التغيير لقانون عام في اللغات السامية ، تحولت بمقتضاه كل الشينات الموروثة عن السامية الأم إلى سينات [٢] ، والذي نعتقده أن العرب قد استعاروا هذه الكلمات بالشين أيضاً ، ثم تحولت هذه الشين سيناً مع سائر الشينات في الكلمات السامية الأصل والمعربة ، سواء أكان ذلك من الفارسية أو العبرية أو الآرامية ، طالما كان التعريب في العصر الذي تم فيه هذا الانقلاب الصوتي ، وقد حُدِّد هذا العصر بحوالي سنة ٥٠٠ قبل

---

(١) انظر في تطور الهاء عن الجاف الفارسية (کَـ) : صديقي Siddiqi, studien, S. 21 ، وعبد الوهاب عزام في مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٨ ص ٤٦ ، ويعقوب بكر : نصوص في فقه اللغة العربية جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) أنظر هذه القوانين عند : موسكاتي Moscati, An introduction, P. 43 ، وبرجشتراسر Bergstrasser, Einfuhrung, S. 35 .

الميلاد إلى سنة ٥٠٠م ، أي في الألف سنة التي اكتنفت ميلاد السيد المسيح ، ويطلق على هذا القانون الصوتي قانون تبدل الأصوات الصفيرية ، وبمقتضاه صارت الشين الموروثة عن السامية سيناً كما في « سمع » التي يقابلها في الأكادية Semu ، وفي العبرية Sama ، وفي الآرامية Sma ، ومما يثبت سريان هذا القانون على الألفاظ المعربة ، تحول الشين سينا في لفظ « السارية » ، وهو معرب Sarita في الآرامية (١) ، ومن الأمثلة العبرية المعربة لفظ إسماعيل ، الذي استشهد به سيبويه ، وأصله العبري Yešmaꜥil (٢) ، وقد فات سيبويه عند حديثه عن هذا اللفظ أمران :

الأول : أن إسماعيل ليس لفظاً فارسياً ، وإنما هو لفظ سامي الأصل ، اشتركت فيه مع العربية كل من العبرية والآرامية ، وأغلب الظن أن الفارسية هي التي أخذته عن العربية ، بدليل وجود الشين في الفارسية ، وهذه الشين كانت موجودة في العربية قبل سريان هذا القانون (٣) .

الآخر : أن عين إسماعيل ليست مبدلة من همزة ، وإنما هي أصلية في الكلمة المأخوذة عن مادة (س م ع) العربية ، أو (Smꜥ) العبرية ، ويبدو أن سيبويه قد نظر إلى الصورة الفارسية للكلمة ، وهي بالهمزة ،

---

(١) برجشتراسر : التطور النحوي ص ١٤ ، مطبعة السماح .

(٢) هذا اللفظ مركب من جزءين ، هما : يشمع + إيل ، ومعنى الكلمة الأخيرة : الإله ، ثم خففت الهمزة كما في جبريل ، وقد تناولنا التطور الذي لحق بهذا النوع من الكلمات في بحثنا عن « لفظ جبريل بين العربية واللغات السامية » المنشور ضمن « بحوث لغوية وأدبية » ص ٦٥ - ١٠٥ .

(٣) ويعني هذا أن تعجيم هذه الكلمة قد تم قبل سنة ٥٠٠ قبل الميلاد يوم أن كانت العربية لا تزال تحتفظ بالشين .

نظراً لخلو الفارسية من العين ، وهذا نوع من التعجيم الذي خضعت له الكلمة عند نقلها من إحدى اللغات السامية إلى الفارسية .

وفيما يتعلق بالقاعدة الثالثة ، وهي التي تحدث فيها سيبويه عن تغيير الحركات التي ليست للعرب بحركات (أو حروف مد) عربية ، فهي قاعدة صحيحة ما أحرى اللغويين المعاصرين بالأخذ بها ، وقد أطلق سيبويه على هذا الضرب من تغيير الحركات مصطلح « التخليط » ، الذي تطور مفهومه فيما بعد ، وأخذ أبعاداً جديدة ربما لم تخطر على بال سيبويه .

وقد كان مراده وفقاً لما مثل به لهذا المصطلح أن الضمة الممالة (وكذلك واو المد) تتحول إلى ضمة صريحة ، حيث لا يوجد في الفصحى هذا النوع من الحركات ، فالكلمتان زور وآشوب ينطق بهما في الفارسية Zor و Ašob [١] ، ثم صارتا عند التعريب حركتين غير ممالتين ، ومن هنا يصبح التخليط تغيير الحركة غير العربية بحركة عربية قريبة منها ، ومن ثم فقد اختلطت في الكلمة المعربة العناصر الصوتية القديمة أو الأصلية في الصوامت بالعناصر العربية الجديدة في الصوائت ولم تعد الكلمة بعد تعريبها صوتياً خالصة للفارسية ، بعد أن امتزجت فيها الصوائت العربية بالصوامت الفارسية .

ويؤيد تفسيرنا لكلام سيبويه ما ذكره ابن فارس في المقاييس من أن مادة (خ ل ط) تخالف مادة (خ ل ص) ، تقول خلطت الشيء بغيره

---

(١) انظر في الأصل الفارسي للكلمتين : Siddiqi, studien, S. 24 ، وقد ضبط محقق « الكتاب » (الأستاذ هارون) كلمة « زور » بالفتحة ، وليس هذا الضبط صحيحاً ، لأن الواو المفتوح ما قبلها كثيراً ما توجد في العربية .

فاختلط ، ورجل مخلط أي حسن المداخلة للأمور ، قال أوس بن حجر :

وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني
يجدني ابن عمي مخلط الأمر مزيلاً

ويبدو أن هذا المعنى سرعان ما فهم على نحو آخر ، فأطلقه أبو عمر الجرمي على التغيير مطلقاً ، ثم جعله ابن جني مرادفاً للخطأ والخروج على المألوف (١) .

التقعيد للمعرب في العصر الحديث

لم تتوقف محاولات التقعيد للمعرب بعد سيبويه ، وقد بذلت أهم هذه المحاولات في العصر الحديث ، وهي لا تعدو أن تكون امتدادا لجهود القدماء ومكملة لها ، وقد أتاحت معرفة اللغات الأجنبية التي تأخذ عنها العربية الحديثة فرصة فريدة للغويين المعاصرين كي يوازنوا بين الألفاظ المعربة في صورتيها الأجنبية والعربية (بالتعريب) ، ومن ثم يستطيعون الكشف عن القواعد التي تخضع لها هذه الألفاظ عند تعريبها ، وقد أبعد بعضهم في هذه السبيل فوضع قواعد معيارية مبنية على اجتهادات أصحابها ، وليست مستنبطة من المادة اللغوية المعربة ، ويمكن تقسيم هذه المحاولات إلى :

محاولات فردية ، وأخرى جماعية نشير في إيجاز إلى أهمها فيما يلي :

---

(١) انظر في معنى التخليط عند الجرمي : المعرب للجواليقي ص ٥٧ ، وفي مفهوم التخليط عند ابن جني : الخصائص ١/ ٣٥٩ ، والمحتسب ١/ ٩٧ ، وقد تتبعنا هذا المصطلح بشيء من التفصيل في بحثنا عن « لفظ جبريل بين العربية واللغات السامية » ص ٨٢ - ٨٤ ، فارجع إليه .

المحاولات الفردية

ظهرت المحاولة الأولى في العصر الحديث قرب نهاية القرن التاسع عشر على يد رفاعة الطهطاوي [١] (١٨٧٨م) ، ثم تبعتها محاولة أخرى لسليمان البستاني في مقدمته لترجمة « الإلياذة » ، ثم تلا ذلك محاولة أمين المعلوف في مجلة المقتطف عام ١٩١١ ، وقد استمد هؤلاء الثلاثة معظم قواعدهم من آراء القدماء [٢] ، وفي عام ١٩٢٣م ظهر كتاب « التهذيب في أصول التعريب » لأحمد عيسى ، متضمناً أولى المحاولات الجادة للتقعيد للمعرّب في العصر الحديث ، وقد ضمنه القواعد المتعلقة بنقل جميع الأصوات من اللاتينية واليونانية ، وقدم بين يدي هذه القواعد الصوتية قاعدة عامة تتعلق بالنظام المقطعي ، وهذا يذكرنا بقاعدة الإلحاق بكلام العرب التي سبق إليها سيبويه ، يقول أحمد عيسى : « إذا ابتدأت الكلمة الأجنبية بحرف ساكن (لا تعقبه حركة) ، فإنه يزاد في أول الكلمة المعربة همزة قطع ، أو تضاف حركة بعد هذا الحرف الساكن » [٣] ، وهذا ولا شك إضافة جيدة لما أصّله القدماء .

ثم تلا ذلك محاولة محمد شرف في معجم العلوم الطبية والطبيعية عام ١٩٢٦م ، ثم محاولة ثانية لأمين المعلوف في تقديمه لمعجم الحيوان عام ١٩٣٢م ، وقد أعقب ذلك محاولتان لكل من عبد القادر المغربي (في كتابيه : « عثرات اللسان » من ناحية ، و« الاشتقاق والتعريب » من ناحية أخرى) ، والأمير مصطفى الشهابي خاصة في

---

(١) وخاصة في كتابه : « الذهب الإبريز في تلخيص باريز » .

(٢) انظر في تفصيل هذه المحاولات : إبراهيم بن مراد في « المعرب الصوتي » ص ١٩ وما بعدها .

(٣) التهذيب في أصول التعريب ص ١٣١ .

كتابه : « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » ، وقد ذكر فيه ثلاثاً وعشرين قاعدة ، وقد شهد عقد التسعينات من هذا القرن محاولتان قام بإحداهما محمود إيتيم في مقدمة ترجمته لقواعد الفهرسة الإنجلو أمريكية عام ١٩٨٣م ، وقام بالأخرى إبراهيم بن مراد في كتابيه : « المعرب الصوتي » و« دراسات في المعجم العربي » ، وقد اعتمد في تقعيده على دراسة تطبيقية استقرأ فيها طرق نقل الأصوات الأعجمية عند ثلاثة من العلماء المغاربة القدامى ، وهم : ابن الجزار (٣٦٩هـ) ، والشريف الإدريسي (٥٦٠هـ) ، وابن البيطار (٦٦٤هـ) ، واستخلص من ذلك قواعد تعريب الأصوات اليونانية واللاتينية كما وردت في آثار هؤلاء العلماء [1] .

المحاولات الجماعية

أما الجهود الجماعية التي بذلت للتقعيد للمعرب ، فتتمثل في جهود ثلاث هيئات أو مجامع لكل منها دوره المشكور في خدمة قضية التعريب ، ونذكر من هذه الجهود :

١ - جهود المجمع العلمي العربي في دمشق كما ظهرت في مجلة المجمع ، وخاصة في العددين ٢٨ ، ٣٢ .

٢ - جهود مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في أعداد مجلته التي تصدر من الرباط في المغرب الشقيق .

---

(١) وقد اقترح في كتابه : « دراسات في المعجم العربي » منهجية جديدة لتعريب الصوامت المفردة ، ثم وازن بين هذه المنهجية وبين القواعد التي سبقتها .
انظر الجداول الخاصة بهذه المنهجية ص ٣٣٣ .

٣ - ولعل أهم هذه الجهود الجماعية تلك الجهود التي بذلها ولا يزال يبذلها رجال مجمع اللغة العربية في القاهرة ، ونشير هنا بصفة خاصة إلى العدد الرابع من مجلة المجمع ، حيث تضمن هذا العدد قواعد تعريب الأعلام من اللاتينية واليونانية .

* * *

الفصل الرابع
نصوص في فقه اللغة العربية

النص الأول : من كتاب الأضداد
لمحمد بن المستنير المشهور بقطرب

١. تعريف بقطرب

هو أبو علي محمد بن المستنير ، اشتهر بلقب قطرب (١) الذي أطلقه عليه سيبويه ، عندما كان يبكر في الذهاب للأخذ عنه ، وقد ولد بالبصرة وترعرع بها ، ثم انتقل إلى بغداد حيث جعله هارون الرشيد مؤدبا لابنه الأمين ، مما يدل على أنه كان من أشهر علماء عصره ، وقد أخذ عن كبار علماء البصرة آنذاك وخاصة يونس بن حبيب (٢) ، كما أخذ عن عيسى بن عمر الثقفي ، وسيبويه ، له مؤلفات عديدة لم يبق منها سوى كتاب الأضداد (الذي نحن بصدده) ، وكتاب ما خالف فيه الإنسان البهيمة (٣) ، وكتاب الأزمنة ، وكتاب المثلث ، وقد ظل يمارس مهمة التعليم حتى وافاه الأجل المحتوم في بغداد سنة ٢٠٦هـ .

---

(١) قطرب اسم لدويبة دائبة الحركة ، أو لطائر ، ولها معان أخر ذكرها صاحب اللسان (٣٦٧١ ط. دار المعارف) ، وقد حكى ابن منظور أن « قطرب » لُقِّب به محمد بن المستنير ، لأنه كان يبكر إلى سيبويه فيفتح سيبويه بابه فيجده هناك ، فيقول له : ما أنت إلا قطرب ليل ، فلقب قطربا لذلك .

(٢) يقول أبو الطيب اللغوي (مراتب النحويين ص ١٠٩) ، وأخذ عن يونس بن حبيب ممن اختص به دون غيره محمد بن المستنير قطرب .

(٣) نشر المستشرق جاير R. Geyer هذا الكتاب ، وألحقه بكتاب الوحوش للأصمعي في فينا ١٨٨٨م ، وقد تناوله بالتحليل محمد حسين آل ياسين في « الدراسات اللغوية عند العرب (ص ٢١٢) » تحت عنوان « كتاب الوحوش ».

٢. كتاب الأضداد

كتاب الأضداد الذي اخترنا منه هذا النص هو أقدم ما وصل إلينا من كتب الأضداد ، وقد قام بنشره اعتمادا على نسخة خطية وحيدة في برلين المستشرق الألماني كوفلر H. Kofler في مجلة Islamica المجلد الخامس (ص ٢٤٣ - ص ٢٨٤) ، وقد قدم له وعلق عليه تعليقات مفيدة باللغة الألمانية ، نشرت في المجلد نفسه في الصفحات من ٣٨٥ - ٤٦١ ، ومن ٤٩٣ - ٥٤٢ [١] ، وقد احتوت نشرة كوفلر على ٢١٨ لفظا من ألفاظ الأضداد ، تناقلت معظمها الكتب التي ألفت بعد ذلك في الموضوع نفسه .

كتب الأضداد

إضافة إلى كتاب الأضداد لقطرب الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، ألفت في موضوع الأضداد كتب كثيرة لم يبق منها سوى :

١ ـ كتاب الأضداد المنسوب للأصمعي [٢] (٢١٣هـ) .

٢ ـ كتاب الأضداد لأبي محمد عبد الله بن محمد التوزي (٢٣٣هـ) .

٣ ـ كتاب الأضداد المنسوب لابن السكيت [٢] (٢٤٤هـ) .

---

(١) نشرت المجلة عقب تعليقات كوفلر بعض التعقيبات المفيدة عليها ، للمستشرق أوجست فيشر في الصفحات من ٥٤٢ - ٥٤٤ .

(٢) يرى رمضان عبد التواب أن كتاب الأضداد المنسوب إلى الأصمعي لا يعدو أن يكون نسخة ثانية من كتاب الأضداد لابن السكيت ، وعلى العكس من ذلك يرى هفنر ناشر « ثلاثة كتب في الأضداد » أن كتاب ابن السكيت هو رواية ثانية لكتاب الأصمعي .

انظر في ذلك : رمضان عبد التواب : Das Kitab al-Garib al-Musannaf, S. 90 ، وهفنر : ثلاثة كتب في الأضداد ص ١٦٣ ، ==

٤ - كتاب الأضداد للسجستاني (٢٥٥هـ) .

٥ - كتاب الأضداد لأبي بكر بن الإنباري (٣٢٨هـ) .

٦ - كتاب الأضداد لأبي الطيب اللغوي (٣٥١هـ) .

٧ - كتاب الأضداد لابن الدهان (٥٦٩هـ) .

٨ - كتاب الأضداد للصاغاني (٦٥٩هـ) [1] .

٩ - الأضداد لمحمد جمال الدين بن بدر الدين المنشي (١٠٠١هـ).

وفي العصر الحديث اهتم كثير من الباحثين العرب والأجانب بظاهرة الأضداد ، واتخذو من تلك المادة اللغوية التي وردت في كتب الأضداد (وغيرها من كتب التراث) مجالا للبحث والدراسة ، ونذكر من هؤلاء : محمد حسين آل ياسين ، الذي كتب عن الأضداد في اللغة (بغداد ١٩٧٤م) ، ربحي كمال الذي تناول « التضاد في ضوء اللغات السامية (بيروت سنة ١٩٧٢م) » ، ومن المستشرقين كل من : ردسلوب Th. M. Redslob في كتابه Die arabischen Worter mit entgegengesetzten Bedeutungen « الألفاظ العربية ذات المعاني

= وقارن بمحي الدين توفيق : ابن السكيت اللغوي ص ٢٤٢ ، وعبد الحميد الشلقاني : الأصمعي اللغوي ص ١٢٧ .

(١) لقد نشرت الكتب الثلاثة الأولى بعناية المستشرق هفنر في بيروت سنة ١٩١٢ تحت عنوان ثلاثة كتب في الأضداد ، وقد ذيلها الناشر بكتاب الأضداد للصاغاني ، أما كتاب ابن الأنباري فقد نشره المستشرق هونسما للمرة الأولى في ليدن ١٨٨١م ، ثم نشره محمد أبو الفضل إبراهيم في الكويت ١٩٦٠م ، كما قام عزة حسن بتحقيق كتاب أبي الطيب اللغوي في دمشق ١٩٦٣م ، وقام محمد حسين آل ياسين بنشر كتاب الأضداد لابن الدهان في مطبعة البحث بالعراق سنة ١٩٥٢م ، ثم طبع ثانية في بغداد سنة ١٩٦٣م ، كما نشر أيضا كلا من : الأضداد للتوزي ، والأضداد للمنشي ضمن ثلاث نصوص في الأضداد ، في بغداد ١٩٩٦م .

المتضادة » ، وقد طبع هذا الكتاب في جوتنجن ١٨٧٣م ، وفريدرش جيسه F. Giese في كتابه Untersuchungen über die Addad in altarabischen Dichtern « بحوث في الأضداد على ضوء ما ورد منها في الشعر العربي القديم » ، وقد طبع في برلين ١٨٩٤م [١] .

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات التي اقتصرت في تناولها على ظاهرة الأضداد ، فإن كثيراً من المؤلفين قد أفرد لهذه الظاهرة بابا أو فصلا خاصا في مؤلفاتهم ، نذكر منهم : أبو عبيد في الغريب المصنف ، وابن سيدة في المخصص ، والسيوطي في المزهر (معرفة الأضداد) ١ / ٣٨٧ - ٤٠٢ ، نولدكه في كتابه Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft « بحوث جديدة في علم اللغات السامية » ص ٧٦ - ١٠٩ .

ومن المعاصرين : رمضان عبد التواب في « فصول في فقه العربية ص ٣٢٦ - ٣٥٧ ، وتوفيق شاهين في « المشترك اللغوي » ص ١٣٠ - ٢١٣ ، عبد الغفار هلال في « علم اللغة » ص ٣١٤ - ٣٢٠ .

ظاهرة التضاد

لقد لفت أنظار اللغويين العرب وهم يقومون بجمع الثروة اللغوية وجود ألفاظ يدل الواحد منها على المعنى ، وعلى ضده في آن واحد ، فجمعوها في مؤلفات خاصة ، ثم تناولوها بعد ذلك بالدراسة والتحليل ، وقد عرضنا قبلا لما تبقى من هذه المؤلفات ، ويهمنا الآن أن نعرض لمفهوم هذه الظاهرة - كما كان يراها هؤلاء العلماء - .

---

(١) تناول أستاذنا الدكتور عبد التواب في كتابه « فصول في فقه العربية » هذين الكتابين بالدراسة التحليلية في الصفحات ص ٣٥٥ - ٣٥٧ .

لقد أدرك العلماء العرب - محققين - أن التضاد نوع من أنواع المشترك اللفظي ، الذي يعني تعدد معاني الكلمة الواحدة ، يقول قطرب : « الكلام في ألفاظه بلغة العرب على ثلاثة أوجه ، فوجه منها وهو الأعم الأكثر اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، وذلك للحاجة منهم إلى ذلك وذلك قولك : الرجل والمرأة واليوم والليلة ... ، والوجه الثاني : اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد ، وذلك مثل عير وحمار وذئب وسيد ... ، والوجه الثالث : أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا ، وذلك مثل الأمة (في معنى الدين ، وفي معنى الرجل يؤتم به ، وفي معنى القامة) ... ، ومن هذا اللفظ الواحد الذي يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا في الشيء وضده »[1] .

ولم يحدد لنا قطرب ما يقصده بالضد ، وكذلك لم يفعل الأصمعي أو ابن السكيت في الكتاب المنسوب لكل منهما ، وأول من فعل ذلك هو أبو حاتم السجستاني ، الذي ذكر في صدر كتابه عن الأضداد : « وضد الشيء خلافه وغيره »[2] ، وهذا يعني توسع بعض القدماء في مفهوم معنى الضد وجعله شاملا للمعاني المختلفة ، حتى وإن لم يصل هذا الاختلاف إلى أقصى درجاته ، وهو التنافي وعدم الاجتماع في المحل الواحد .

وقد تطور مفهوم الأضداد بعد ذلك ، فوجدنا أبا الطيب اللغوي لا يعتد بمجرد اختلاف المعاني ، حتى تعتبر الكلمة من ألفاظ الأضداد ، وإنما يشترط التنافي بين هذه المعاني ، حيث يقول في مقدمة أضداده (جـ ١

---

(١) Islamica V 244 .

(٢) ثلاثة كتب في الأضداد ص ٧٢ .

ص ١) : « والأضداد جمع ضد ، وضد كل شيء ما نافاه ، نحو : البياض والسواد ، والسخاء والبخل ، وليس كل ما خالف الشيء ضدا له ، ألا ترى أن القوة والجهل مختلفان ، وليسا ضدين ، وإنما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم ، فالاختلاف أعم من التضاد ، إذ كان كل ضدين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين » ، ويعني اختلاف التضاد هنا أن الضدين لا يجتمعان معا على المحل الواحد في نفس الوقت وبنفس الاعتبار ، ولكنهما قد يرتفعان معا .

إن مقارنة تعريف كل من السجستاني وأبي الطيب اللغوي للأضداد تظهر مدى تطور نظرة اللغويين العرب إلى هذه الظاهرة ، فبينما كان مجرد الاختلاف في المعنى مسوغاً لاعتبار لفظ ما من ألفاظ الأضداد عند قدامى اللغويين ، أصبحت علاقة التنافي بين المعنيين هي الفيصل في الحكم على وجود التضاد (١) .

إن علاقة التنافي التي ارتآها أبو الطيب اللغوي تتفق إلى حد كبير جدا مع النظرة اللغوية الحديثة إلى ظاهرة التضاد Antonymy ، ويمثل هذه النظرة العالم اللغوي الشهير « ليونز J. Lyons » الذي ذكر أن هناك أنواعا ثلاثة من المعاني المتقابلة يطلق عليها اسم« التضاد » ، وهي :

١ ـ علاقة التقابل الاستبدالي ، وتعني أن اتصاف شيء ما بمعنى يتضمن في نفس الوقت انتقاء المعنى الآخر أو العكس ، فوصف شخص

---

(١) يبدو أن المستشرق نولدكه Th. Noldeke لم يطلع على رأي أبي الطيب هذا ، ومن ثم نقد تجاوز الحقيقة عندما زعم في صدر بحثه عن الأضداد أن اللغويين العرب قد توسعوا جدا في مفهوم التضاد بحيث جعلوه صالحا لأن يشمل كل كلمة من نحو بيت ، وقتل ، وسلف ... إلخ .
انظر : Neue Beitrage, S. 67 .

ما بأنه أعـزب يتضـمن أنه ليس بمتزوج ، إذ لا يمكن أن يتـصف الشـخص بالأمرين معا .

٢ - علاقة الاختلاف في الدرجـة عند المقارنة ، وذلك مثل اتصاف شيء من الأشياء بأنه كبير أو صغير ، إذ إن الذي يحكم هذه العلاقة هو الدرجـة التي تتأتى عند مقارنته بأمر آخر ، فـقد يكون الشيء صـغيراً بالنسبة إلى ما هو أكبر منه ، ولكنه يكون كبيرا عند مقـارنته بما هو أصغر منه ، والمثال المشهور لذلك هو : « الفيل الصغير حيوان كبير » .

٣ - علاقة المغايرة ، وذلك مثل مغايرة البيع والشراء [١] .

ومن التأمل في هذه العـلاقات الثلاث التي ذكرها ليونز ، نجد أنها جـميـعـا يمكن أن تندرج تحت عـلاقـة التنافي الـتي ذكـرها أبو الطيب ، فـالأعزب ليس متزوجـا ، والصـغيـر ليس كـبيـرا ، والبيع ليس شـراء ، وهكذا [٢] .

نشأة الأضداد

إن دلالة لفظ واحد على أكثر من معنى ، أو كما يقول أولمان : « إن قدرة الكلمة الـواحدة على التعبيـر عن مدلولات متعـددة إنما هي خاصة من الخواص الأساسية للكلام الإنسـاني [٣] ، ولا تعني هذه القـدرة بحال أن تكون هذه المعـاني المتعـددة قد نـشـأت مـعاً في نفس الزمـان والمكان ،

---

(١) انظر في تفصيل القول حول الأنواع الثلاث في J. Lyons; Introduction to theoretical Linguistics ، وقد رجعنا إلى ترجمته الألمانية المعنونة Einführung in die moderne Linguistik. S. 471 - 481 .

(٢) يرى لاينـز أن العلاقـة الثانيـة هـي وحدهـا الجديـرة بأن يطلق عليهـا مصطلح « التضاد » . انظر : المرجع السابق ص ٤٧٣ .

(٣) دور الكلمة في اللغة ص ١١٤ .

وإنما تقتضي حكمة الوضع اللغوي أن يكون أحد هذه المعاني هو الأصل ، وبالتالي الأقدم ، ثم نشأت المعاني الأخرى بالتدريج في أزمنة مختلفة ، وأماكن متباينة ، مع الاحتفاظ غالبا بالمعاني الأصلية أو القديمة .

إن ظاهرة التضاد لا يمكن النظر إليها بمعزل عن النظر في ظاهرة أعم منها ، وهي ظاهرة الاشتراك اللفظي ، لأنها جزء منها كما يقول قطرب ، ومن هنا فإن العوامل المسئولة عن نشأة ظاهرة الاشتراك قد تكون في كثير من الأحيان هي نفسها المسئولة عن ظاهرة التضاد ، ولعل أهم العوامل التي تؤدي إلى ظاهرة تعدد المعنى للفظ الواحد (الاشتراك والتضاد) هي :

١ ـ الرغبة في الاختصار في المواقف التي يكثر فيها استخدام كلمة ما ، مثال ذلك كلمة « عين » التي يمكن أن تدل وهي مجردة عن السياق على معاني : عين الوجه ، عين الشمس ، عين الماء ، عين القوم [١] ، ونظير هذا في اللغة الانجليزية كلمة Operation التي قد تدل على عملية جراحية ، أو عملية عسكرية ، أو صفقة تجارية ، يقول أولمان : « إن هذه الطريقة (في اكتساب الكلمة معان عديدة) تبدأ بمجرد حدوث التغيير في تطبيق الكلمات واستعمالها ، ثم يعقب ذلك شعور المتكلمين بالحاجة إلى الاختصار في المواقف أو السياقات التي يكثر فيها تكرار الكلمة تكراراً ملحوظا ، ومن ثم يكتفون باستعمالها وحدها للدلالة على ما يريدون التعبير عنه ، لأنه ليس من الضروري مثلا ، بل لعله مما يوجب التندر أن تنص وأنت في مستشفى على أن العملية المشار إليها في

---

(١) انظر في هذه المعاني وغيرها للفظ العين : أبو الطيب اللغوي : شجر الدر ص ١٦١ وما بعدها ، والسيوطي : المزهر ١/ ٣٧٢ .

الحديث عملية جراحية ، وأنها ليست عملية استراتيجية ، أو صفقة في سوق الأوراق المالية ، فإذا ما تبلورت الكلمة ، وتحدد معناها الجديد في البيئة الفنية (الاجتماعية) الخاصة ، كان لا بد لها في الوقت المناسب من أن توسع في حدود دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة في الاستعمال اللغوي العام [١] .

٢ ـ استخدام الكلمة في معنى جديد ، مع بقاء استخدامها في المعنى الأصلي [٢] ، ويتم الانتقال إلى هذا المعنى الجديد في إحدى الصور التالية :

أ ـ أن يكون المعنى الجديد ذا علاقة مباشرة بالمعنى الأصلي (القديم) ، ويطلق على هذه الصورة اسم « الانتقال المجازي » ، ومن أمثلته في العربية : استخدام الثعلب للدلالة على جزء من أجزاء الرمح [٣] ، أو استخدام لفظ الريشة للدلالة على أداة الكتابة بالحبر ، تلك التي تتخذ من البوص أو الخشب ، ويلاحظ هنا أن المعنى الجديد لم تخصص له اللغة لفظا معيناً [٤] ، اكتفاء باللفظ القديم .

---

(١) دور الكلمة في اللغة ص ١١٥ ، ولعله من الممكن هنا أن نفسر على ضوء ما ذكره أولمان اكتساب الكلمات العربية لمعان مختلفة في اللهجات ، نظرا لأن أصحاب هذه اللهجات يمثلون بيئات مختلفة من حيث الاستعمال اللغوي ، فكان أصحاب كل لهجة عندما يكثر استخدامهم لتركيب معين مضاف ومضاف إليه ، أو موصوف وصفة ، يستغنون على سبيل الاختصار بأحد جزءي هذا التركيب ، ثم يجد هذا الاستعمال فيما بعد طريقه إلى اللغة المشتركة .

(٢) كثر هذا النوع في اللغة العربية بعد الإسلام خاصة ، نظرا لأن العديد من الكلمات القديمة استخدمت في معان جديدة مثل الوضوء والصلاةوالزكاة ، انظر في ذلك : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي .

(٣) انظر : اللسان (ثعلب) .

(٤) من أمثلة هذا النوع في الانجليزية Crane التي تدل أصلا على طائرمعين ، ==

ب - أن يشكل المعنى الجديد جزءا من المعنى الأصلي ، مثال ذلك استخدام لفظ مأتم الآن للدلالة على جمع من الرجال أو النساء في مناسبة غير سارة ، وهذا المعنى يمثل جزءا من دلالة لفظ مأتم القديمة ، وهي مطلق الاجتماع (١) ، وقد تتعدد هذه الدلالات الفرعية وتتنوع وفقا لمدى سعة المدلول الأصلي ، وربما كانت إحدى هذه الدلالات الفرعية تتنافى مع دلالة فرعية أخرى لنفس اللفظ ، مما يتيح اعتباره من ألفاظ الأضداد (٢) ، ويلاحظ هنا أيضا أن اللغة لم تخصص لهذه المعاني الفرعية ألفاظا خاصة بها .

ج - أن يكون المعنى الجديد الذي اكتسبه لفظ ما إلى جانب دلالته الأصلية له رمز لغوي خاص به ، إلا أن المرء يعزف عن استعماله مهابة له ، أو خجلا منه ، ويطلق على هذه الألفاظ المعزوف عنها اسم « ألفاظ التابو » Taboo-words ، أي الألفاظ المعزوف عنها لأسباب عقدية أو

= ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على الآلة الرافعة (الونش) ، ومن أمثلته في الألمانية : استخدام لفظ Flügel الذي يدل على الجناح في التعبير عن آلة موسيقية تشبهه ، انظر في هذه الأمثلة وغيرها : أولمان : دور الكلمة في اللغة ص ١٦٦ ، وف. نيشر Farb-undformbezeichnungen, S. 21 F .

(١) كان هذا اللفظ قديما يدل على الاجتماع في الفرح أحيانا ، وعلى الاجتماع في المناسبات غير السارة في أحيان أخرى ، ومن ثم فقد ذكرته معظم الكتب المؤلفة في الأضداد . انظر : أضداد قطرب Islamica V 240 ، أضداد أبي الطيب ١/ ٨ ، ثلاثة كتب في الأضداد ١٤٢ ، ٢٢٢ .

(٢) ذكر ابن الأنباري في أضداده (ص ٨) أن بعض اللغويين العرب قد فسر ظاهرة التضاد في اللغة العربية على ضوء هذه الصورة من صور اكتساب اللفظ للمعاني الفرعية ، وذلك قوله : « وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان (المعنيان الفرعيان) على جهة الاتساع » أي من باب إطلاق العام على بعض أجزائه ، وقد رأى كوفلر Kofler أن هذا هو السبب الرئيسي الذي يؤدي إلى التضاد في اللغة العربية . انظر : مجلة Islamica V 586 .

اجتماعية تجعل التلفظ بها إما محدودا في إطار ضيق جداً ، أو ممنوعا تماما ، ومن أمثلة ذلك في العربية استخدام الفعل « قضى » أو « انتقل » في معنى مات ، واستخدام لفظ « أدب » في معنى قضاء الحاجة [١] .

٣ ـ التماثل بين كلمتين تختلفان (في الأصل) مبنى ومعنى ، إلا أن هذا التماثل في الصورة اللفظية جعلهما تبدوان بمثابة كلمة واحدة ، وقد يحدث ذلك نتيجة للإبدال (التطور الصوتي) ، أو استجابة لمقتضيات الصياغة الصرفية ، وربما حدث ذلك بسبب تصحيف لحق بإحدى الكلمتين ، ومن أمثلة النوع الأول : ما حكاه التوزي من أن مُؤْد بمعنى هالك ، وبمعنى قوي ، من ألفاظ الأضداد ، وقد تعقبه أبو الطيب اللغوي فذكر أن الأولى من « ودى » ، والثانية من « الأداه » ، أي أنهما مهموزة ، غير أن تطورا صوتياً (هو تخفيف الهمزة) هو الذي جعلها تبدو متماثلة مع الكلمة الأولى [٢] ، ومن أمثلة النوع الثاني : اتفاق اسم الفاعل واسم المفعول من الأجوف والمضعف مما فوق الثلاثي ، مثل المبتاع والمبتد ، ومن أمثلة التصحيف ما ذكره قطرب من أن الأبلج له معنيان ، هما : الواضح والخفي ، وقد أوضح أبو الطيب في أضداده (١ / ٨٧) أن الذي يدل على الخفي إنما هو الأبلح بالحاء ، مما يعني أن تصحيفا قد لحق بهذه الكلمة جعلها تتماثل مع كلمة أخرى لها عكس معناها [٣] .

---

(١) ويتمثل ذلك في استخدام بيت الأدب في معنى محل قضاء الحاجة ، وقد حلت هذه العبارة الأخيرة محل « التبول أو التبرز » .

(٢) انظر : أبو الطيب اللغوي : الأضداد في كلام العرب ٢/ ٦٧١ ، وقد وافق نولدكه أبا الطيب في عدم اعتبار ذلك من قبيل الأضداد . انظر : Neue Beitrage S. 71 .

(٣) في النص الذي نشره كوفلر سقط السطر الأول ، الذي يفترض أن قطربا قد ذكر فيه أن الأبلج يأتي بمعنى الخفي ، وقد استكملنا النقص مما ذكره أبو الطيب ، ==

٤ ـ اختلاف اللهجات : يعني ذلك أن يستعمل اللفظ في قبيلة بمعنى ، وفي قبيلة خرى بمعنى آخر ، فإذا كان المعنى الأول مضاداً للمعنى الثاني ، كان ذلك من قبيل التضاد ، وإلا فمن المشترك .

ومن أمثلة ذلك ما أورده قطرب في صدر النص الذي أخذناه عن كتابه « الأضداد » ، وهو : « السامد بلغة طئ : الحزين ، وبلغة أهل اليمن : اللاهي ، وهذا ضد الحزين » (انظر : النص ص ٢١٩) .

وإلى جانب هذه العوامل التي ينتج عنها ما أسماه القدماء : « اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، سواء أكان هذا الاختلاف من قبيل التضاد ، أم لم يكن كذلك ، فإن هناك عوامل أخرى تؤدي إلى التضاد يمكن أن نطلق عليها الأسباب الخاصة بالتضاد ، ومنها على سبيل المثال :

أ ـ عموم المعنى الأصلي : ويعني ذلك أن يكون المعنى العام للفظ متسعا ، ثم يتحدد بعد ذلك متخذا طريقين متضادين ، فمن ذلك لفظ « مأتم » التي عدها قطرب وابن الأنباري من الأضداد ، لأنها تعني في الأصل مطلق اجتماع النساء في مناسبة سارة أو حزينة ، ثم أصبحت تعني الاجتماع في المناسبات غير السارة أحيانا ، والاجتماعات السارة في أحيان أخرى ، ومن ذلك أيضا الصريم الليل ، والصريم النهار ، لأن كلا ينصرم من الآخر .

ب ـ تداعي المعاني المتضادة وتصاحبها في الذهن ، ومن أمثلة ذلك لفظ « البين » التي تعني الوصالة كما تعني الفراق ، ذلك أن الوصال يستدعي في الذهن معنى الفراق .

== وقد تابع قطربا في هذا التصحيف الصاغاني ، انظر : ثلاثة كتب في الأضداد ص ٢٢٤ .

ج - زيادة القوة التعبيرية بإثارة اهتمام السامع من خلال التعبير عن الشيء باللفظ الذي يدل على ضد معناه ، إما درءاً للعين ، كتسميتهم الشيء الجميل باسم يدل على القبح ، وكأن كلمة القبح تدفع الأرواح الشريرة ، من ذلك : أننا نسمي الشيء المعجب بـ « فظيع » .

د - نسبة الصفة التي يتضمنها المعنى ، وذلك كأن نطلق لفظ « الجلل » على العظيم والحقير (انظر : النص ص ٢٢٠ ، ٢٢١) ، يقول الثعالبي : « الجلل اليسير ، والجلل العظيم ، لأن اليسير قد يكون عظيماً عندما هو أعظم منه » (١) .

هـ - التفاؤل : وذلك كتسمية الصحراء « مفازة » .

و - التهكم والسخرية كإطلاق لفظ « التعزير » الذي يعني التوقير والتعظيم على تأديب المذنب تهكما وسخرية (٢) .

مظاهر التضاد

كما يقع الاشتراك في اللغة في كل المستويات ، من صوتية ، وصرفية ، ونحوية ، ومعجمية ، فإن التضاد يقع فيها جميعاً ، ومن ثم فإن مظاهر التضاد هي :

١. التضاد في المعنى الوضعي (المعجمي)

يشكل التضاد في المعاني المعجمية أغلبية أمثلة التضاد ، ومن أمثلته لفظ الحنيف الوارد في قوله تعالى : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ [يونس : ١٠٥] ، فقد ذكر أبو الطيب اللغوي لفظ « الحنيف » ضمن

---

(١) فقه اللغة وسر العربية ص ٤٦٨ .
(٢) ألفاظ الأضداد في القرآن الكريم ص ٤١٤ وما بعدها .

الألفاظ المتضادة ، وذكر له معنيين ، هما :

أ - الحنيف يراد منه المائل عن الخير إلى الشر ، وقيل : هو المائل .

ب - الحنيف هو المائل عن الشر إلى الخير ، وقيل : هو المستقيم .

وهذا المعنى الثاني هو المراد في الآية الكريمة [١] .

٢. التضاد في المعنى الصرفي

المراد بالمعنى الصرفي ما تدل عليه الصيغ الصرفية من معان زائدة عن المعنى الوضعي ، وذلك كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، أو ما تدل عليه الوحدات الصرفية من معان متغيرة كالنوع والعدد والزمن ، ومن أمثلة ذلك : صيغة « فاعل » في قوله تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ [هود : ٤٣] [٢] .

وقد ورد هذا اللفظ في كتب الأضداد على أنه يعني :

أ - العاصم هو المانع .

ب - العاصم هو الممنوع .

وعلى ذلك فإن اللفظ في الآية الكريمة يحتمل الوجهين التاليين :

الأول : لا شيء مانع من أمر الله .

والثاني : لا معصوم اليوم ، أي لا ممنوع من أمر الله إلا من رحم .

---

(١) أضداد أبي الطيب اللغوي ٢/ ٢٢٥ ، وانظر أيضا : ألفاظ الأضداد في القرآن الكريم ، وهي رسالة ماجستير (مخطوطة) بإشرافنا للأستاذة نوف المؤذن ، بجامعة أم القرى ص ٢٧٢ .

(٢) أضداد قطرب ص ٨٦ .

٣.التضاد في المعنى النحوي

يراد بالمعنى النحوي تلك المعاني التي تؤديها الوحدات النحوية في جملة من الجمل ، وذلك مثل الفاعلية والمفعولية ... إلخ ، ويشمل أيضا معاني الأدوات النحوية ، مثل : الواو ، والفاء ، وثم ، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ [آل عمران : ٧] .

والواو في هذه الآية الكريمة تحتمل أن تكون للاستئناف ، كما تحتمل أن تكون للعطف ، وقد ذكرها ابن الأنباري ضمن أمثلة الأضداد [١] .

٤.التضاد على المستوى الصوتي

هذا النوع من التضاد قليل بالنسبة إلى الأنواع الأخرى من التضاد ، ويمكن التمثيل له بالمعنى الإيحائي في صوت الخاء في قوله تعالى : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ [الرحمن : ٦٦] ، حيث أفادت الخاء معنى القوة ؛ لوقوعها في مقابلة الحاء ، وهذه الخاء نفسها قد تفيد الضعف في موقع آخر ، كما في حديث أبي الدرداء ﷺ : « يخضمون ونقضم والموعد الله » ، فقد أفادت الخاء هنا معنى الضعف لمقابلتها بالقاف .

ظاهرة الأضداد في القرآن الكريم

لم تحظ ألفاظ الأضداد في القرآن الكريم بمثل ما حظيت به ألفاظ المشترك (الوجوه والنظائر) ، فلم يترك القدماء تصنيفاً خاصاً بهذه

---

(١) أضداد ابن الأنباري ص ٤٢١ ، وانظر : الرسالة المذكورة في الهامش السابق ص ٣٩٩ .

الظاهرة في القرآن الكريم ، وقد تدارك ذلك المحدثون ، فقدموا بحوثاً وكتبوا رسائل في موضوع الأضداد في القرآن الكريم ، وذلك على سبيل المثال :

١ - ألفاظ التضاد في القرآن الكريم بين اللغة والتفسير ، للباحثة : هناء شهاب ، وقد نشرته في مجلة التربية والعلم ، جامعة الموصل .

٢ - ألفاظ الأضداد في القرآن الكريم ، دراسة لغوية تحليلية ، وهو رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى ، للباحثة : نوف محمد المؤذن (بإشرافنا) .

٣ - ومن البحوث التي تتناول هذه الظاهرة أيضاً ما كتبه : محمد حسين آل ياسين ، في كتابه : الأضداد ، وما كتبه : أحمد مختار عمر ، في كتابه : علم الدلالة .

* * *

النص (١)

ومن الأضداد أيضاً السامد، والسامد بلغة طيئ الحزين، وبلغة أهل اليمن اللاهي، والسامد اللاعب، وهذا ضد الحزين، وقالوا أيضاً: السامد المُطرق، وقالوا: سَمَدَ الرجل يسمُد سمودا إذا لَعب، وقالوا: المَسْمُود الطَّائحُ الطَّرْف، وقالوا: المَسْمُود المغمى عليه، وقال جَلّ ثناؤه: ﴿ وَأَنْتُم سَامِدُون ﴾، قال ابن عباس: على اللغة اليمانية التي ذكرناها، وقال الكلبي: سَامِدون مهتمون على لغة طيئ (٢)، سمعنا من ينشد:

قِيلَ قُمْ، فَانْظُر إِلَيْهِم ... ثُمَّ دَعْ عَنْكَ السُّمُودَا

وقال رؤبة:

مَا زَالَ إِسْآدُ المَطَايَا سُمَّداً ... تَسْتَلِبُ السَّيْرَ اسْتِلاَباً مَسَدَا

---

(١) أخذنا هذا النص عن نشرة كوفلر لكتاب قطرب في مجلة إسلاميكا جـ ٥ ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) ذكر قطرب للسامد معاني: الحزين، اللاهي، اللاعب، المطرق، وللمسمود معنى الطائح الطرف، المغمى عليه، الشديد، وقد ذكر السجستاني (ثلاثة كتب في الأضداد ص ١٢٣) معاني السرعة والفتور، ولعل هذا الذي ذكره هو أصل المعاني التي ذكرها قطرب، فمن معنى السرعة أخذ اللهو واللعب والشدة، ومن معنى الفتور أخذت معاني الحزن والإطراق، والطائح الطرف (الشارد) والإغماء ويرى كوفلر Kofler أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو عدم شعور المرء بما يفعله، نتيجة حزن أو فرح، ومن هذا المعنى اشتقت المعاني الأخرى، بيد أنها أخذت طريقين مختلفين، إذ بينما أطلقت قبيلة طيئ هذا اللفظ على بعض معناه وهو الحزن، أطلقت القبائل العربية في اليمن اللفظ على جزء المعنى الآخر، أي الخاص باللهو والسرور، وهناك احتمالان آخران، هما: أن تكون سمد في معنى السرعة والخفة واللهو ... إلخ، مقلوبة قلبا مكانيا عن نسد، أو أن تكون سمد عبارة عن صيغتين مختلفتين في الأصل، هما: سَمَدَ ـ بالفتح ـ، وسَمِد ـ بالكسر أو الضم ـ، ثم اندمج الأصلان نتيجة التحول من فَعَلَ إلى فَعِلَ. انظر: مجلة إسلاميكا جـ ٥ ص ٣٩٣ - ٣٩٥.

وقال أبو زيد :

وَتَخَالُ العَزِيفَ فِيهَا غِنَاءً ‏ ‏ لِنَدَامَى مِنْ شَارِبٍ مَسْمُودِ

وقال ذو الرمة :

يُصْبِحْنَ بَعْدَ الطَّلَقِ التَّجْرِيدِ ‏ ‏ وَبَعْدَ سَمْدِ القُرَبِ المَسْمُودِ

قال أبو محمد (لعله اليزيدي) : المَسْمُود في بيت ذي الرمة الشديد ها هنا ، يقال امرأة مسمود أي شديدة الخلق … .

ومن الأضداد أيضا أمر جَلَلٌ ، هين ، وأمر جَلَل أي شديد ، وقال امرؤ القيس :

لَقَتْلُ بَنِي أَسَدٍ رَبَّهُمْ ‏ ‏ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ سِوَاه جَلَلْ

وقال الآخر :

رَسْمُ دَارٍ وَقَفْتُ فِي طَلَلِه
كِدْتُ أَقْضِي الغَدَاةَ مِنْ جَلَلِه (1)

وقال لبيد :

وأَرَى أَرْبَدَ قَدْ فَارَقَنِي ‏ ‏ وَمِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَلَلْ

غير عظيم ، وقال يجوز أن يكون غير هين ، وغير شديد ، قال أبو محمد : قال الأصمعي : مَنْ جَلَلِه مِن عِظَمِه في عَيْنِي ، أي في نفسي ،

---

(١) انظر شواهد أخرى لاستعمال الجلل في المعنيين في ثلاثة كتب في الأضداد ص ٩ ، ١٠ ، ٨٤ ، ١٦٧ ، وقارن بأضداد ابن الأنباري ص ٨٩ ، وأبي الطيب ١/ ١٥٠ ، وقد جمع توفيق شاهين هذه الشواهد في كتابه « المشترك اللغوي » ص ٣٥٤ وما بعدها ، وثمة كثير من الشواهد التي ذكرنا تطرب هنا ، ومن جلله هنا قد تعني من أجله كما ورد في الأضداد المنسوبة للأصمعي ص ١٠ .

وقالوا : مِنْ جَلَلِه مِنَ الجلة ، وقال الحارث بن هشام المخزومي :

قُلْتُ لِلرَّنَّةِ لَمَّا أَقْبَلَتْ ... كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ عَمْراً جَلَلْ

وقال الآخر :

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنَّ جُلُلاً ... وَلَإِنْ سَطَوْتُ لأُهِنَنْ عَظْمِي (١)

فقال : جُلُل فضم ، يريد العظيم ، كأنه جمع أمر جليل ، وجُلُلُ مثل ذليل وذُلُل ، وسرير وسُرُر ، وقال الأغلب :

كُلُّ ما فَاتَ سِوَى جَارِي جَلَلْ

المعنى ها هنا هين ، وقالوا الجَلَلُ : الشيء الصغير ، والجَلَلُ العَظِيم (٢) ، قال الأصمعي :

واحد الجُلُل جُلّي (٣) ... .

---

(١) انفرد قطرب هنا برواية ضم اللام على أساس أن الكلمة مجموعة ، والمشهور هو رواية الفتح ، على اعتبار أنها لفظ مفرد . انظر على سبيل المثال : ثلاثة كتب في الأضداد ص ١٠ ، ٨٤ .

(٢) لم يعين قطرب اسم القائل ، إلا أنه ورد في ثلاثة كتب في الأضداد (ص ١٠) أن القائل هو : أبو عمرو الشيباني ، وفي ص ٨٤ أن القائل هو « أبو عبيدة » .

(٣) يرى إبراهيم أنيس (في اللهجات العربية ص ١٩٢) أن اعتبار هذا اللفظ من الأضداد فيه لون من التعسف ، لأن الشاهد الذي ذكره ابن الأنباري لدلالة « جلل » على معنى « عظيم » وهو : « فلئن عفوت لأعفون جللا » فيه إهمال للسياق الذي ذكر فيه البيت ، وهو أن الشاعر يريد أن يعتبر العفو عن قتل أخيه أمراً بسيطا ، إذا قيس بما سيترتب على وقوع الشحناء بين قومه (في اللهجات العربية ص ١٩٥) .

ويميل إلى هذا الرأي أيضا كوفلر ، انظر : مجلة إسلاميكا جـ ٥ ص ٣٩٦ ، أما نولدكه فيرى أن جللا هنا تعني (عظيم) كما ذكر اللغويون العرب ، كما أنها تعني عظيما أيضا في بيت لبيد « رزء ذو جلل » ، أي رزء عظيم (انظر : Neue Beitr. S. 94) .

النص الثاني

من كتاب « القلب والإبدال » لابن السكيت

١. تعريف بابن السكيت

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت ، عالم لغوي ضليع ، من أشهر علماء مدرسة الكوفة في القرن الثالث الهجري ، وكان ثقة أمينا حسن التأليف [١] ، أخذ عن الفراء وأبي عمرو الشيباني وغيرهما ، كما أخذ عن الأعراب قدرا غير يسير من اللغة [٢] ، وقد ترك لنا العديد من المؤلفات اللغوية الهامة ، مثل كتاب « إصلاح المنطق » [٣] ، وكتاب « الألفاظ » [٤] ، وكتاب « القلب والإبدال » الذي اقتبسنا منه هذا النص ، وكتاب « الأضداد » [٥] ، وغير ذلك من الرسائل والكتب اللغوية الهامة ، وشروح الدواوين [٦] ، وقد توفي ابن السكيت سنة ٢٤٤هـ ، أو في سنة ٢٤٦هـ في بغداد [٧] .

---

(١) أبو الطيب اللغوي : مراتب النحويين ١٥١ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٣) نشره : عبد السلام هارون ، وأحمد محمد شاكر في القاهرة سنة ١٩٤١م .

(٤) نشره لويس شيخو اليسوعي مع شرح التبريزي وبعض الإضافات والتعليقات ، تحت عنوان « كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ » في بيروت سنة ١٩١٣م .

(٥) نشره هفنر ضمن ثلاثة كتب في الأضداد في بيروت سنة ١٩١٣م .

(٦) انظر في تفصيل مؤلفاته : محيي الدين توفيق : ابن السكيت اللغوي ص ٧٣ ، ١٢٨ ، ومقدمة حسين شرف لكتاب الإبدال ص ٢٢ ، ٢٦ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ٢ ص ٢٠٥ وما بعدها ، ونور القبس للحافظ اليغموري (تحقيق زلهايم) ص ٣١٩ ، وفي هذه المراجع ترجمة كاملة لحياته ولمصادر هذه الترجمة .

(٧) انظر في ترجمة ابن السكيت : مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٢٥١ ، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٠٢ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/ ٢٠٥ .

٢. كتاب القلب والإبدال

نشر هذا الكتاب للمرة الأولى في بيروت المستشرق هفنر، ثم نشره المجمع اللغوي في القاهرة سنة ١٩٧٨م بتحقيق حسين محمد شرف تحت عنوان «كتاب الإبدال»، وكان عنوان الكتاب كما ذكرته كتب التراجم، وكما هو موجود في صدر النسخ المخطوطة - أي «القلب والإبدال» - مدعاة لأن يشك بعض الباحثين [١] في أن الكتاب في الأصل يتناول قضيتين، هما: القلب (المكاني) في مثل: جبذ، وجذب، والإبدال في مثل: مدح ومده، ولم يبق منه سوى الجزء الخاص بالإبدال، وفي هذا وهم كبير، لأن مصطلح القلب لا يتحتم أن يراد به القلب المكاني، وإنما يطلقه كثير من العلماء ويريدون به الإبدال [٢]، وقد استعمل ابن السكيت نفسه لفظ القلب وأراد به ذلك، بل ربما كان مصطلح القلب في هذا المعنى هو الأكثر شيوعاً، ومن ثم فقد أضيف إليه مصطلح الإبدال من قبيل التفسير والتوضيح.

ونخلص من هذا إلى أن الكتاب قد ظل كاملا، وأنه يتناول ظاهرة واحدة، هي ظاهرة الإبدال [٣].

٣. معنى الإبدال

لاحظ علماء اللغة وهم يجمعون الثروة اللفظية للغة العربية وجود كلمات تتفق في معناها وفي حروفها، عدا حرفا واحدا، مثل التهتان

---

(١) يمثل هذا الرأي كل من: محيي الدين توفيق في كتابه «ابن السكيت اللغوي» ص ٢٦١، وحسين شرف في تقديمه لنشرة المجمع ص ٢٧.

(٢) انظر مثلا: سر صناعة الإعراب لابن جني جـ ١ ص ١٩٧.

(٣) تعرضت لهذه القضية بالتفصيل في كتابي «جهود العلماء العرب حول ظاهرة الإبدال ...» المنشور باللغة الألمانية ص ٥٠ وما بعدها.

والتهتال (في معنى المطر) ، ومثل مدح ومده ، وبنات بحر وبنات بخُر (في معنى السحب) ، ورأوا أن حلول حرف محل آخر في هذه الأمثلة وما أشبهها من الألفاظ ، إنما هو مقصورٌ على ما سمع عن العرب ، فأسْمَوا هذه الظاهرة إبدالا [1] ، وعلى هذا يكون الإبدال من مصطلح اللغويين والنحاة وعلماء الاشتقاق .

الإبدال اللغوي

جعل حرف مكان حرف آخر مع بقاء المعنى واحدا ، على نحو غير مطرد ، أي أننا إذا سمعنا من العرب : مَدَحَ ومَدَهَ ، تؤديان نفس المعنى ، فلا يلزم من ذلك أن كل كلمة وردت بالحاء قد وردت بالهاء أيضا ، فلا يقال في أصبح : أصبه ، لأن ذلك لم يسمع عن العرب ، ويسمى هذا النوع من الإبدال بالإبدال اللغوي ، ويوجد إلى جانبه نوعان آخران ، هما :

الإبدال النحوي

ويراد به جعل حرف مكان حرف آخر باطراد ، وهو يكون في الحروف الصحيحة وفي حروف العلة [2]، إذا اقتضته ضرورة تصريفية ، مثل : إبدال التاء طاءا في اصطبر ، أو دالا في ازدجر ، ومثل إبدال الواو

---

(١) شاعت للتعبير عن هذه الظاهرة مصطلحات أخرى ، مثل : القلب والبدل والمضارعة والمحول ، وغير ذلك . انظر : عز الدين التنوخي في تقديمه لكتاب الإبدالالأبي الطيب اللغوي ص ٧ ، إبراهيم السامرائي في : التطور اللغوي التاريخي ص ١٠٧ ، وقد ناقشت كل هذه المصطلحات وغيرها في كتابي : « جهود العلماء حول ظاهرة الإبدال ... » ص ٤٢ ، ٤٨ .

(٢) يطلق بعض الصرفيين على التغيير الحاصل في حروف العلة والهمزة مصطلح « الإعلال » ، ويجعلون الإبدال مختصا بالحروف الصحاح .

ألفا في قال ، وقد خص النحاة حروفا معينة يقع فيها هذا اللون من الإبدال ، جمعها ابن مالك في قوله : « أحرف الإبدال هدأت موطيا »[١] ، وهو عند اللغويين لا يختص بحروف معينة ، بل يجيء في كل الحروف ، وهناك فرق جوهري آخر بين الإبدالين اللغوي والصرفي ، يتمثل في أن صورتي الكلمة تستعملان معا عند اللغويين ، فيقال التهتان ، كما يقال : التهتال ، أما عند الصرفيين فلا تستعمل سوى صورة واحدة للكلمة ، وهي التي وقع فيها الإبدال أو الإعلال ، مثل « قال » أما الصورة الأخرى « قَوَلَ » ، فإنها صورة افتراضية لا وجود لها إلا في الذهن .

الإبدال الاشتقاقي

ويقصد به تبادل بعض الحروف للموقع الثاني في الكلمة ، في مثل : قَدَّ ، قطَّ ، قتَّ ، قضَّ ، أو الموقع الثالث في مثل : غمد ، غمر ، غمس ، غمض ، غمق ، غمت ، غمن ، وربما حدث ذلك الإبدال في الحرف الأول أيضا كما في : قضم ، خضم ، هضم .

وكان أحمد فارس الشدياق من أوائل اللغويين الذين فسروا تغيير الحروف في هذين المثالين وأشباههما ، على أنه من قبيل الإبدال ، وذكر أن هذه الكلمات تدل جميعا على معنى عام ، ثم تختص كل منها بعد ذلك بمعناها الخاص بها نتيجة لإبدال أحد الحروف ، والفرق الرئيسي

---

(١) يختلف النحاة في عدد أحرف الإبدال اختلافا كبيرا ، فهي عند سيبويه أحد عشر حرفا (انظر : الكتاب جـ ٢ ص ٣١٣ ط. بولاق) ، وعند الزمخشري وابن يعيش خمسة عشر (انظر : شرح المفصل جـ ١٠ ص ١٥) ، وقارن بابن الحاجب : الشافية جـ ٣ ص ١٩٩ ، واقتصر ابن مالك على الأحرف التسعة المذكورة .

بين هذا النوع من الإبدال والإبدال اللغـوي هو اختـلاف معانـي كلمات الإبدال الاشتقـاقي على الرغم من دلالتها جـميعا على معـنى عام واحد ، أما الإبدال اللغوي فيـتحد فيه معنى الكلمتين اتحـادا تاما ، يقول الشذياق عن المثال الأخـير (غمـد ، غمر ، ... إلخ) « أنهـا كلها تدل على السـتر والتغطية ، مع الاختـلاف في المعنى ، وبذلك تعلم أن هذا النسق لم يجر على ألسنة العرب عفوا » [١] .

والمقـصـود بالإبدال في النـص التـالي هو الإبدال اللغـوي ، وقـد يسميه العلماء بالقلب كمـا فعل ابن جني في سر الصناعة ، حيث ذكر أن « أصل القلب في هذه الحـروف إنما هو فيـما تقارب منـها ، وذلك الدال والتاء والطـاء ... » [٢] ، أو البـدل ، أو يسميـه بالاسـمـين جميعـا ، أي « القلب والإبدال » على سبيل التوضيح كما فعل ابن السكيت هنا .

٤. نشأة الإبدال

اختلفت آراء العلماء القدامى والمحدثين في نشأة الإبدال اللغوي ، ونكتـفي هنا بتلخـيص رأي أبي الطيـب اللغـوي من القـدامى ، ورأي إبراهيم أنيس من المحدثين [٣] :

١ ـ يرى أبو الطيب اللغوي أن أكثـر أمثلة الإبدال (وقد نسب إليه البـاحـثـون ـ بدون وجـه حق ـ أنه يرى أن جـمـيـع الأمـثلة) يرجع إلى اختـلاف اللهجـات ، قال أبو الطيب في مقـدمة كـتابه « الإبدال » : « أن

---

(١) سر الليالي في القلب والإبدال ص ٢٧ .

(٢) جـ ١ ص ١٩٧ .

(٣) راجع تفصيل هذه الآراء في كتابنا : « جـهود العلماء العرب حول ظاهرة الإبدال ... » ص ١٩٨ وما بعدها .

العرب في أكثر هذا لم تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة » [١] .

٢ - أما إبراهيم أنيس فإنه يقسم الكلمات التي اتفقت معانيها واختلفت مبانيها في حرف واحد (ألفاظ الإبدال) إلى قسمين :

أ - قسم تلمح فيه علاقة صوتية بين الحرفين ، وحينئذ يكون التطور الصوتي هو المسئول عن نشأة الإبدال ، أي إن إحدى الصيغتين تطورت عن الأخرى ، ويمكن تحديد الصيغة الأصلية بورودها في نص أقدم من نظيرتها ، فإذا تساوت الصورتان في ورودهما معا في نصوص قديمة ، فإن كثرة الشواهد هي التي تساعدنا في معرفة الأصل والفرع .

ب - قسم لا تلمح فيه هذه الصلة الصوتية ، وحينئذ فإن التشابه في بناء الكلمتين ، بمعنى اتحادهما في كل الحروف عدا واحدا ، يكون من قبيل الصدفة ، وتكون الصورتان مثل كل المترادفات التي تتحد معنى وتختلف صورة ، وهو لا يستبعد بعد ذلك أن يكون التصحيف والتحريف مسئولان عن وجود إحدى الكلمتين [٢] .

أما رأينا الخاص في نشأة ظاهرة الإبدال فقد أودعناه كتابنا « جهود العلماء العرب حول ظاهرة الإبدال ، مع اعتناء خاص بكتاب الإبدال

---

(١) انظر نص أبي الطيب في : كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ١٤٢ ، وقارن بالسيوطي : المزهر ١/ ٤٦٠ ، الذي نقل نص أبي الطيب ناقصا ، فذكر أنه قال : « ليس من المراد من الإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هو لغات مختلفة لمعان متفقة » ، وأسقط من النص في أكثرها .

(٢) انظر في تفصيل رأي إبراهيم أنيس كتابه القيم « من أسرار اللغة » ص ٧٥ - ٨٥ ، وانظر مناقشتنا لهذا الرأي في الإبدال اللغوي نشأته وتطوره ، مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية ص ٦١ .

لأبي الطيب اللغوي ... » ، وخلاصة هذا الرأي الذي اهتدينا إليه بعد دراسة كل أمثلة الإبدال الواردة عند أبي الطيب اللغوي هو أن ظاهرة الإبدال في اللغة العربية كما فهمها علماء اللغة قد نشأت نتيجة لأسباب عديدة ، من أهمها :

١ ـ اختلاف اللهجات العربية ، وهذا الاختلاف مسئول عن نشأة ما يزيد على ٦٠٪ من صور الإبدال ، ومن أمثلته أن قبيلة لخم التي ينتمي إليها النعمان بن المنذر ، وقبيلة سعد بن تميم التي ينتمي إليها رؤبة والعجاج ، تنطق بالحاء هاءا في كثير من الكلمات (انظر النص ص التالي ص ٢٣١) .

٢ ـ التطور الصوتي : أي أن إحدى الصورتين نشأت في عصر متأخر عن نشأة الصورة الأولى ، التي ظلت العربية محتفظة بها أيضا ، ومن أمثلة ذلك بَخَس عَيْنَه وبَخَصَها ، فَبَيْنَما يرفض كثير من اللغويين كلمة بَخَسَ لأنها من الكلام العامي في نظرهم ، يعتد بها آخرون ، ويعتبرونها مع الكلمة الموروثة عن الفصحى « بخص » من قبيل الإبدال [1] .

٣ ـ التعريب : قد يكون التعريب في حالات كثيرة هو المسئول عن ظاهرة الإبدال ، كما في الأُسْكُوف ، والأُسْكُوب ، أو الإِسْكَاف والإِسْكَاب (صانع الأحذية) [2] .

---

(١) انظر : كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي جـ ٢ ص ١٧٦ ، ويرى ابن قتيبة في أدب الكاتب ص ٤١٢ ، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٨٤ ، أن استعمال بخس عامي ، وبالتالي غير فصيح .

(٢) هذه الكلمة معربة عن اللغة الآرامية التي استعارتها من اللغة الأكادية كما يقول هـ . تسمرن في كتابه Akkadische Fremdworter; S. 28 . ==

٤ - الإتباع : وهو أن تتبع الكَلِمَةَ الكَلِمَةَ على وزنها أو رويِّها إشباعا وتأكيدا ، مثل حَسَنٌ بَسَن ، أو عَطْشَان نَطْشَان ، فليس لكلمة بَسَن أو نَطْشَان من معنى سوى تأكيد معنى الكلمة الأولى ، وقد كانت هذه الظاهرة مسئولة عن الإبدال في حالات كثيرة مثل هو رجل تُكَلَة وكُلَة (١) .

٥ - تأثر الناطقين بالعربية بلغتهم الأصلية ، كما في إبدال التاء كافا في نحو أَحْسَنْكَ بدلا من أحسنت (٢) .

٦ - الضرورة الشعرية كالقنص والقنز ، فقد وردت الصورة الثانية بالزاي لضرورة القافية في قول الشاعر :

هَذَا لَعَمْرُ اللهِ مِنْ شَرِّ القَنَزَ (٣)

هذه هي أهم الأسباب التي تؤدي إلى نشأة ظاهرة الإبدال ، وهناك أسباب أخرى أقل في الأهمية ، مثل ظاهرة الوقف التي تفسر لنا إبدال الياء جيما ، في مثل عَلِجّ بدلا من عَلِيّ (٤) ، وظاهرة التصحيف أو التحريف كما في مَحْفِد ومَحْقِد (٥) ، كما أنه قد تكون هناك فروق

== وانظر : كتاب الإبدال لأبي الطيب جـ ١ ص ٢١ ، وقارن بكتابنا « جهود العلماء العرب حول ظاهرة الإبدال ، مع اعتناء خاص بكتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي » ص ٢٤٢ ، حيث ذكرنا ما يزيد على خمسين مثالا من أمثلة الإبدال ، التي يرجع اختلاف صورتها الصوتية إلى التعريب .

(١) انظر في معنى الإتباع وأمثلته ومؤلفاته : السيوطي : المزهر جـ ١ ص ٤١٤ .

(٢) انظر التفاصيل في : كتابنا السابق ص ٢٥٤ وما بعدها .

(٣) كتاب القلب والإبدال ص ١٥ .

(٤) وتعرف هذه الظاهرة بالعجعجة . انظر في تفسير هذه الظاهرة كتابنا « جهود العلماء العرب حول ظاهرة الإبدال » ص ٢٦٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٧٥ ، وقارن بيروكلمان : الأساس في نحو اللغات ==

طفيفة بين معاني الكلمتين ، يتغاضى عنها اللغويون ، ويتعبرونهما من قبيل الإبدال ، وهما في الحقيقة من قبيل الترادف [١] .

* * *

= السامية المقارن جـ ١ ص ٢٣٥ ، وانظر : الإبدال لأبي الطيب اللغوي جـ ١ ص ٣٦ ، والقلب والإبدال لابن السكيت ص ٦٤ .

(١) انظر الأمثلة والتفاصيل في كتابنا السابق ص ٢٦٩ وما بعدها .

النص

باب الحاء والهاء [1]

قال الأصمعي : يقال مَدَحَ ومَدَهَ ، وما أحْسَنَ مَدْحَهُ ومَدْهَهُ ومِدْحَتَه ومِدْهَتَهُ ، قال : وقال الحارث بن مصرف : سَابَّ حَجْلُ بنُ نَضْلَة معاوية بن شَكَلٍ عند النعمان بن المنذر أو المنذر - شك فيه الأصمعي - فقال : حَجْلٌ إنَّهُ لَقَتَّالُ ظِبَاء ، تَبَّاعُ إمَاء ، مَشَّاءٌ بأقْرَاء ، قَعْوَ الإلْيَتَيْنِ ، مُقْبلُ النَّعْلَين ، أفْحَجُ الفَخذَين ، مُفجُّ السَّاقَين ، فقال المنذر أو النعمان : أرَدْتَ أنْ تَذُمَّهُ [2] فَمَدَهْتَه [3] .

وواحد الأقْرَاء قرْيٌ ، وهو مسيل الماء إلى الرياض ، قَعُوُّ الإلْيَتَيْنِ ، يقول ممتلئ الإلْيَتَين نَاتِئُهُما ليس بمنبسطهما ، مُفجُّ السَّاقَين أي مُتَبَاعِدَةٌ هَذه عن هذه ، ويقال قوس فَجْواء ، إذَا بَانَ وَتَرُهَا عَنْ كَبِـدِها [4] ، وأنشد

---

(١) يقع النص في ص ٢٦ من نشرة هفنر ، وص ٩٠ من نشرة المجمع وما بعدها ، وقد راعينا إثبات ما في النسختين وترجيح نشرة المجمع عند الاختلاف .

(٢) في نشرة هفنر : تذيمه (بدلا من تذمه) ، وهي تتفق مع ما ورد في اللسان (مادة قرأ) ، وفي الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١١٢ (ط. بيروت) .

(٣) قال المبرد بعد أن أورد هذه القصة : « وقوله : فمدهته ، يريد مدحته ، فابدل من الحاء هاء لقرب المخرج ، وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم كذلك تقول ، ولخم ومن قاربها » ، ويفهم من كلام المبرد أن الهاء خاصة بلهجة بني سعد بن تميم ، التي ينتمي إليها رؤبة والعجاج ، وبلهجة لخم التي ينتهي إليها النعمان .
انظر : الكامل جـ ٢ ص ١١٢

(٤) نلاحظ هنا أن ابن السكيت بعد أن أورد الشاهد الأول على إبدال الحاء هاء ، أخذ يشرح الكلمات الغريبة التي وردت في القصة ، ثم ذكر شاهد آخر على هذه الظاهرة ، وقد أورد المبرد بيت رؤبة كاملا ، وهو :

لله در الغانيات المُدَّهِ   سَبَّحن واسترجعن من تَأَلُّهِي

لِرُؤْبَة :

لِلَّه درُّ الغَانِيَاتِ المُدَّه

وقد كَدَحَهُ وكَدَهَهُ ، ويقال وَقَعَ مِنَ السَّطحِ فَتَكَدَّحَ وتَكَدَّهَ وأنشد لِرُؤْبَة :

وَخَافَ صَقْعَ القَارِعَاتِ الكُدَّه

والصَّقْعُ كل ضرب على يَابِس ، والكَدْهُ الكَسْر ، والقارعة كُلُّ هَنَة شَدِيدَةِ القَرْعِ .

ويقال : قَحَلَ جِلْدُهُ وَقَهَلَ (١) إذَا يبس وتَقَهَّلَ إذَا شَحبَ تَقَهُّلاً ، وَالمُتَقَهِّلُ اليَابِسُ الجلدْ ، وإِذَا كَانَ يَتَيَبَّسُ فِى القَراْة (٢) ، فَهُوَ مُتَقَهِّلٌ وَمُتَقَحِّلٌ ، وقَدْ جَلِهَ وجَلِحَ ، وهو الجَلَحُ والجَلَهُ ، إذَا انْحَسَرَ الشَّعْرُ عن مقدم رأسه ، قال رُؤْبَة (٣) :

بَرَّاقُ أَصْلَادِ الجَبِينِ الأَجْلَه

أَصْلَادَ جَمْعُ صَلْد ، وكُلُّ حَجَرٍ صُلْبٍ فهو صَلْدٌ .

ويقال : حَبَشَ له أشْيَاء ، وهَبَشَ لَهُ ، وهو يَحْتَبِشُ ويَهْتَبِشُ ، ويقال : تَحَبَّشَ بنو فلان ، وتَهَبَّشُوا إذَا تَجَمَّعُوا ، والأُحْبُوشُ الجَمَاعَة ، وأنْشَد

---

(١) ذكر ابن منظور أن الهاء هنا بدل من الحاء . انظر : اللسان جـ ١١ ص ٥٥٢ (ط. بيروت) ، وقارن بأبي الطيب اللغوي : الإبدال جـ ١ ص ٣١٤ .

(٢) القرأة : البلاء .

(٣) ذكر المبرد في الكامل ٢/ ١١٢ هذه الشطرة من أرجوزة رؤبة كشاهد على إبدال الحاء هاءا في لهجته ، وانظر : الإبدال لأبي الطيب ١/ ٣٢٠ .

لرؤبة :

لَوْلا حُبَاشَاتٌ مِنَ التَّحْبِيشِ   لِصِبْيَةٍ كَأَفْرُخِ العُشُوشِ [١]

وأنشد للعجاج :

كَأَنَّ صِيرَانَ المَهَا الأَخْلاَطِ   بِرَمْلِهَا مِنْ عَاطِفٍ وعَاطِ
بِاللَّيْلِ أُحْبُوشٌ مِنَ الأَنْبَاطِ

أي جماعة من الأنباط .

ويقال : حَقْحَقَ في السَّيرِ ، وهَقْهَقَ إِذَا سَارَ سَيْراً مُتْعِباً ، قال : وقول رؤبة :

يُصْبِحْنَ بَعْدَ القَرَبِ المُقَهْقَهِ

إنما أَصْلُه من الحَقْحَقَة ، وهو السير الشديد حتى ينقطع ، ثم قلبت الحاء إلى الهاء [٢] ، لأَنَّهَا أُخْتُهَا ، ثُمَّ قَلَبُوا [٣] الهَقْهَقَةَ إلى القَهْقَهَةِ .

---

(١) لعله من اللافت للنظر هنا ورود الحاء على لسان رؤبة ، وكنا نتوقع ورود الهاء ، لأن إبدال الحاء هاءً خاصية للهجة رؤبة وقبيلته ، ولقد روي البيت بالهاء فعلا في اللسان جـ ٦ ص ٣٦٣ ، وهنا نجد أنفسنا أمام روايتين للبيت ، إحداهما بالحاء ، والأخرى بالهاء ، ونُرَجِّحُ رواية الهاء ، التي وردت في اللسان ، على رواية ابن السكيت هنا ، لأن هذا يتسق مع بقية الشواهد ، ومما يقوي وجهة نظرنا أن الجوهري في الصحاح قد استشهد لمادة هبش ببيت آخر لرؤبة وهو : « أعدو لِهَبْشِ المَغْنَمِ المَحْبُوسِ » (انظر : الصحاح جـ ١ ص ٥٠٠) ، وعلى هذا تكون رواية الحاء هنا في بيت العجاج من الراوي لا من الشاعر .

(٢) استعمل ابن السكيت هنا مصطلح القلب في معنى الإبدال ، مما يؤكد وجهة نظرنا من أن مصطلح القلب الوارد في عنوان الكتاب هو مرادف لمصطلح الإبدال .

(٣) معنى القلب هنا هو تغير ترتيب حروف الكلمة ، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا القلب بسبب القافية .

ويقال في مَثَلٍ : شَرُّ السَّيرِ الحَقْحَقَة ، وقال مُطَرِّف بنُ الشُّخَيْرِ لابنٍ لَهُ : يَا عَبْدَ اللهِ : عَلَيْكَ بِالقَصْدِ وَإِيَّاكَ وَسَيْرَ الحَقْحَقَةَ [١] ، يريد الإتْعَاب .

ويقال للقصير : بُهْتُر وبُحْتُر [٢] .

ويقال : نَهِمَ يَنْهَمُ ، ونَحِمَ يَنْحَمُ ، وَنَأَمَ يَنْئِم بمعنى واحد ، وهو صوت كَأَنَّهُ زَحِير [٣] .

وقد أَنَحَ يَأْنَحُ ، وأَنَهَ يَأْنَهُ ، وأَنْشَدَ لِرُؤْبَة :

دَعَّابَةٌ يَخْشَى نُفُوسَ الأُنَّه

وصف فحلا يقول : يُرْعِبُ نُفُوسَ الَّذِينَ يَأْنَهُون .

وقال غَيْرُ الأَصْمَعي : يُقَالُ فِي صَوْتِه صَحَلٌ وصَهَلٌ أي بُحُوحَةٌ [٤] .

ويقال : هُوَ يَتَفَيْهَقُ فِي كَلاَمِه ، وَيَتَفَنْحَقُ في كَلاَمِه إِذَا تَوَسَّع فِيه

---

(١) ورد هذا المثال في جمهرة الأمثال للعسكري جـ ١ ص ٥٤٤ ، ومجمع الأمثال للميداني جـ ١ ص ٢٤٣ ، وفي فصل المقال للبكري ص ٢٣٣ ، وذكر محقق نشرة المجمع اللغوي أنه لم يعثر عليه فيما بين يديه من مصادر !! .

(٢) تستعمل كلمة بهتر بهذا المعنى ، وبمعنى الحسن والجيد في اللغة الفارسية ، ومن ثم فإنني أرجح أن تكون معربة عن الفارسية ، حيث لا يوجد لها اشتقاق في العربية (فرهنك كامل فارسي الماني ص ١٠٨) .

(٣) جاء في اللسان أن الهاء في هذا المثال لغة ، أي لهجة لقبيلة معينة ، دون أن يحدد اسم القبيلة ، ولنا أن نفترض أنها لغة بني سعد بن تميم ، أو لخم .

(٤) يمكن تفسير التبادل الصوتي هنا بأن هذا اللفظ إنما هو حكاية صوت اختلف العرب في طريقة محاكاته ، فعبّر بعضهم بالحاء ، والآخرون بالهاء ، وليس هناك ما يمنع من أن تكون الهاء في بني سعد بن تميم أو لخم .

وتَنَطَّعَ ، وأَصْلُهُ مِنَ القَهَقِ ، وَهُوَ الامْتِلاء [١] .

* * *

(١) حدد ابن السكيت هنا الصيغة الأصلية وهي الهاء ، وهذا يتفق مع ما في الكامل للمبرد ٢/ ٧٤ ، وما ذكره صاحب اللسان من أن الحاء بدل من الهاء ، وقارن بإبدال أبي الطيب ١/ ٣١٥ ، وفي نشرة هفنر بعد هذا المثال ، مثال آخر عن أبي زيد ، هو : أَهَمَّتني الحاجةُ وأَحَمَّتني .

النص الثالث

من كتاب « غريب الحديث »
لأبي سليمان الخطابي

أبو سليمان الخطابي هو الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البُستي الشافعي ، ينسب إلى الخطاب ، لأنه من ولد زيد ابن الخطاب بن نفيل العَدَوي ، وإلى مدينة بُسْت ، من أعمال كابول ، حيث ولد بها سنة ٣١٩هـ . أما « الشافعي » فهو نسبة إلى مذهبه الفقهي ، وقد ارتحل ـ رحمه الله ـ إلى العراق والحجاز ، يتلقى العلم عن مشاهير عصره ، وأقام فترة بنيسابور ، ألف فيها كتابه « غريب الحديث » [١] ، و« معالم السنن » ، وغيرهما ، ثم ألقى عصا التسيار في بلدته « بُسْت » ، حيث وافته المنية في سنة ٣٨٨هـ . بعد أن ترك في علوم القرآن والحديث مصنفات جمة المنافع ، عظيمة الفوائد .

من أهم مؤلفاته : معالم السنن في تفسير سنن أبي داود ـ أعلام الحديث في تفسير المشكل من أحاديث صحيح البخاري ـ إصلاح غلط المحدثين في إصلاح ألفاظ الحديث التي يرويها أكثر الناس ملحونة محرفة ـ غريب الحديث (وهو الكتاب الذي أخذنا منه النص) ـ بيان إعجاز القرآن ـ وغير ذلك من المصنفات [٢] .

---

(١) وكان قد ألف مسودته الأولى في بخارى سنة ٣٥٩ . انظر : مقدمة الخطابي .

(٢) انظر في ترجمته ومؤلفاته : مقدمة تحقيق كتاب « غريب الحديث » لعبد الكريم العزباوي ، ومقدمة تحقيق « إصلاح غلط المحدثين » للدكتور حاتم صالح الضامن ، وقارن بالمراجع العديدة المذكورة هناك .

كتاب غريب الحديث

غريب الحديث للإمام الخطابي هو ثالث ثلاثة كتب تعد أمهات كتب الغريب ، وهذه الثلاثة هي : غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (م ٢٢٤هـ) ، غريب الحديث لابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) (م ٢٧٦هـ) ، غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي .

يقول ابن الأثير : « هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب ، وهي الدائرة في أيدي الناس ، والتي يعول عليها علماء الأمصار » (١) .

لقد جمع الخطابي في كتابه هذا ما فات صاحبيه أبا عبيد وابن قتيبة من ألفاظ الحديث الغريبة ، وسار على منهجهما في ترتيب المادة اللغوية ، يقول - رحمه الله - : « ونحوت نحوهما في الوضع والترتيب ، فابتدأت أولا بتفسير (غريب) حديث رسول الله ﷺ ، ثم ثنيت بأحاديث الصحابة ، وأردفتها أحاديث التابعين ، وألحقت بها مقطعات من الحديث ، لم أجد لها في الرواية سندا ، إلا أنها أخذت عن المقانع من أهل العلم والأثبات من أصحاب اللغة » ، ثم ختم الكتاب بـ « إصلاح ألفاظ من مشاهير الحديث يرويها عوام النقلة ملحونة ومحرفة » (٢) .

لقد بدأ الخطابي كتابه بفصول تمهيدية تحث طلاب الحديث على تعلم لغة العرب ، وضرب أمثلة عديدة للتصحيف ، وسوء التأويل ، الناجمين عن إهمال تعلم أمثلة الأسماء ، وأبنية الأفعال ، ووجهات الإعراب ، ثم تحدث عن فصاحة الرسول ﷺ وما يُؤْثَرُ من حسن

---

(١) النهاية لابن الأثير ١/٨ .
(٢) غريب الحديث للخطابي ١/٤٨ ، ٤٩ .

بيانه ، ثم ختم هذه الفصول بما ننقله عنه من الفصل الذي عقده لبيان السبب الذي من أجله كثر الغريب في حديث الرسول ﷺ ، مع توضيح معنى « الغريب » ، واشتقاقه في لغة العرب ، وقد تلى ذلك تفسير غريب حديث المصطفى ﷺ .

معنى الغرابة

الغرابة في اللغة مصدر قولهم « غَرُبَتْ الكلمة » ، إذا كانت غامضة بعيدة من الفهم ، أما في الاصطلاح فقد استعمل « الغريب » والغرابة على ألسنة طوائف عديدة من أهل العلم ، كالنقاد والبلاغيين وعلماء المعاني وأصول الحديث (١) .

وسنكتفي هنا بإيراد المعنى الاصطلاحي للغرابة عند أهل الحديث ، الذين انقسموا بدورهم إلى طائفتين ، هما : علماء أصول الحديث ، وشراح الحديث .

الغرابة عند علماء أصول الحديث

تحدث علماء الأصول هنا عن « الغريب من الحديث » الذي عرَّفه ابن الصلاح بأنه : ذلك الحديث الذي ينفرد به بعض الرواة ، أو ينفرد فيه بعضهم بأمر لا يذكره غيره ، إما في صفته ، وإما في إسناده » (٢) .

ويقابل الغريب عند هذه الطائفة من العلماء العزيز من الحديث ، والمشهور من الحديث ، فالعزيز هو الذي يرويه رجلان أو ثلاثة ،

---

(١) انظر في التعريف الاصطلاحي للغرابة عند هولاء العلماء : كتابنا « الغرابة في الحديث النبوي » ص ٢٩ - ٤٦ .

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢٤٣ .

والمشهور هو ما روته جماعة (لا تصل إلى حد التواتر) ، والغريب من الحديث قد يكون صحيحا ، وقد يكون غير صحيح ، ويتوقف ذلك على توثيق الراوي أو تضعيفه ، ومن هنا فإنه يحتج بالغرائب التي ترويها كتب الصحيح [١] ، أو ينفرد بها الموثوق بهم (وتسمى بغرائب الشيوخ ، ومن ثم فالغرابة لا تنافي الصحة دائما) .

الغرابة عند شراح الحديث

يستعمل شراح الحديث مصطلح « غريب الحديث » ، ويعنون به - كما يقول الإمام ابن الصلاح - « ما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلة استعمالها » [٢] .

التأليف في الغرابة

لم يكن التأليف حول ظاهرة الغرابة مقتصراً على « غريب الحديث » ، وإنما شمل أيضا غريب القرآن الكريم وغريب اللغة ، بل وغريب ألفاظ الفقهاء ، وهكذا وجدنا تفسير غريب القرآن لابن قتيبة [٣] ، والمنتخب من غريب كلام العرب ، للهنائي المعروف بـ « كراع النمل » [٤] ، والمصباح المنير في تفسير غريب الشرح الكبير للرافعي ، من تأليف أحمد المقري الفيومي [٥] ، وقد جمع بعض العلماء بين غريبي

---

(١) مثال ذلك ما ذكره الحاكم النيسابوري من حديث عبد الواحد بن أعين ، الذي انفرد بروايته عن أبيه : « كنا يوم الخندق نحفر الخندق ، فعرضت فيه كذانة (صخرة) ... إلخ » ، قال الحاكم : فهذا حديث صحيح ، وقد تفرد به عبد الواحد .

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢٤٥ .

(٣) نشر الكتاب بتحقيق السيد أحمد صقر - بيروت ١٩٧٨م .

(٤) نشر الكتاب بتحقيق د. محمد بن أحمد العمري في مكة المكرمة ١٩٨٩م .

(٥) يعرف الكتاب بـ « المصباح المنير » للفيومي ، وقد نشر عدة مرات ، وأقدم =

القرآن والحديث في مؤلف واحد ، وذلك كما فعل الهروي في « الغريبين » ، وأبو موسى المديني في المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (١) .

أما الكتب الخاصة بـ « غريب الحديث » فهي كثيرة ، نذكر منها :

١ ـ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤هـ .

٢ ـ غريب الحديث لأبي محمد عبد الله بن مسلم ، المعروف بـ « ابن قتيبة » ٢٧٦هـ .

٣ ـ غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي ٣٨٨هـ .

وهذه هي أمهات كتب غريب الحديث كما ذكر ابن الأثير ، وقد طبع الكتاب الأول مرتين ، الأولى : في الهند بتصحيح / محمد عظيم الدين سنة ١٩٦٤م ، والأخرى : بتحقيق / الدكتور حسين شرف ، في القاهرة سنة ١٩٨٤م ، وقد نشر كتاب ابن قتيبة أيضاً مرتين ، الأولى : بتحقيق / الدكتور عبد الله الجبوري ، في بغداد ١٩٧٧م ، ثم بعد ذلك بعامين بتحقيق / محمد رضا السويسي ، في تونس ١٩٧٩م ، أما كتاب أبي سليمان الخطابي الذي اقتبسنا منه النص ، فقد طبع ضمن سلسلة من « التراث الإسلامي » ، التي تصدرها جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٢م .

٤ ـ غريب الحديث لإبراهيم الحربي ، وقد طبعت منه المجلدة

== ما نعرفه من المؤلفات حول غريب ألفاظ الفقهاء كتاب أبي منصور الأزهري « الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي » .

(١) نشر الكتاب الأول بتحقيق الدكتور محمود الطناحي في القاهرة ١٩٧٠م ، والثاني بتحقيق الدكتور عبد الكريم الغرباوي في جدة ١٩٨٦م .

الخامسة ، بتحقيق / الدكتور سليمان العايد ، في مكة المكرمة ١٩٨٢م .

٥ - غريب الحديث لابن الجوزي ، وقد نشر بتحقيق / الدكتور عبد المعطي قلعجي ، في بيروت سنة ١٩٨٥م .

٦ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، وقد طبع في القاهرة بتحقيق / علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

٧ - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٦٣م ، بتحقيق / أحمد طاهر الزاوي ومحمود الطناحي .

٨ - منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير ، وقد نشر في مكة المكرمة بتحقيق / الدكتور محمود الطناحي سنة ١٩٨٣م .

مظاهر الغرابة في الحديث النبوي

للغرابة في الحديث الشريف مظاهر عديدة ، تتعلق بنوع المعنى الذي حدث فيه الغموض ، فهناك ما يتعلق بالمعنى الوضعي أو المعجمي ، وهناك ما يتعلق بالمعنى الوظيفي ، سواء أكان صوتيا أو صرفيا أو نحويا ، وهناك ما يتعلق بالمعنى المجازي ، وهناك ما يتعلق بالمعنى العام (أو الاجتماعي) ، وسوف يتضح ذلك من خلال الأمثلة المختلفة التي أوردتها كتب الغريب ، ونجمل الإشارة إليها فيما يلي :

١ - الغرابة في المعنى الوضعي

المراد بالمعنى الوضعي ما يدل عليه اللفظ بحسب أصل وضعه في اللغة ، وقد يسمى أيضا بالمعنى المعجمي ، نظرا لاحتواء المعاجم عليه في

الغالب الأعم من ألفاظ اللغة ، وإذا وضعناه بإزاء المعنى المجازي ، فإنه قد يطلق عليه اسم الحقيقة التي عُرِّفَتْ بأنها : « ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، والمجاز ما كان بضد ذلك » (١) ، أو بأنها : « الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل : أحمد الله على نعمه وإحسانه ، وهذا أكثر الكلام » (٢) .

إن استقراء الأحاديث الغريبة يوضح بجلاء أن خفاء هذا المعنى الوضعي أو المعجمي يمثل ما يقرب من ٨٠٪ من جملة الأحاديث الغريبة ، وقد كانت هذه الكثرة النسبية لهذا المظهر من مظاهر الغرابة مدعاة لأن يذهب بعض الدارسين إلى إهمال ما عدا ذلك من مظاهر الغرابة (٣) ، ونكتفي هنا بإيراد المثالين الآتيين :

قال أبو عبيد في حديثه ﷺ أنه : « نهى عن بيع الكالئ بالكالئ » هو النسيئة بالنسيئة (٤) .

وقال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ أنه قال : « مَثَلُ الرَّافِلَةِ في غَيْرِ أَهْلِهَا كالظُّلْمَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ نُورَ لَهَا » : الرافلة في غير أهلها : المتبرجة بالزينة لغير زوجها ، يقال : رفل الرجل إزاره (إذا أرخاه)

---

(١) الخصائص لابن جني ٢/ ٤٤٢ .

(٢) الصاحبي لابن فارس ٢٣١ ، وقد خالف ابن جني هذا الرأي ، وذهب إلى أن أكثر الكلام مجاز (الخصائص ٢/ ٤٤٧) ، وانظر في هذا أيضا : المزهر للسيوطي ١/ ٣٥٥ .

(٣) انظر في ذلك : غريب الحديث لابن قتيبة ، تحقيق ودراسة السنية ص ٦٦ وما بعدها .

(٤) أي الآجل بالآجل (غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٠ ، ط. الهند) .

والرفل : الذيل [١] .

٢- الغرابة في المعنى الوظيفي :

يراد بالمعنى الوظيفي ما تؤديه الوحدات الصوتية والصرفية والنحوية من وظائف في الكلمة أو الجملة [٢] ، وقد يعتري الغموض ما تؤديه إحدى هذه الوحدات في الأحاديث النبوية الشريفة ، وهنا يأتي دور عالم الغريب ، فيوضح ذلك الغموض ، ويكشف عن السبب الذي أدى إليه ، ومن أمثلة ذلك :

أ - المعنى الصوتي

يراد بالمعنى الصوتي ما تؤديه الوحدة الصوتية من وظيفة بنائية ، بمعنى مساهمتها مع غيرها من الوحدات في حمل جرثومة المعنى المعجمي ، فإذا تغيرت الوحدة ترتب على ذلك تغيير في معنى الكلمة ، مثال ذلك إذا غيرت السين في كلمة « سائر » ، واستبدلتها بالصاد تغيرت الكلمة فأصبحت « صائر » وتغير معناها ، بيد أنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تبدل الوحدة الصوتية دون أن يتغير المعنى ، وذلك ما يعرف بالإبدال اللغوي[٣] ، وقد يؤدي الإبدال إلى الغموض في وظيفة الوحدة الصوتية ، بحيث يظن من لا يعرف أن هنا إبدالا بأنه أمام كلمة جديدة لها معنى مغاير ، ومن ثم يقوم عالم الغريب بالكشف عما حدث من إبدال ، ويوضح صورتي الكلمة التي حدث بها ذلك ، مما يعني أن لها

---

(١) غريب الحديث للخطابي ١/ ١١٥ .

(٢) انظر في المعنى الوظيفي وأنواعه : تمام حسان : في العربية معناها ومبناها ص ٣٣٨ ، وقارن بكتابنا : دلالة السياق ص ٤٣ .

(٣) انظر تناولنا لهذه القضية ص ٢٢٤ .

المعنى نفسه ، فمن ذلك :

- قال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ : « أنه سئل عن مضر ، فقال : كِنَانَةُ جَوْهَرُهَا ، وَأَسَدٌ لِسَانُهَا العَرَبِيّ ، وقَيْسٌ فُرْسَانُ اللهِ في الأَرْضِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ المَلاحِمِ ، وتَمِيمُ بُرْثُمَتُهَا وجُرْثُمَتُهَا » .

قوله : بُرْثُمَتُهَا ، إنما هي البرثنة - بالنون - . إحدى البراثن ، وهي المخالب ، يريد شوكتها وقوتها .

قال حسان بن ثابت :

قَدْ ثَكِلَتْ أُمُّهُ مَنْ كُنْتَ وَاحِدَهُ
وَكَانَ مُنْتَشِبًا في بُرْثُنِ الأَسَدِ

وقد تتعاقب الميم والنون في مواضع ، والجُرْثُمَةُ : الجُرْثُومَة ، وهي أصل الشيء ومجتمعه ، وقد يجوز أن يكون إنَّمَا أبدل النون في البرثن ميما ، ليزدوج الكلام وزنا وهجاء ، كما قالوا : إنَّهُ لَيَأْتِينَا الغَدَايَا والعَشَايَا ، وقد توضع النون مقابلة الميم في القوافي ، كقوله :

يَا رُبَّ جَعْدٍ فِيهِمُ لَوْ تَدْرِين
يَضْرِبُ ضَرْبَ السَّبْطِ المَقَادِيم (١)

لقد اعتمد الخطابي هنا في شرح الغرابة في الحديث على توضيح الجانب الصوتي المتمثل في إبدال النون ميما في لفظ بُرْثُنَة ، التي أصبحت بعد الإبدال بُرْثُمَة ، مما أدى إلى غموض المعنى ، وقد ذكر الخطابي أن السبب في هذا الإبدال هو حدوث التزاوج بين لفظي جرثمة وبرثنة ،

---

(١) غريب الحديث للخطابي ١/ ٥٢٤ ، وانظر مثالا آخر لهذا النوع من الغرابة في جـ١ ص ٣٠٠ .

ليزدوج الكلام وزنا وهجاء ، وذكر أن لهذا التزاوج ما يناظره في الأساليب العربية ، حيث أبدلت الواو ياء في الغدايا ، وأصلها غداوى ، جمع غدوة لازدواجها مع عشايا .

ب ـ المعنى الصرفي

يقصد بالغرابة في المعنى الصرفي أن يكون ثَمَّتَ غموضٌ فيما يتعلق بما تدل عليه الوحدة الصرفية [1] من معنى زائد على المعنى الأصلي أو المعجمي ، وقد تنسب هذه الدلالة الزائدة إلى الصيغة برمتها ، فيقال مثلا : أن صيغة فَاعَلَ تدل على المشاركة ، وصيغة انْفَعَلَ على المطاوعة ، وهكذا .

إنه ليس من النادر أن نجد صيغة ما قد استعملت للدلالة على معنى (صرفي) ، لم يُؤْلَف استعمالُهَا فيه ، وهنا تكون الغرابة التي يقوم عالم الغريب بالكشف عنها ، ومن ذلك على سبيل المثال :

- قال أبو عبيد في حديثه ﷺ : « أَنَّهُ سَأَلَ رَجُلاً أَرَادَ الجِهَادَ مَعَه فَقَالَ لَهُ : هَلْ فِي أَهْلِكَ مِنْ كَاهِلٍ ؟ » ويقال : مَنْ كَاهَلَ ؟ .

قال أبو عبيدة : هو مأخوذ من الكهل ، يقول : هل فيهم من أَسَنَّ وصار كهلا ، وقال أبو عبيد : يقال منه : رجل كهل وامرأة كهلة [2] .

قلت : في هذا الحديث الشريف روايتان ، إحداهما : كَاهِلٌ ، على وزن فاعل (اسم فاعل) في معنى كَهْل (صفة) ، وثانيتهما : كَاهَلَ على

---

(١) الوحدة الصرفية هي أصغر جزء في الكلمة يدل على معنى مستقل بذاته ، وذلك كدلالة الهمزة في صيغة أفعل على التعدية أو الصيرورة أو الدخول في الزمان أو المكان ... إلخ .

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٢ .

وزن فَاعَلَ (فعل ماض) في معنى اكتهل ، أي أسن وصار كهلا ، وكلا الصيغتين مما يخالف المعهود عند علماء اللغة ، مما جعل العلماء يعدونهما من الغريب .

ـ وقال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ : إِنِّي لَقِيتُ أَبِي فِي الْمُشْرِكِينَ ، فَسَمِعْتُ مِنْهُ مَقَالَةً قَبِيحَةً لَكَ ، فَمَا صَبَرْتُ أَنْ طَعَنْتُهُ بِالرُّمْحِ فَقَتَلْتُهُ فَمَا سَوَّءَ ذَلِكَ عَلَيَّ » ، قوله : فما سوأ ذلك علي ، أي : ما عابه ، ولا قال له أسأت ، وهو مهموز من السَّوْء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءُوا السُّوءَى ﴾ ، وزن فُعْلَى من السَّوْء [1] ، وهذا من أبي سليمان شرح للصيغة الصرفية (سَوَّأ) .

ج ـ المعنى النحوي :

يراد بالمعنى النحوي تلك الوظيفة التي تؤديها الوحدة النحوية (الكلمة) في إطار الجملة ، كأن تكون فاعلا أو مفعولا به ، أو حالا أو تمييزا ... إلخ ، وقد خصصت اللغة علامات معينة تشير إلى هذا المعنى النحوي ، وتُعَدُّ علامات الإعراب الوسيلةَ الأساسية التي تشير إليه وتحدده ، وللإعراب بدائل عديدة ، منها : ترتيب أجزاء الجملة ، ومنها : المطابقة والإسناد ودلالة الحال ، وغير ذلك [2] ، وقد يحدث أن تخفى الوظيفة النحوية نتيجة للغموض الذي يعتري العلامة الدالة عليه ، وهنا يتدخل عالم الغريب ليحدد المعنى النحوي ويكشف غموضه ، ومن ذلك على سبيل المثال :

---

(١) غريب الحديث للخطابي ١/ ٥٣٨ .

(٢) انظر دراستنا لقضية الإعراب ص ١٤٢ .

ـ وقال أبو سليمان في حديث أبي وائل أنه قال : « شهدت صِفِّين وبئست الصِّفُّون » قوله : وبئست الصفون إنما أعربه لأنه أجراه مجرى الجمع ، وما كان الواحد على بناء الجمع ، فإعرابه كإعراب الجمع ، كقولك : دخلت فلسطين ، وهذه فلسطون ... وفي هذا مذهب آخر ، هو أن يعربوا النون فقط ، ويجعلونها بالياء في كل حال ، كقولك : هذه السَّيْلَحِين ، ورأيت السَّيْلَحِين ، ومررت بالسَّيْلَحِين (١) .

ـ وقال أبو سليمان في حديث النبي ﷺ : « ... اللَّهُمَّ مَا صَلَّيْتُ مِنْ صَلاةٍ فَعَلَى مَنْ صَلَّيْتَ ، وَمَا لَعَنْتُ مِنْ لَعْنَةٍ فَعَلَى مَنْ لَعَنْتَ » .

الوجه في إعرابه أن يرفع الأول وينصب الثاني ، وهو على مذهب الدعاء والمسألة دون الحكاية والإخبار ، كأنه يقول : اللهم اجعل صلاتي وثنائي على من أكرمته بصلاتك ، وأهلته لثنائك ، واصرف لَعْني وسَبِّي إلى من استوجب لعنتك واستحق عقوبتك (٢) .

في المثال الأول تعلقت الغرابة بإعراب الاسم المفرد الذي على صيغة الجمع إعراب الجمع ، والمألوف في ذلك إعرابه بالحركات على النون ، أما في المثال الثاني فقد تعلقت الغرابة بخفاء المعنى النحوي التركيبي ، نظرا لسكون الوقف على « صليت ـ لعنت » الثانية ، وهنا أوضح الخطابي أن الوجه هو رفع « صليت » الأولى ، أي تحريك تائها بالضم ، ونصب « صليتَ » الثانية ، أي تحريك تائها بالفتح (٣) .

---

(١) غريب الحديث للخطابي ٣/ ٣٠ .

(٢) انظر الحديث بتمامه في المرجع السابق ١/ ٦٤٧ .

(٣) استعمل الخطابي هنا مصطلح الرفع والنصب في معنى الضم والفتح ، وكأنه لا يفرق بين حركة الإعراب والبناء ، وهذا مذهب بعض النحويين .

٣- الغرابة في المعنى الاجتماعي (العام)

قد يحدث أن تكون كافة المعاني المتعلقة بالمقال، سواء أكانت معجمية أو وظيفية، واضحة لا غموض فيها، ولكن المعنى العام أو الاجتماعي ينقصه ذلك الوضوح نتيجة لغياب السياق أو الموقف الخارجي (١)، الذي يؤدي دورا بارزا في الكشف عن المعنى المراد، أو ما يسمى وجه الحديث عند علماء الغرابة، وهنا يأتي دور عالم الغريب ليكشف عن الظروف الخارجية أو الملابسات غير اللغوية (وأحيانا اللغوية، وهو ما يسمى بالسياق اللغوي) للكشف عن المعنى المقصود، من ذلك على سبيل المثال: قوله ﷺ مخاطبا بعض النسوة: « قَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ تَمكُثُ فِي شَرِّ أَحْلاسِهَا فِي بَيْتِهَا إِلَى الحَوْلِ، فَإِذَا مَرَّ كَلْبٌ رَمَتْهُ بِبَعْرَةٍ ثُمَّ خَرَجَتْ، أَفَلاَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » (٢).

هنا لا يستطيع شارح الحديث أن يوضح المعنى المراد إلا بذكر المقام الخارجي الذي قيل فيه، ذلك المقام الذي لا يقتصر على المتكلم، وهو هنا المصطفى ﷺ، والسامع الذي هو بعض النسوة، وإنما يشمل أيضا الظروف الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، ثم بيان الظروف الجديدة التي طرأت على النظم الاجتماعية المتعلقة بعدّة المرأة، وبمراعاة كل ذلك يتكفل شارح الحديث ببيان الظروف السابقة واللاحقة، فيوضح أن المرأة في الجاهلية كانت تعتد على زوجها سنة كاملة، فإذا انقضت خرجت ورمت كلبا ببعرة، لتبين أن إقامتها في بيتها حولا كاملا بعد وفاة زوجها، أهون عليها من بعرة

---

(١) انظر دور السياق في الكشف عن المعنى في كتابنا « دلالة السياق » ص ٦٦.

(٢) انظر في هذا الحديث وشرحه: غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ٩٦ (ط. الهند).

يرمي بها كلب ضال ، وقد استنكر ﷺ عدم صبر بعض النساء أربعة أشهر وعشرا (وهو النظام الإسلامي لعدة المتوفي عنها زوجها) حيث كن قَبْلُ يَصْبِرْنَ عاما كاملا (١) .

٤- الغرابة في المعنى المجازي

من المعروف أن المجاز هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة بين المعنيين ، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي ، وقد يحدث أن تخفى العلاقة بين المعنيين الوضعي والمجازي على بعض السامعين ، خاصة إذا كانت هذه العلاقة مما يحتاج إلى إمعان نظر ، وإعمال فكر ، وقد جعل عبد القاهر الجرجاني جُلَّ مسائل الغرابة ، راجعا إلى هذا الصنف عندما قال : إنك تتأمل ما جمعه العلماء في الغريب ، فلا ترى الغريب منه - إلا في النادر - إنما كان غريبا من أجل استعارة هي فيه (٢) ، ومن أمثلة ذلك :

- قال أبو محمد في حديث النبي ﷺ : « أَجِدُ نَفَسَ ربكم مِنْ قِبَلِ اليَمَن » ، إنما يعني بذلك أن الأنصار من اليمن ، وأن الله قد نفس عنه الكرب بهم ، ويقال أنت في نفس من أمرك ، أي في سعة (٣) ، فابن قتيبة هنا أشار إلى المعنى المجازي الناجم عن تشبيه الأنصار بنَفَسِ الرحمن .

---

(١) دلالة السياق ص ٦٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٩٧ ، والاستعارة قد تطلق ويراد بها المجاز عموما .

(٣) غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٢٩١ .

أسباب الغرابة

من المعروف أن الغرابة أمر نسبي ، فما يكون غريبا بالنسبة لشخص ، قد يكون هو وحده المألوف لدى شخص آخر ، ونفس هذه القاعدة تصلح للتطبيق على المكان والزمان ، فما يكون غريبا في وقت ما قد يكون هو المألوف في وقت آخر ، وما يكون معتادا أو مألوفا في بيئة بعينها ، قد يكون غريبا في بيئة أخرى ... وهكذا .

ومن المعروف أيضا أن الرسول ﷺ كان أفصح الفصحاء ، ومن هنا فإن كلامه ﷺ كان مألوفا بالنسبة لمن يخاطبهم ، ويتوجه إليهم بحديثه الشريف ، وقد نشأت الغرابة في حديثه بعد زمنه ﷺ ، أو عند قوم لم يَتَوَجَّه إليهم حديثُه ، أو أُنَاس لم يكونوا على معرفة بالمقام الذي قيل فيه الحديث ، وقد فصلنا القول في كتابنا « الغرابة في الحديث النبوي » عن أسباب الغرابة ، ومن ثم فسوف نكتفي هنا بإيجاز هذه الأسباب ، وهي :

أولا : الأسباب اللغوية

للغرابة أسباب لغوية أو داخلية عديدة ، منها :

١ ـ المشترك : قد يكون للفظ الواحد معان عدة (وهو ما يعرف بظاهرة الاشتراك) ، ويكون السياق هو المسئول عن تحديد أحد هذه المعاني ، ولكن السياق قد يخفى أحيانا فتنجم الغرابة عن ذلك ، كما في قوله ﷺ : « تَوَضَّئُوا مِمَّا غَيَّرَت النَّارُ وَلَوْ مِنْ ثَوْرِ أَقَطْ » ، إذ مما لا شك فيه أن الذين وجه إليهم المصطفى ﷺ هذا الخطاب كانوا يعرفون المراد بالوضوء هنا ، وهو غسل الفم واليد بعد الفراغ من الطعام ، لينطفا

ويطيب ريحهما ، كما قال ابن قتيبة [١] ، فلما طال العهد ، وبعدت الشقة ، صار الناس في عهد ابن قتيبة (م ٢٧٦هـ) لا يعرفون ذلك ، وهل المقصود بالوضوء هو الوضوء الشرعي ، أو الوضوء بمعناه اللغوي ، وهو مجرد النظافة ، مما جعل ابن قتيبة يعتبر هذا اللفظ من الغريب .

٢ ـ اختلاف اللهجات :

ليس من النادر أن نجد الألفاظ الموسومة بالغرابة ذات طابع لهجي ، حيث كان المصطفى ﷺ وهو يخاطب أبناء اللهجات المختلفة يستعمل ألفاظا خاصة بهم ، قد لا يتيسر فهمها على غيرهم من الحاضرين ، وربما ورد ذلك في كلامه جوابا لمن يخاطبه منهم بلهجته ، اعتزازا بها ، أو لأنّه لا يحسن سواها ، ومن ذلك ما جاء في حديث قيلة : « تَحْسَبُ عَنِّي نَائمَة » [٢] ، قال أبو عبيد : أرادت : تحسب أني نائمة ، وهذه لغة بني تميم [٣] .

٣ ـ التعريب :

قد لا يكون للكلمة المُعَرَّبة شيوع الكلمة العربية الأصل ، لأنها أحدث ـ نسبيا ـ في مجال الاستخدام الفعلي من الكلمات العربية الأصيلة ، التي استقرت في أعماق الشعور اللغوي جيلا بعد جيل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الكلمات الأعجمية الأصل لا يشتق منها في الغالب ، ومن ثم فإن إدراك معنى هذه الكلمة يتوقف على

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ١٥٦ .

(٢) انظر الحديث بتمامه في غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٥٥ ، ومنال الطالب شرح طوال الغرائب لابن الأثير ص ٨٨ ، وانظر أمثلة عديدة أخرى لهذا السبب في كتابنا « الغرابة في الحديث النبوي » ص ١٤٨ .

(٣) اللغة هنا معناها اللهجة ، وتعرف هذه اللهجة بعنعنة تميم .

استخدامها بذاتها ، وذلك بخلاف الكلمات العربية التي تساعد مشتقاتها على فهم ما لم يسمع منها ، إذ يتاح للقياس اللغوي حينئذ أن يعمل عمله فيقيس المرء ما لم يسمع على ما سمع وهكذا ، ومن أمثلة الغرابة الناشئة عن التعريب قوله ﷺ في صفة أهل الجنة : « ... وَمَجَامِرُهُم الأَلُوَّة » (١) ، قال الأصمعي : هو العود يتبخر به ، وأراها كلمة فارسية عربت .

٤ ـ الاستخدام المجازي :

لا تؤدي كل المجازات ـ بالضرورة ـ إلى الغموض أو الغرابة ، لأن بعضها يكون مألوفا متاحا فهمه للخاصة والعامة على السواء ، ولكنه قد يوجد إلى جانب ذلك من المجازات ما يتجلى فيه جانب الإبداع والمقدرة على تسخير اللغة للتأثير على السامع ، وتمكين المعنى في نفسه ، وقد كان لرسول الله ﷺ في ذلك القدح المعلى ، والنصيب الأوفى ، إذ أتى باستعمالات مجازية لم يسبقه إليها أحد ، وقد كان بعض ذلك مما يحتاج إلى إمعان نظر وتَرَوٍّ ، وقد كانت المجازات النبوية مفهومة من الصحابة ﷺ ، ولكن عز فهمها على من جاء بعدهم ، من ذلك على سبيل المثال : قوله ﷺ : « أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ ، قِيلَ : لِمَ يَا رَسُولَ الله ؟ قالَ : لاَ تَرَاءَى نَارَاهُمَا » (٢) .

وفي هذا كناية عن الابتعاد (٣) حيث لا رؤية للنار .

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٥٤ ، وانظر أمثلة أخرى عديدة في كتابنا « الغرابة في الحديث النبوي » ص ١٦٠ وما بعدها .
(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٥٤ .
(٣) انظر في تفسير هذا الحديث : المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢١٨ .

الأسباب الخارجية (غير اللغوية):

المقصود بالأسباب الخارجية هنا تلك الأسباب التي تؤدي إلى غرابة معنى اللفظ دون أن يكون لها تعلق باللفظ في ذاته، وإنما ترجع إلى تغير في ظروف استخدامه، سواء أكانت هذه الظروف اجتماعية، كتأثير الإسلام في المجتمع العربي بتغيير العادات والتقاليد، أم تاريخية تتعلق بالعصر أو بالتطور اللغوي الذي تم فيه، وربما أدى اختلاف البيئات التي ينتمي إليها رواة الحديث إلى تأثر كل منهم ببيئته، مما يجلب الغموض فيما يرويه لغير أبناء هذه البيئة [١].

ومن أمثلة ذلك:

- وقال أبو عبيد في حديثه عليه الصلاة والسلام: « لا فرعة ولا عتيرة »، الفرعة: أول ما تلده الناقة، وكانوا يذبحون ذلك لآلهتهم في الجاهلية، وأما العتيرة فإنها الرجبية، وهي ذبيحة كانوا يذبحونها في رجب ... [٢].

- وقال أبو عبيد في حديث النبي ﷺ: « ... خذوا لها عثكالا ... »، وأما العثكال فهو الذي يسميه الناس الكباسة، وأهل المدينة يسمونه العذق [٣].

- وقال أبو عبيد في قوله ﷺ: « فأمر بالقدور فكفئت »؛ وبعضهم يرويه: « فأكفئت »، واللغة المعروفة بغير ألف [٤].

---

(١) انظر تفصيل ذلك وأمثلته في كتابنا « الغرابة » ص ١٧٢ - ١٩٥.
(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ١/١٩٦.
(٣) السابق ١/١٩٨.
(٤) السابق ٢/٣٧٦.

أما لماذا كثر الغريب في حديث رسول الله ﷺ ، فهو ما يجيب عنه الإمام الخطابي في النص التالي :

النص

السبب الذي من أجله كثر غريب حديث رسول الله ﷺ

إن الذي قدمناه من ذكر جَوامع كلامه ، وفصَّلناه من ضروب بيانه يكفي سبباً لكثرة ما يُوجَد من الغريب في حديثه ، ثم إنه ﷺ بُعِثَ مُبلِّغاً ومعلماً ، فهو لا يزال في كل مقام يقومه ، وموطن يَشْهَدُه ، يأمر بمعروف ، وينهَى عن مُنكر ، ويَشْرَع في حادثة ، ويُفْتِي في نازلة ، والأسماعُ إليه مُصغية ، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية ، وقد تختلف عنها عباراتُه ، ويتكرر فيها بيانُه ، ليكونَ أوقعَ للسامعين ، وأقربَ إلى فَهْم مَنْ كان منهم أقلَّ فِقْهاً ، وأقربَ بالإسلام عهداً ، وأولو الحِفْظ والإتقان ، من فقهاء الصحابة يرعونها كلها سمعاً ، ويَسْتَوْفُونَهَا حفظاً ، ويُؤَدُّونَهَا على اختلاف جهاتها ، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ ، تحتها معنى واحد ، وذلك كقوله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر »(١) ، وفي رواية أخرى : « وللعاهر الإثْلِب »(٢) ، وقد مرَّ بمسامعي ولم يثبت عندي : « وللعاهر الكَثْكَث » .

وقد يتكلم ﷺ في بعض النوازل ، وبحضرته أخلاط من الناس ، قبائلُهُم شتَّى ، ولغاتهم مختلفة ، ومراتِبُهُم في الحفظ والإتقان غير متساوية ، وليس كُلُّهم يَتَيَسَّر لضَبْط اللفظ وحَصْره ، أو يَتَعَمَّد لحفظه ووعْيه ، وإنما يستدرك المراد بالفحوى ، ويتعلق منه بالمعنى ، ثم يؤديه

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٤ ، ومسلم ٢/ ١٠٨٠ .

(٢) رواه أحمد ٢/ ١٧٩ ، ٢٠٧ من حديث ابن عمر .

بلغته ، ويعبِّر عنه بلسان قبيلته ، فيجتمع في الحديث الواحد إذا انْشَعَبت طُرقُه عِدَّة ألفاظ مختلفة مُوجِبُها شيء واحد ، وهذا كما يُروَى : « أنَّ رجلا كان يُهدي إلى رسول الله كلَّ عام راوية خمر ، فأهداها عامَ حُرِّمت ، فقال : إنَّها حُرِّمت ، فاستأذنَه في بَيْعها ، فقال له : إن الذي حرَّم شُربها حرَّم بيعها ، قال : فما أصنع بها ؟ قال : سُنَّها في البَطْحاء ، قال : فَسَنَّها » ، وجاء في رواية أخرى : فَهتَّها » ، وفي رواية أخرى : « فَبَعَّها » ، والمعنى واحد [١] .

وبلغني أن أبا عبيد القاسم بن سلام مكَثَ في تصنيف كتابه أربعين سنة ، يسأل العلماء عما أودعه من تفسير الحديث ، والناسُ إذ ذاك متوافرون ، والروضةُ أُنُف ، والحَوضُ ملآن ، ثم قد غادر الكثيرَ منه لمَنْ بعده ، ثم سَعَى له أبو محمد سعْيَ الجواد ، إذا استولى على الأمَد [٢] ، فأسْأَر القَدْرَ الذي جَمَعْناه في كتابنا هذا ، وقد بَقِي من وراء ذلك أحاديثُ ذات عَدَد لم أتَيَسَّر لتفسيرها ، تَرَكْتُها ليَفْتَحها الله على مَنْ يشاء من عباده ، ولكل وقت قوم ، ولكل نَشْء علم ، قال الله تعالى : ﴿ وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خَزَائنُه وما نُنَزِّلُه إلا بِقَدَرٍ معلوم ﴾[٣].[٤] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) الفائق ٣/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، وجاء فيه الثلاثة - يعني : السَّنَّ ، والهَتَّ ، والبَعَّ - في معنى الصَّبّ ، إلا أن السَّنَّ في سهولة ، والهَتَّ في تتابع ، والبَعَّ في سَعَة وكثرة ، وروي بالثاء : أي تذفها ، من ثَعَّ يَثع ، إذا قاء .

(٢) يشير إلى قول النابغة : « سبق الجواد إذا استولى على الأمد » ، وأبو محمد هو ابن قتيبة ، وجاء في اللسان (أمد) : أمد الخيل في الرهان : مدافعها في السباق ومنتهى غاياتها التي تسبق إليه .

(٣) سورة الحجر : ٢١ .

(٤) غريب الحديث للخطابي ١/ ١٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

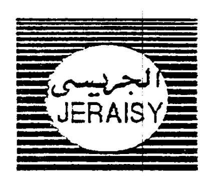
الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

الموضوع	الصفحة



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٣٨٠٣٥٥٦ / ٥٢٣٧٢٤٩ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة
محمول : ٠١٠٦٥٣٥٥٢٥ / ٠١٢٣٤٦٢٥٢٢